شيرين سامي

السيدة الحبري

رواية

شيرين سامي

السيدة الكبرى

رواية

alkarmabooks.com
facebook.com/alkarmabooks
x.com/alkarmabooks
instagram.com/alkarmabooks

الطبعة الأولى ٢٠٢٥
حقوق النشر © دار الكرمة ٢٠٢٥
© شيرين سامي ٢٠٢٥
الحقوق الفكرية للمؤلفة محفوظة

تتمسك الكرمة بحقوق الملكية الفكرية، فاحترام الملكية الفكرية يدعم الإبداع ويعزز الإنتاج الثقافي. نشكركم لشرائكم نسخة أصلية من هذا الكتاب، ولامتناعكم عن استخدام أو إعادة طباعة أي جزء منه بأي طريقة من دون الحصول على موافقة خطية من الناشر، لأنكم بذلك تدعمون المؤلفين وتسمحون للكرمة بالاستمرار في نشر الكتب التي تعجبكم.

هذا عمل أدبي خيالي. جميع الأسماء والشخصيات والأماكن والأحداث الواردة فيه هي من نسج خيال المؤلفة، أو مستخدَمة بشكل فني خيالي، ويجب عدم تفسيرها على أنها حقيقية. وأي تشابه مع أحداث أو أماكن أو منظمات فعلية أو أشخاص، أحياء أو أموات، فهو من قبيل المصادفة.

سامي، شيرين.
السيدة الكبرى: رواية / شيرين سامي - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢٥.
٤٠٠ ص؛ ٢٠ سم.
تدمك: 9789779603322
١- القصص العربية.
أ- العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٧٢٠ / ٢٠٢٥

تصميم الغلاف: أحمد فرج

المحتويات

من الفسطاط إلى قرطبة
٤٥٤ هجريًّا
من قرمونة إلى إشبيلية
٤٥٦ هجريًّا
من بلنسية إلى إشبيلية
٤٧١ هجريًّا
من إشبيلية إلى أغمات
٤٨٨ هجريًّا
شكر وتقدير
المؤلفة

تنويه

هذه الرواية الخيالية مستوحاة من وقائع حقيقية،

ولا تُعَد مرجعًا تاريخيًّا.

التاريخ يكتبه الغريب، أما الحقيقة فيكتبها المتيم.

من الفسطاط إلى قرطبة

٤٥٤ هجريًّا

١

وقفَت بثبات في الحفرة الواسعة، وسع يكفي أشخاصًا عدة، والعميقة بطريقة تسمح برؤية السماء وأطراف السطح، لكنها لا تسمح بالنجاة. عندما سقطَت ظنت أنها ميتة حتى وجدت أن صوتها ما زال يعمل وعينيها ما زالتا تريان. في قلب الحفرة، على الجهة المقابلة تمامًا، جلس رجل له مهابة على بساطته، في العقد السادس من عمره، يرتدي جلبابًا رماديًّا، يلف نفسه بوشاح صوفي كان أسود يومًا ما، وعلى رأسه عِمامة مترَّبة. يحاول أن يفتح معها حديثًا يؤنس اثنين في حفرة، لكنها توليه ظهرها، تفضِّل الوحدة، وتفكر فيما ينتظرها. لم ييأس من محاولاته في أن تجاريه. سألها بنبرة أبوية:

- هل كنتِ تائهة؟

أجابت من دون أن تنظر إليه:

- التائه لا يسقط في حفرة.

- هل أنتِ هاربة من أحدهم؟

ردت:

- ليس هذا المكان المناسب للاختفاء!

سأل ضاحكًا:

- ربما تكونين لصة؟

قالت بعدم اكتراث وهي تنظر أمامها:

- بل أنا قاتلة.

٢

«عليكِ أن تتوهي حتى تصلي. في التيه سلوى لكل الآلام، وفي الخلاء خلاص وصفاء للقلب، هناك حيث السماء بعيدة تجدين من يسمع ويرى ويطيِّب الخاطر».

ترددت كلمات العرَّافة في خواء روحها، بينما تسير على غير هدى بعد هروبها من القصر. قبل أن تسحب الشمس طرفها من السماء، تخطت الحدائق والمنتزهات من دون أن تتلفت خلفها، ثم تجاوزت النهر الضيق والبيوت المهجورة والساكنة، حتى وصلت إلى الخلاء بقدمين داميتين وقلب مهزوم بالخوف والتعب. تمزَّقت نعلاها من ركضها الطويل، وطارت طرحتها الخفيفة البنفسجية.

ساعات من الركض، استطاعت تمييزها من تغيُّر لون السماء. وحين وصلت، كانت مغطاة بعرق خفيف، ولفَّتها نسمات باردة، ومن ثَمَّ تحولت إلى دفقات تنخر العظام، ولم تصدق أن العرق والشتاء يمكن أن يجتمعا في بقعة واحدة.

توارى القمر خلف سحابة شفافة، فلم تحظَ إلا بالقليل من الضياء جعلها بالكاد ترى مسافة قدمين أمامها. أبطأت خطواتها، وعلى الرغم من الظلام الذي نزل على الأرض مثل الغضب الأعمى، فإنها كانت مطمئنة إلى أنها أصبحت في مأمن، فالليل مثل الحضن، وبغموضه هو أحن عليها من جرأة النهار. مشت بخطوات وئيدة على الأرض القاحلة، تتلمس طريقها بين شتلات من الزرع الرباني المهوش الذي يشبه رؤوس الذرة. فجأة، وجدت نفسها في الهواء، وشعرت بقلبها يتدحرج حتى قدميها، وبروحها تنسحب من جسدها إلى السماء، لا تعرف إن كانت تصعد أم تهوي، تطير أم تسقط! لا تشعر بشيء إلا برغبتها في الهرب والخلاص.

٣

بعد أن انتهت صلاة العشاء، راح ابن الحسن يؤدي طقسه اليومي في الاعتكاف في الخلاء. مشى بخطوات وئيدة على ضياء القمر، في يده مسبحته الكهرمانية، وعلى ثوبه وشاح صوفي. يقضي المسافة بين المسجد والخلاء في التسابيح والذكر، أحيانًا يرددها بقلبه وجوانحه حتى يشعر بأنه أصبح كتلة ابتهالات تسير على الأرض، وأحيانًا أخرى يرددها بلسانه، أما عقله فيلهج في فلك الأفكار الغامضة عن الدنيا الزائلة التي يتشبث بها، ويريدها أن تعود إلى الأندلس كما كانت. كل الجمال الذي يراه حوله في قرطبة لا يخدع قلبه، يشعر به كشيء فانٍ، كخلفية بعيدة لمشاهد من التعذيب والدمار.

تحرك الشيخ باتجاه بقعته الأثيرة في الخلاء، يصاحبه النور الخافت وصفير الريح، لكن في الطريق سمع أنينًا بعيدًا كأن شجرة تبكي. تتبَّع الصوت ومشى بسرعة لا تناسب عمره، كلما اقترب تبدل النشيج بالأنين، واستقر في قلبه أنها أنثى في خطر. لكن أي خطر في الخلاء؟ إن كل ما هناك صمت جميل، وسماء فاتنة، واتساع مُغوٍ للأفكار والخيالات البعيدة. أصبح النشيج كلمات، وأصبحت الكلمات أعلى وأقوى:

- أنا هنا، أنقذني.

اقترب أكثر حتى وقف على حافة حفرة متوسطة العمق، ورأى داخلها صاحبة الصوت، لم يتبين ملامحها، لكنه لاحظ أن لها عينين واسعتين تنظران إليه من عمق الحفرة مثل قطة مسكينة لا

تعرف أنها مسكينة، وتبرز أظفارها مستعدة للهروب. لم يكن معه إلا وشاحه، مده إليها وهو يحوقل ويبسمل، لكنه لم يصل إلى يديها الممدودتين، فخلع جلبابه وعقده بالوشاح الصوفي. ربما ابتسم للهواء البارد الذي تسلل إلى جسده شبه العاري لأول مرة منذ أن كان صبيًّا. هذه المرة استطاعت الفتاة أن تمسك بالوشاح، وبدأت في استخدام قدميها لتسلق الجدار الترابي بينما يشدها ابن الحسن، إلا أن قوتها تغلبت على قوته وانزلق الشيخ شبه العاري إلى جوارها في الحفرة.

سقط الشيخ على ساقيه، وشعر لوهلة بأنه لا يستطيع الحركة. وقف على مهل وهو يقاوم ألمًا في ركبته اليمنى، لكن شعوره بالألم لم يمنعه من أن ينتبه لعريه. أسرع في ارتداء جلبابه، وعلت وجهه ابتسامة غامضة لم تستطع الفتاة الجميلة تفسيرها، وقد لاحظ فيما تيسر له من الضوء أنها فتاة فاتنة كأنها واحدة من الحور، ترتدي فستانًا حريريًّا لم يؤثر التراب في بريقه. سألته في جزع:

- ما العمل؟

قال:

- العمل بيد الله.

سألت بعصبية كأنها تُحدث نفسها:

- كيف سأخرج من هنا؟

رد ضاحكًا:

- تسأليننى كأننى المسؤول عن سقوطك هنا، بينما أنتِ المسؤولة عن سقوطي!

كانت ترتجف، وبدأت في النحيب الصامت من دون أن تحاول سماعه. حار ابن الحسن كيف يهدئ من روعها من دون أن يثير جزعها بشكل أكبر. راح يُسبح بصوت خافت، ومر الوقت بطيئًا بينهما حتى توقفت الفتاة عن البكاء. سألته بهدوء:

- ماذا سنفعل؟

رد مبتسمًا:

- لتكن مشيئة الله.

ربما لم يرَ وجهها الشاحب، لكنه شعر بخوفها العميق الذي تحاول إخفاءه، فقال لها وهو يستغفر بداخله على كذبه:

- في الصباح يمر من هنا التجار، أحدهم سيساعدنا بكرم من الله.

بدت الطمأنينة كأنها ثوب لف الفتاة فجأة. جلست على الأرض، وضمت فخذيها إلى صدرها، ووضعت وجهها بين ركبتيها. وبينما كان ابن الحسن يجلس قبالتها ساندًا ظهره إلى جدار الحفرة، سمعها تقول:

- لن أنام، سأظل مستيقظة حتى يأتي التجار.

أدرك أنها ما زالت خائفة، لكن هذه المرة منه وليس من الحفرة. بعد برهة صمت، نهضَت وراحت تتحرك جيئة وذهابًا. كان واضحًا أنها تغالب النوم بالحركة. نهض الرجل وأَولاها ظهره، وأشار إلى السماء وقال:

- القمر اليوم وضّاء، هل تعرفين أن هذا فأل حسن؟

ردت الفتاة:

- كان أبي يكره التطير.

- لكن هذا ليس تطيرًا. أنا أرتاح لرؤية القمر المكتمل وأتفاءل به. التفاؤل يبعث في النفس الرجاء في عطاء الله.

حاولت تجاهله، ولم تتجاوب مع حكاياته عن القمر. بدأ يسألها مباشرة عن سبب وقوعها في هذا المأزق، فأجابته مقتضبة أنها قاتلة. شعر ببصيرته بأنه ربما دفعها الخوف إلى الكذب كحيلة دفاعية، فلم تكن هيئتها إلا هيئة أميرة ترتدي ثياب جارية. تركها وراح يتلو أذكاره، حتى شعر بها تتحرك من خلفه، سألها وهو موليًا ظهره لها:

- لماذا أتيتِ إلى هنا يا ابنتي؟

ردت ساخرة بلهجتها المصرية:

- ولماذا أتيت أنت إلى هنا؟

قال:

- بيتي على الطريق، اعتدت أن أعود إليه بأن أسلك هذا الطريق.

سألته:

- ولماذا تسلك طريقًا أطول؟

- أسلك الطريق الأطول لأنه يجعلني أتأمل، والتأمل يجعلني أتخفف من همومي، والتخفُّف من همومي يجعلني أصل أسرع.

ثم عاد يسألها:

- وأنتِ كيف وصلتِ إلى هنا؟

قالت بتردد:

- بعد أن فقأت عينَي الرجل الذي اقترب مني، سرت ألف باع، ثم هبط الظلام وفجأة سقطت في الحفرة.

قال ضاحكًا:

- لن تريني ثانية. لستِ بحاجة إلى الكذب. نحن غريبان، وعندما تشق الشمس السماء سنفترق.

ثم عاد يقول:

- الحديث يمرر الوقت.

قالت:

- لا أعرف من أين أبدأ. من وقت أن أصبحت جارية هنا، أم من وقت أن كان لي بيت وأهل في مصر!

اتسعت ابتسامة الشيخ وقال:

- مصر! على الحسين النور والسلام.

٤

لم تكن هذه المرة الأولى التي أُحبس فيها في مكان. حُبِست في الحمَّام ثلاث مرات.

المرة الأولى عندما كنت طفلة في السادسة تطير في حواري الفسطاط مثل فراشة بلا مروج، تتلمس سعادتها بين بِرك الماء العطن والطين وروث الحيوانات. من قال إن السعادة لها حدود وملامح وألوان؟ كانت حياتي مجموعة من الروائح؛ عرق أبي، طواجن أمي، شجرة الجوافة أمام بيتنا، الغسيل المُزهر، الورق في الكتاب، الفطائر المحلاة بالسكر على ناصية شارعنا، زيت الزيتون من شعر صديقتي قمر، البالوظة التي يصنعها أبوها، القرنفل الذي تشربه أمها.

يومها سرت كالممسوسة وراء رائحة فطيرة السكر التي كانت تحملها عيشة بائعة الحلوى، وكانت عادة ما تعطيني لقمة ساخنة كلما رأتني. دخلت عيشة حمَّامًا للنساء، وعندما أوقفتني حارسة الباب، أشرت إلى عيشة وقلت إنني معها. لكنني بمجرد أن دخلت ذابت عيشة بين النساء. كن جميعهن بالمئزر يجلسن في صالة استقبال واسعة على بسطات من الخشب، وفي المنتصف حوض مياه من الرخام الناعم. يضحكن ويتحدثن بصوت عالٍ، وتنبعث منهن روائح الورد. وقفتُ بينهن فاغرة فاهي من دهشة أجسادهن شبه العارية، فلم أكن رأيت أمي أو أي امرأة بجسد عارٍ. هالتني الأثداء الضخمة البيضاء والأفخاذ التي تلمع مثل الرخام، والضحكات المجلجلة، حتى لمحت أم السعد جارتنا.

كنت الطفلة الوحيدة. شعرت بأن أم السعد هي من ستخبرهم بأن أمي ليست معي، وأنه سيُقبض عليَّ إذا عرفن أنني أتيت إلى هنا وحدي، وحدست أنني لو اختفيت في مكان سأكون في مأمن حتى ينفض الجمع أو تذهب أم السعد. دخلت سردابًا جانبيًّا أفضى إلى عدة غرف، فتحت واحدة، فصرخت امرأة، وكانت على الأرض امرأة أخرى تُعِد عجينة ما. فتحت غرفة أخرى ووجدتها فارغة فأغلقت بابها الخشبي وانتظرت خلفه. مر الوقت، وبدأ الإرهاق والجوع يتسربان إلى جسدي الصغير، فالغرفة لم تكن بها إلا بسطة أسمنتية ونافذة مرتفعة. لم أعِ أنني سجنت نفسي إلا عندما حاولت فتح الباب فلم ينفتح، كنت أظن أنني أنا المتحكمة في كل شيء.

أصبح الضوء المنعكس من النافذة مثل خيوط حرير رقيقة، وبدأت معدتي تصدر أصوات زقزقة الجوع. حاولت فتح الباب ولم يُفتح، دفعته بيدَي، ثم بجسدي. وقفت في آخر الغرفة الصغيرة وجريت باندفاع تجاه الباب، ولم تفلح كل المحاولات. لجأت إلى الحل الأخير؛ صرخت وبكيت. من شدة الزحام وجلبة الأحاديث والضحك لم يسمعني أحد، حتى نمت. رأيت نفسي أمسك خيوط النور، تشدني إلى الخارج وأحشر نفسي في النافذة الضيقة، ثم أسقط على أرض رطبة، جريت بثوبي المتسخ وراء خيوط النور حتى وجدت بيتي، فاختفت الخيوط وأصبحت أمام نافذة غرفتي الموارِبة، دفعتها ودخلت من بين قضبانها ونمت في فراشي بثوبي المتسخ. ثوبي هو من فضح مغامرتي وجعل أمي تعاقبني بالحبس في البيت أسابيع طويلة.

في المرة الثانية كنت في الحادية عشرة، الصقيع يلف كل ركن في مدينتنا، وأنا عائدة من السوق مع أمي نحمل صناديق من الخضر والفاكهة وأشولة من الدقيق والأرز في عربة خشبية متهالكة يجرها حصان عجوز. الأرض زلقة، والحصان يسير ببطء. لاحظت صبيًّا صغيرًا يرتدي جلبابًا نظيفًا من الكتان، ينادي بصوت عالٍ ليعلن عن دعوة عامة بمناسبة يوم عاشوراء، لحضور مجلس شعر يشارك فيه الشاعر بهاء الدين بن الوليد الدمشقي في منتزه النخيل. شعرت بقلبي يرتعش في صدري وبفورة دماء في رأسي. ألم يكن هذا هو الشاعر الذي انتشرت دواوينه في الفسطاط قبل شهور وتردد اسمه كنوبات الفرح؟! رأيت أنني يجب أن أحضر مهما كلفني الأمر، على الرغم من معرفتي بأن هذه المناسبات للرجال والصبيان فقط، يتطارحون فيها الأشعار.

أكد الصبي هذه المعلومة ضاحكًا عندما رآني وأنا أنظر إليه بِكُلي، بينما أمي تقرصني في خاصرتي في هذه اللحظة، وتهمس إليَّ من تحت برقع أخفى نصف وجهها:

- عينك يا قليلة الحيا.

لكنني كنت أعرف في داخلي أنني لست قليلة الحياء، وأنني سأجد طريقة لأكون بين الحضور. لم أكن وقتها أعرف شيئًا عن الشعر أكثر من أنه كلمات متراصة بسجع، يشبه الأغاني لكنه أهم. أول ما خطر في بالي أن أستعين بقمر صديقتي الأقرب لتأتي معي، لكنني تراجعت لأن بيت قمر ما زال في حداد بعد موت الأب.

أخذت أيامًا لأقرر أن أستعير جلباب أخي حُسين وطاقيته وأحضر. سرقت ثيابه من حبل الغسيل عندما وكلت إليَّ أمي أن ألُم وأطبق الغسيل في هذا اليوم. أخفيتها في صندوق ثيابي تحت جلابيبي وفساتيني الملونة. وكنت أنظر إلى طرف جلبابه الرمادي بسعادة كل حين فأشعر بأنه قطعة من الجنة؛ من حريتي.

حتى أتى اليوم الذي انتظرته. وأيقنت الفائدة الوحيدة من أن جسدي ممسوح ولم يستدر مثل أجساد قريناتي. جعل هذا مظهري في الجلباب لا يختلف كثيرًا عن مظهر حسين، وشعري الذي

لففته على رأسي حتى لا يظهر من تطابقه مع طاقية أخي. اطمأننت وأنا أنظر إلى نفسي نظرة أخيرة في انعكاسي على سطل الماء في الحمَّام، ثم وقفت على صندوق الغسيل، وفتحت النافذة وقفزت. رأيت أبي يقترب من عتبة البيت، فتسمرت وراء شجرة الجوافة القريبة. وبعد أن اطمأننت لدخوله فررت من حارة إلى حارة وأنا أنظر خلفي كل حين، حتى وصلت إلى منتزه النخيل. رأيت رجالًا يقفون في حلقات كثيرة، أصواتهم عالية ومناقشاتهم محتدمة. لم يكونوا يتحدثون عن الشعر، بل عن الحاكم والعسكر والسوق والمال، أحاديث طويلة وملضومة ببعضها تمامًا مثل أحاديث النساء التي اعتدت سماعها.

وقفت في طرف بعيد خوفًا من أن ينكشف أمري، ومن مكاني لمحت أصدقاء لأخي، أعرف منهم إبراهيم جارنا، وجَّه نظره تجاهي في اللحظة التي مر فيها بيننا رجال وسادت حركة من الهرج، فلم يتعرف إليَّ. وقف بجواري بعض الصبيان فشعرت بالحرج، لكن من اللحظة التي بدأ فيها بهاء الدين إلقاء الشعر، ذابت كل مخاوفي.

أزعم أنني لم أفهم أغلب الذي قيل في هذا اليوم. فهمت الحكايات التي كان يرويها بهاء الدين، وبعضًا من أشعاره عن الحياة والموت والفضول والحب. لم أفهم كثيرًا من أشعار باقي الشعراء، لكنني فهمت من طريقة إلقائهم ما تقوله أفواههم. تحرك شيء فيَّ، وشعرت بأن لا أرض تحتي، وبأنني أقف على أصابع قدمَي وأنزلق في الساحة بين الطاولات، وبأن روحي متقدة، وأنني خيالية، ومسافرة، وبعيدة. ذقت حلاوة على لساني ومرارة في حلقي، وبكيت بلا دموع، وضحكت من دون أن أبلل نفسي. شعرت بأن السماء ملكي، وأنني ملك لهذا المكان. غالبني شعور بالضياع، لكنني كنت أعرف أنني أنتمي إلى هذا الشيء الذي حركني.

انتظرت تدافُع الرجال تجاه باب المنتزه، ثم خرجت وحدي ناظرة إلى الأرض، سارحة في العالم الذي أغواني. لم أنتبه لخصلة من شعري خرجت من الطاقية، ولم أنتبه لإبراهيم وهو يقف أمامي يتفحصني مع أصدقائه. إلى أن سمعتهم يقولون:

- بنت! كانت معنا بنت!

أفقت ونظرت إلى إبراهيم الذي بدا صامتًا، فشعرت بأنه لن يشي بي، يحاول أن يسكت أصدقاءه لكن من دون فائدة، فقد انتشر الخبر مثل رائحة بخور المساجد، ووصل إلى بيت أهلي قبل أن أصل أنا. سرت وخلفي زفة الصبيان، أركض لأتجنبهم فيلاحقوني، حتى صرخ فيهم إبراهيم وجذب انتباههم، فاستطعت أن أغافلهم وأهرب.

في البيت، نهرني أبي وكادت عيناه تخرجان من وجهه من التبريق الغاضب، ثم حبسني ليلة كاملة في حمَّام النساء بالبيت. أجلس على البساط البارد، وتلفني رائحة الورد المنبعثة من عطر أمي، ورائحة الصابون البلدي. أجرب المسطبة فأجدها أشد بردًا من البساط، أفكر فيما سمعته

ورأيته فأشعر بالدفء. أرى في خيالي عالمًا شبحيًّا أستطيع أن أفهم فيه كيف أعبر عن الأشياء وأصل إلى ذروة الإحساس وأكتب كلامًا أجمل من كلام البهاء.

أما في المرة الثالثة التي حُبِست فيها فكنت أنا من حبست نفسي.

لم يكن استمراري في الدراسة حتى سن الرابعة عشرة سهلًا، أقنعَت أمي أبي بأنني سأحضر الدروس مع بنات خالتي بثمن زهيد، وأن المعلم شيخ كبير ضعيف البصر فلا خوف علينا. يعلمنا الحساب واللغة، ويحكي لنا التاريخ. لم تعجبني أيٌّ من هذه العلوم، لكنني أصررت على التعلم حتى لا أصبح مثل بنات عماتي وتحمِّلني أمي الأعباء المنزلية كاملة. اقتصرت مشاركتي على تنظيف الجرن والحوش والمطبخ كل مساء، وبحجة التعليم أصبح لديَّ وقت للتأمل وفرصة للخروج وحدي.

في هذا اليوم كنت على موعد مع إبراهيم وأخته زينب في منتزه النخيل لقراءة الشعر. دبرت أمر الفرار من الدروس بالاتفاق مع بنات خالتي من دون علم أهلي، ووصلت بعد مسيرة حيَّين، مررت في أثنائها بين الأُصص المزروعة والنوافير الرخامية. كنت سعيدة بكل لحظة لفتني فيها تفاصيل الطريق والطبيعة الخلابة والمقفرة معًا. سعيدة ببِرك الماء القذر، بأشكال وألوان الزهور، بالنحل والفراشات، برسم السحاب وحركته الخفيفة في السماء، بنور الشمس والظل الذي يصنعه، بكل تفصيلة تتشكل في ذهني كمعنى لوجودي، كشبيهة لروحي، كبيت شِعر لم أكتبه بعد.

اخترنا منتزه النخيل حتى نختفي بين الأوتاد الشاهقة، وكنت قد تأخرت عليهما بقصد لأنني أحب الوقت الذي أمضيه وحدي، أمشي في الدروب وأشعر بالانعتاق من كل ما يتحكم في حياتي، ولأنني لسبب غير مفهوم كنت أهاب مقابلة إبراهيم. عندما التقينا تحلقنا فوق العشب الندي وغطتنا شمس الشتاء بلطف. بدأ إبراهيم يلقي الشعر من رقعة مهترئة في يده، أسمعه كالمجذوبة وأتفاعل مع كلماته بالإيماء أو التنهيد، أحيانًا أغمض عينَي، وأحاول أن أرى المعنى في خيالي. يتوقف فألاحظ تململ زينب في مكانها. يأتي دوري فأخرج من جيب ثوبي لفافة مجعَّدة، أقرأ فيها ما كتبته. لم يكن شِعرًا، بل كلمات متراصة لا معنى لها، كتابتها تشعرني بالعظمة، لكن إلقاءها يشعرني بالتفاهة.

في طريق العودة تركتنا زينب بحجة أنها تريد أن تزور صديقة لها، وجدت نفسي أسير بجوار إبراهيم، ضربات قلبي ترتفع وأنفاسي تتلاحق، ظننت وقتها أنني أحبه، على الرغم من أنه لم يخطر في بالي ولا زار أحلامي. أدرك الآن أنه ربما سبب انفعالي هو خوفي من هذا الشبح الذي صورته لي أمي، شبح الأولاد الذين يغوون البنات لأفعال تتسبب في الفضيحة والجرسة، أو أنني كنت خائفة من الحب، ومن لحظة تحوُّل الشِّعر إلى حقيقة. تركزت مشاعري في قلبي فأصبحت أسمع دقاته أعلى من صوت خطواتي. سرنا صامتين مسافة ليست قصيرة، حتى توقفت وكاد قلبي

يتوقف عندما لمحت أبي في الطريق.

٥

لم يَعُد الشيخ يسمع إلا صمتها، وتعجب من نظرة الفزع على وجهها. قال لها:

- أكملي يا ابنتي.

همست بصوت مبحوح:

- الذئب.

كان العواء يملأ الخلاء، كأنه نداء حزين يعبُر العتمة. اعتاد الشيخ صوت الذئب كلما سار هناك، لم ينتبه لأثره إلا عندما رأى وجهها الشاحب، أشفق عليها في هذه اللحظة أكثر من أي لحظة مضت، ترجَّاها أن تهدأ وتطمئن. قال:

- الذئب يعوي لأنه يستشعر الخطر، ينادي عشيرته، يحذرهم، يطلبهم، إنها طريقته ليتواصل مع ذويه. هل تسمعين كم هو حزين وخائف! يا للذئب المسكين!

ابتسمت بشجن وهي تشعر بالحنين إلى عشيرتها تمامًا مثل الذئب، ولأول مرة ينجح الشيخ في إذابة خوفها. لم يحثها على إكمال قصتها على الرغم من فضوله لمعرفة ما حدث. طلب منها أن ترتاح حتى لا يجف حلقها من الحكي، فما زال النهار بعيدًا، لكنها أصرت أن تكمل ما بدأته، وتروي كل شيء، وتحتفظ لروحها بالتفاصيل المحرجة.

٦

لم يكن أبي رجلًا قاسيًا، لكن في موقف كهذا لا تستطيع إلا أن تتوقع الغضب والجنون كرد فعل. عندما التقت أعيننا، انحرفتُ بسرعة لأقرب تقاطع، سلمت ساقَي للريح من دون تفكير، فعلى الرغم من عرجي الطفيف فإن لديَّ قدرة على الركض السريع تبهر كل صديقاتي. ركضت حتى أوقفتني في الطريق عرَّافة تفترش الأرض، سألتني أن تقرأ لي الطالع، فرفضت، وحاولت أن أتحاشاها، لكنها نادتني باسمي، فتوقفت واستدرت ثم اقتربت منها من دون أن أتكلم. قالت لي:

- لا تخافي لا أريد منكِ شيئًا، أنتِ تائهة، وعليكِ أن تتوهي حتى تصلي. في التيه سلوى لكل الآلام، وفي الخلاء خلاص وصفاء للقلب، هناك حيث السماء بعيدة تجدين من يسمع ويرى ويطيِّب الخاطر.

ابتعدت عنها وأوليتها ظهري وأنا أحاول أن أردد كلامها لأحفظه، قلت في نفسي: «هي مجرد

امرأة تهذي». في الطريق وجدت حمَّامًا للنساء، تضاحكت مع حارسة الحمَّام وأنقذتني بعض النكات الرديئة حتى دخلت. الجو رطب ودافئ بالداخل، البخار متصاعد والضحكات كذلك. كان فارغًا قياسًا بالحمَّامات التي أعرفها، به تقريبًا عشرون فتاة يكبرنني بقليل في الساحة الواسعة، منهن من في المغطس ومنهن من تستجم على درجات الرخام حوله. نظرن إليَّ وتهامسن، وسألتني إحداهن:

- من دعتكِ للحضور؟ إننا في حفلة خاصة.

أُسقط في يدَي وتلجمت! في الثانية نفسها نهضت فتاة بعيدة ترتدي إزارًا أزرق، وتعقص شعرها فوق رأسها مثل سنم الجمل، اقتربت وهي تقول:

- أنا من دعوتها.

لم أكن أعرفها. تبادلنا نظرات استفهام، اقتربت مني وهمست:

- لا عليكِ، كلنا بحاجة إلى حفلات، استمتعي بوقتك.

شكرتها وأنا ممتنة لهذا التفاهم الخفي بين البنات، تمتمت جزعة:

- رآني أبي مع ولد في الشارع.

ضحكت ضحكة عالية، ثم قالت بجدية:

- كيف كنتما عندما وجدكما؟

- كنا نسير وبيننا مسافة.

كررت الضحكة، ثم قالت بوداعة:

- كل شيء سيمر، علقة وتفوت.

تركتني وعادت إلى جلستها البعيدة. مضى الوقت بطيئًا، ربما ساعات، أرى وأسمع فتيات لا أنتمي إليهن، يتحدثن عن جمالهن، وأجسادهن، وعن الرجال أولًا، ودائمًا الرجال. ليس منهن من تتحدث عن الكتب، عن الشِّعر، عن القمر، عن صناديق الأحلام والأماني. تحملت سخافة أحاديثهن والغنج، إلى أن انتهت الحفلة وارتدين ثيابهن، ورحلن الواحدة تلو الواحدة. بقيت أنا والفتاة التي أنقذتني، كنت ميتة من الجوع والتعب. قالت:

- تعالي معي.

ثم فكرت وقالت:

- بل آتي معك. لكن قبل هذا أخبريني ما اسمك؟

ووافقت بعد أن أخبرتها باسمي. وصلنا إلى بيتي ودخلت وأنا أقول بصوت مرتفع قليلًا:

- معي ضيفة...

قبل أن أكمل جملتي كانوا جميعًا فوق رأسي، في ضجيج متصل بطبقات صوتية مختلفة كأننا في عشة دجاج، لكن صوت أبي كان الأوضح:

- أين كنتِ؟

ردت منقذتي:

- أنا نفيسة، جارتكم من السقايين، وابنتكم معرفة قديمة من عرس جارتنا فاطمة، قابلتها الظهر مصادفة في الشارع، ودعوتها إلى الحمَّام وأصررت وحلفت عليها وأخذَنا حديث البنات فنسينا أنفسنا، جئتكم اليوم لأول مرة فلا تكسروا خاطري.

كانت جريئة وواثقة، أنا نفسي صدقتها، بل وتعاطفت مع كلامها، وفي جزء من قرارة نفسي تمنيت أن أكون هي. يبدو أن نبرة صوتها أثرت في الجميع فلم تبرح بيتنا إلا بعد أن أكلت من القطائف التي أعدتها أمي. أما أبي ففي نهاية اليوم طلبني في حجرته للحديث معي. جلست قبالته وهو نصف ممدد على الفراش، قال:

- لا أريد أن أوقف الدروس التي تتحججين بها. أعرف أنها لن تفيدك، وأنك في النهاية ستصبحين زوجة وأمًّا، هذه هي رسالتك ورسالتي، وفي هذا الجيل أشعر بأن ثمة هبة من أمل، ربما تكونين أكثر من زوجة وأم، ربما تساعدين أبناءك بهذا العلم، أو نساء أخريات. لكن بربك ما فائدة الشِّعر؟ الشعراء لن يكونوا أبدًا ذوي أهمية، وهذه اللقاءات السرية التي تعقدينها فيها إهانة لي ولإخوتك ولأمك. هل ترضين لنا بالفضيحة؟

لم يمد أبي يده علينا قَطُّ. لم يتحدث معنا بغلظة، أقسى عقاب منه هو الحبس، حتى لا يرانا ويضعف ويتساهل. قدَّرت أنه لم يصب غضبه عليَّ فوافقته، اعتذرت إليه ووعدته بأنني لن أكررها. ضمني وبكيت في حضنه، لم أكن أبكي من الندم كما ظن، بكيت لأنني لن أكون شاعرة. بعدها كررت جلساتي، بل ودعوت إليها عدة صديقات أخريات. في كل مرة كنت أقول لنفسي: «علقة وتفوت».

٧

قاومَت النوم حتى غلبها وهي جالسة على الأرض تضم فخذيها إلى صدرها، فمالت برأسها إلى كتفها، وأسلمت روحها له تسليمًا مؤقتًا. ثم فتحت عينيها مع صوت الشيخ وهو ينادي:

- يا أهل الله! يا من هنا!

ثمة خطوات تقترب، الشمس في كبد السماء والنور يكاد يعميها عن رؤية ماهية القادم. لم يتوقف الشيخ عن النداء، ثم رأت بوضوح على حافة الحفرة شابًّا يظهر عليه الفقر، لكنه لا يخفي جاذبيته ونظرته الثاقبة مثل صقر. قال بصوت عالٍ:

- من أنتما؟ وماذا تفعلان هنا؟

صرخ الشيخ برجاء:

- سقطت الفتاة وسقطت بعدها. العتمة كانت شديدة، والحفرة في منتصف الطريق.

هتف الشاب:

- انتظرا، سأعود.

غاب وقتًا قليلًا مر بينهما بثقل وبطء، ثم عاد وألقى إليهما حبلًا من الخيش، أمسكته الفتاة وصعدت حتى أدركت الأرض، ويداها داميتان ووجهها متدثر بالتراب. خرج بعدها الشيخ على نفس حالها. كانت تشعر بأنها ليست في وعيها كاملًا، وسمعت بصعوبة حديثًا بين الشيخ والشاب، ثم سار ثلاثتهم مسافة قليلة، ولاحظت أنها عادت تعرج وقدمها تسبق الأخرى. كان الشيخ يحاول أن يشكر الشاب ليعلمه أن مهمته انتهت فيتركهما لكنه أصر على السير معهما، حتى وصلوا إلى نهاية الخلاء وبداية الحضر عند ساحة بيت صغير من الطوب اللبن مغطى بطبقة من الجص اللامع، له باب واحد من الخشب، وله سقف من القرميد المائل. ذهلت الفتاة من نظافة البيت، وكانت لأول مرة ترى بيتًا بسيطًا في هذه المدينة، كان بيت الشيخ.

غسلت يديها من الجروح ووجهها من التراب المختلط بالعرق، ثم انضمت إليهما، وشرب ثلاثتهم عصيرًا من حامض الأترج الذي أعده الشيخ بمساعدة الشاب الغريب. كانت تعرف ما ينتظرها. عليها الآن، ليس فقط أن تشرح سبب سقوطها بالحفرة، لكن أن توضح إلى أين تعزم الذهاب. هذه المرة سألها الغريب، وكان ينظر في عينيها، بل كان ينظر في روحها:

- كيف أستطيع مساعدتك؟

كادت تجيب من أثر التعب والخوف: «بأن تصمت»، لكنها عوضًا عن ذلك قالت:

- لست بحاجة إلى أي مساعدة، سأترككما بعد الشراب شاكرة وأعود إلى دياري.

قال وهو ينظر إلى قدمها:

- لكن يبدو أنكِ مصابة ويجب أن ترتاحي.

ردت:

- لست مصابة، أنا عرجاء.

صمت لثوانٍ ثم سألها:

- وما ديارك؟

ردت عليه من دون أن تنظر إليه:

- دياري هي قرطبة.

قال مستنكرًا:

- قرطبة على الجانب الآخر من الخلاء!

ردت:

- أنا لا أعرف الطرق.

سأل بقليل من الانفعال:

- كيف سرتِ وحدك إذن؟ وفي الليل؟

صمتت تفكر في كذبة مناسبة، لكن الشيخ قاطع أفكارها وقال:

- يا ابنتي، نحن لن نؤذيكِ ولن نتركك.

أومأت:

- أعرف.

- هذا رجل شهم ترك أعماله وأنقذنا، وأنا في مقام عمك، لا تخافي.

نظرت إليهما بطرف عينها، فكرت في أن استغلال وجودهما ربما يكون أفضل من أن تسعى وحدها، وأن مصيرهم تقاطع لسبب، وأن عليها أن تسلم بالمكتوب، وفكرت في أن الشيخ رجل طيب لم يؤذِها بكلمة في الحفرة، والغريب به شيء يجذبها لا تستطيع تحديده. تذكرت شيئًا وقالت مشيرة إليه:

- أنا حتى لا أعرف اسمه.

قال باعتزاز كأنه يلفظ اسم بطل شعبي معروف:

- أبو بكر.

ثم سألها:

- وما اسمك؟

قالت:

- اعتماد.

سأله الشيخ:

- وماذا تعمل يا بني؟

قال أبو بكر بأداء واثق:

- أنا شاعر.

انتفض قلبها وجاهدت حتى لا يظهر أثر ارتعاشة على شفتيها. عاد الشيخ لرجائه:

- ساعدينا يا ابنتي حتى نساعدك. قصّي علينا قصتك.

رتبت خصلات شعرها الكستنائي تحت طرحتها الشفافة، نظرت إلى الفراغ وقالت بأسى:

- منذ ثلاثة أشهر فقدت أسرتي.

٨

كانت غرفتي سماوية بزهر أبيض منمنم على الجدران، لوَّن جدرانها أخي وأنا. جالسة فيها أقرأ كتابًا عن الفلك أخذته من إبراهيم. يومها نظرت من نافذتي الصغيرة، ووجدت العتمة ثقيلة والسماء لوحًا أزرق باردًا. لا قمر ولا نجوم. لم تَعُد هناك جلبة في الشارع، لم يَعُد هناك باعة ولا مشترون، توقف الناس عن التسكع والأطفال عن اللعب، يخبئون الفقر في بيوتهم، ويحاولون إخفاء الجوع كأنه مرض مُخزٍ، لكن إلى متى؟ الفقر يمكن مهادنته، لكن الجوع جسد ثائر بلا إرادة، رخو وضعيف وشرس. الصمت في الداخل كذلك ثقيل وبارد. شيء قابض يتسلل ببطء لكل جنبات البيت. لا أعرفه لكني أشعر به كوخزة في قلبي. نادتنا أمي بندائها المعروف لتناول العشاء، لكنه لسبب ما أتى مكسورًا ومنهكًا.

وصلنا إلى فرشة الطعام بتفاوت. أنا أولًا، ثم أخي تلته أختي. أبي وأمي يجلسان في مكانيهما في المنتصف، أعينهما على الطعام، ورائحة البيض المقلي تملأ المكان. أنظر إلى القشرة الشفافة حول البيض وأنا أتذكر منذ أيام عندما كان العشاء باذنجانًا مقليًّا، فرق كبير بين بهجة الباذنجان برائحة التقلية، صوت طشطشته وطقطقة الزيت بينما ننتظر، لمعان سواده في الطبق محاطًا بالغموض اللاذع اللذيذ وغرابته المثيرة وشوقنا لالتهامه. والبيض ببروده على الرغم من الأبخرة فوقه، بصمته المطبق، بإجابته الصريحة، بعدم اكتراثه، بعينيه اللتين تنظران إلينا بلامبالاة.

أكلنا البيض، على الرغم من قرصة الجوع، في صمت ورجاء. كلٌّ منا بداخله سؤال يخاف أن يطرحه حتى لا نعرف حقيقة أنه عشاؤنا الأخير في هذا البيت. مد أبي يده إليَّ بالجرجير فشعرت بدفقة من الأمان، تناولته بسرعة فنزل في جوفي كشربة ماء في فم عطشان. نهضت أمي فجأة، وأتت بالجبن القديم، فلمحت دمعتين في عينيها، ثم وضعت الجبن أمامنا، فاندفعنا إليه لينقذنا من البيض، لكنه كان مُرًّا، وطعم لبنٍ حامض أفسد الشعور البسيط بالطمأنة التي حاولت أمي أن تبثها فينا.

بعد العشاء، قدمت لهم فرِحةً شراب العرقسوس، في محاولة للخروج من غيمة الحزن التي تلفنا. نظر إلينا أبي أخيرًا، ونطق بصوته الهادئ الكلمات التي لم أنسَها قَطُّ:

- علينا أن نرحل من مصر قبل طلوع النهار.

لم يكن هناك وقت للبكاء، ولم يُسمح لنا بوداع الأصدقاء والأهل والأماكن. حزمنا متاعنا القليل؛ بعض الثياب والطعام والأشياء العزيزة، ذلك لأن الأشياء الغالية لم تَعُد موجودة. أخذت أمي

مصحفها، وأبي أخذ بعض السرر والصحف، وأخذت أختي دمية قماشية قديمة، وأخذت أنا كتابًا بغلاف قاسٍ أخفي فيه أوراق أشعاري، أما أخي فلم يأخذ شيئًا سوى دهشته ومزاجه السيئ. كنا قد بعنا أكثر أثاث البيت، ولم أكن أعرف وقتها أننا قد بعنا البيت نفسه إلا عندما أخبروني في الميناء. رحلنا عبر صحراء فارغة إلا من نجوم متناثرة، لم أحاول رؤيتها لأنني كنت فاقدة القدرة على الحركة، كنت فقط أتبعها بلا إحساس أو روح أو أمل. مضينا في رحلة برية قاسية تجرُّنا الخيل. استفرغت مرتين في الطريق ومنحوني دواءً كان معهم، حتى وصلنا إلى الشاطئ، وعلى الرغم من شوقي إلى هذه اللحظة التي سأرى فيها البحر لأول مرة في حياتي، فإنني جفلت ولم أرَ منه إلا سواده، ثم لم أعد أرى أي شيء بسبب البرد الذي أكل حواسي.

لا أذكر عن السفينة التي أقلتنا من مصر إلى البر الثاني إلا دثارًا ثقيلًا خشنًا له رائحة الشحم غطتني به أمي. نمت طوال الرحلة على دفء كتفها المشدودة، لم يطُل الدثار قدمَي فشعرت بهما كقطعتَي ثلج يمر الصقيع من بينهما ويخترقني. كل ما حدث في السفينة كان ممزوجًا بأحلامي، فلم أفرق فيه بين الحقيقة والخيال. أهازيج قديمة، أصوات ركضنا في الحارة، طعام قليل مالح، عطانة تتسرب في روحي ببطء، جرة عسل وقفت غريبة بين أدلاء الماء، صوتا أبي وأمي وهما يتهامسان همسًا كالبكاء. خيوط النور مرة أخرى، تحاول أن توقظني في العتمة. لكنني أرفض الصحو، أرتكز على كتف أمي كمرسى مؤقت، وأنا أدعو اللـه ألا أصحو إلا عندما تعانق السفينة الأرض.

كنت أسبح في هوة سحيقة من الهذيان، خيوط النور تحاول أن تخبرني بشيء من دون جدوى. هل كانت حمى، أم كانت لحظة الوصول! أفقت على يدين غليظتين تحملانني، أرتكز على جسد صلب، لم يكن لأمي.

٩

كانت الشمس قد بدأت تتوارى في خدرها بعد وقفة نهارية قصيرة، والغيوم قد بدأت تتجمع في ساحة السماء كلقاء أصدقاء قدامى، وقطرات المطر قد بدأت في الهطول البطيء، كأنها قبلات صغيرة على وجه الأرض. وكانت الشوارع خالية من السابلة إلا بعض التجار المنحدرين إلى بيوتهم، واعتماد ترتجف من البرد تحت دثار صوفي أهداه إليها الشيخ الذي جلس بعيدًا ينتظر تتمة الحكاية. لكن اعتماد فاجأته هو وأبا بكر بأنها تريد أن تخرج وتقف تحت المطر.

وقفت أمامهما تعبر عن رغبتها في الخروج بطفولة وإصرار، فما كان من الشيخ إلا أن فتح لها الباب، ووقف مع أبي بكر يشاهدانها وهي تعدو بفستانها الخفيف. نزلت إلى الساحة المغسولة

ووقفت في المنتصف كزهرة بنفسج نبتت بين بلاطات رمادية. كانت تضحك لهما ولنفسها وهي تطارد شبحًا ما تحت المطر، تركض بعفوية وتحرك يديها لتقبض على الماء، تتمايل برأسها فيطير رذاذ الماء من شعرها الكستنائي الطويل. ظهرت معالم جسدها الفواح والفستان يلتصق بها من جراء البلل، فما كان من الشيخ إلا أن سحب أبا بكر من يده وعادا إلى البيت، لم ينتبه أن أبا بكر قد أغرم بجمالها في هذه اللحظة.

لم يكن الشيخ مطمئنًّا تمامًا إلى صنيعة أبي بكر، فهو يعلم بخبرة السنين أن الأشياء ليست دائمًا كما تبدو، وأن رجال الأندلس لهم طبيعتهم الخاصة، ويسيرون وفقًا للانتماءات والأعراق والمصالح. يستطيع أن يبدي امتنانه، لكن أن يعطي الأمان لأمر فهذا يحتاج إلى عمر. تجاذب معه الحديث محاوِلًا استشفاف هويته، وجده كثير الحديث عن نفسه، شديد الفخر بكونه شاعرًا، يتحدث عن الأمراء والملوك كأنه صديقهم. على الرغم من هيئته الرثة التي تُظهره كمتسول، فإن عينيه كانتا تبرزان صدق نبرته، لكن ثمة شيئًا أقلق ابن الحسن منه، يبدو أن له آمالًا عريضة، أعرض من الحياة التي يعيشها.

خفت المطر حتى توقف ولم تَعُد اعتماد إلى البيت، خرجا ليطمئنا عليها فوجداها متسخة بالكامل، تقف بشموخ وتمسك الطين في يديها، كأنها تمثال نابض، كلُّ ما فيه صافٍ، لشابة صغيرة تضج بالصخب والطين والحياة. ناداها أبو بكر وأصر عليها أن تعود إلى الداخل، قال:

- ارجعي يا صبية، فما حسبتك صغيرة العقل.

وتبعه الشيخ قائلًا:

- ارجعي يا ابنتي حتى لا تمرضي.

سارت اعتماد ببطء تجاه البيت. الطين الزلق ملتصق بقدميها الصغيرتين ويقطر من يديها، ثم إنها فعلت شيئًا لم يتوقعه الرجلان قَطُّ؛ ألقت قبضة من الطين على ثوب أبي بكر. لم تعرف لماذا فعلت ذلك، وبقي الموقف في ذاكرتها كشيء غامض لا ينتمي إلى شخصيتها الحقيقية. ندمت عليه فيما بعد، لكنها في لحظتها لم تتمالك نفسها من الضحك وهي تدخل البيت بسرعة وتحبس نفسها في الحمَّام الضيق في آخر الردهة. مرة أخرى الحمَّام!

لم يتحرك الغضب بداخل أبي بكر، إنما تحرك الإعجاب وربما بدا له أن هذه الفتاة المجنونة سيكون لها دور في حياته. في المساء طلب من ابن الحسن المبيت، أخبره بأن بيته في شِلب، وأنه كان على سفر إلى قرطبة، وعليه أن يستكمل رحلته في الصباح. قضوا أول الليل في ساحة البيت، وأسمعهما أبو بكر أشعاره التي يباهي بها وطنه شِلب، وأشعارًا أخرى عن جمال الأندلس وسحر ليلها. استقبلت اعتماد الأشعار كاستقبال امرأة لهمس الحُب بالقلب المرتجف والعينين الدامعتين والحضور الكلي مع غياب العقل. أما ابن الحسن فما زال يخامر قلبه عدم الارتياح. كانت تسأل

وتناقش وتحفظ ما يقوله أبو بكر، وفي عقلها تدوّن المفردات والتعبيرات الجديدة. فكرت في أن تطلب ريشة ودواة، لكنها تراجعت لتبقي أمر الشِّعر سرًّا حتى يحين وقته.

نهض أبو بكر بجذعه الطويل، وجلب بعض التمر من مطبخ ابن الحسن، ومد كفه السمراء العريضة إلى اعتماد فشمت رائحة عرق ممزوجة بطزاجة التمر، أكلت من تمره وهي تفكر في الملوحة والحلاوة، وتعد في رأسها جملًا تصلح للشعر. لساعات انفصلت عن ماضيها البعيد والقريب، وشعرت بأنها تتنفس لأول مرة منذ ثلاثة أشهر. تذكرت آخر مرة لعبت في الطين عندما كانت فتاة لا تفكر في شيء إلا اللعب، ساعتها تبادلت هي وقمر إلقاءه على بعضهما. ثم ضحكت مع الصبايا حتى آلمها بطنها، وعادت إلى البيت وهي كتلة من السعادة. لأول مرة ترى المطر منذ سنوات، ولأول مرة تسمع الشعر وتناقشه من دون خوف. حاولت أن تتركهما لتنام في الفرشة التي أعدها لها ابن الحسن في المطبخ، تفكر من دون تشويش وتريح جسدًا أرهقه السير الطويل، لكن لم تنتهِ الليلة إلا بعد أن أصرا عليها أن تكمل قصتها.

١٠

سمعت كثيرًا عن الوحوش والأشرار. صاحب العينين الزجاجيتين الذي يظهر عند أقدام الأطفال النائمين ليسحبهم إلى العالم السفلي. «أبو رجل مسلوخة» الذي يأتي إلى البيت عندما يكون الأطفال وحدهم ويرعبهم بساقه الوحيدة منزوعة الجلد. «أمنا الغولة» التي تأكل الأطفال كموقف غاضب تجاه العالم، لأنها لم تنجب ولم تَعُد ست الحسن والجمال. الوحوش غريبة التكوين، ضخمة الجثة، صاحبة الملامح المشوهة. لكني لم أخَف منها قَطُّ مثلما خفت هذا الرجل الوسيم ذا اللحية المحددة، والعينين الخضراوين مثل حقول البرسيم، عندما شدني من تحت ذراعي بقوة وحملني بين ساعديه، لم يكن في بالي إلا فكرة واحدة، الأشرار أيضًا وُسَماء.

ولما حاولت الصراخ مثل كل الأحلام احتبس صوتي في حلقي، لكن هذه المرة لأن خاطفي وضع كفه الكبيرة على فمي حتى إنني فقدت الوعي، وما عدت أميز الحقيقة من الأحلام. رأيت أمي وهي تحاول أن تمد يدها لتمسكني ولا تصل إليَّ، قريبة مني لكن يدها قصيرة وربما كنت أمامها لكني شفافة مثل كل الأشباح.

أفقت لأجدني في بيت غريب على فراش غريب، بجواري فتاة نائمة، وحولي عدة فتيات من أعمار متباينة. الفراش قاسٍ، والمكان قابض لا لون له ولا هواء فيه. الفتيات هائمات، صامتات. ألقمتني إحداهن شربة ماء، وقبل أن أسأل أين أنا، قالت دفعة واحدة في جمل قصيرة بلهجة ثقيلة

تشبه العربية:

- لا تخافي. نحن معًا. خطفكِ قُطَّاع الطرق الأندلسيون مثلما خطفوني في هذه الليلة الغابرة.

نهضت وأنا أقول بفزع:

- ماذا نفعل هنا؟ يجب أن أعود إلى أهلي.

تحركت بسرعة وهياج تجاه باب البيت لكنه كان مغلقًا، كذلك النوافذ القليلة، لا يوجد منفذ، لا توجد طريقة للحياة وقتها سوى الانتظار البطيء لما لا يحدث أبدًا. بدأت من هذا اليوم أشعر بالقيء، وراحت دمائي تجف كل يوم وأنا أنتظر معجزة، حتى بعد أن كفرت بكل الحكايات القديمة.

* * *

سألتها:

- ماذا تريدين يا قمر؟

ردت:

- أريد أن أهرب.

لم أنسَ قَطُّ الليلة التي تعرفت فيها إلى قمر. ما زلت أذكر اللون الأصفر الباهت القادم من قناديل الشارع، ورائحة التراب الذي أثارته حوافر الحصان وعجلات العربة الخشبية التي حملت أثاث بيت أهل إبراهيم القادم للسكن في شارعنا بعد بيتي ببيتين. وقفت قمر تراقب عائلة إبراهيم وهم مشغولون بإنزال الأثاث القليل من العربة وحمله داخل البيت. ووقفت أنا أراقبهم أيضًا من أمام بيتي وأراقب قمر معهم. أعرف اسمها، وأنها في نفس عمري، على الرغم من طولها الذي يناسب فتاة أكبر، كما أعرف أنها ابنة بائع البالوظة الذي يشتري منه أبي لنا في المناسبات ويخبرنا مرارًا بأن عائلتها ميسورة الحال، فأتخيل أن لديها الكثير من الجوز واللوز والفاكهة. أراها كل يوم وهي تسير في الشارع مع أمها أو أختها وأخيها. نتبادل النظرات والابتسامات، وأحيانًا الضحكات، لكن نادرًا ما أراها وحدها، وهذا ما جعلني أتردد في التعرف إليها.

لكن في هذه الليلة عبرت قمر الطريق وحدها، ويُعَد هذا مجازفة لبنت في السادسة من عمرها في هذا الوقت، وفي هذا المكان. اقتربت مني وسألتني عن دميتي التي دائمًا أمسك بها، دمية من الصوف لونها سماوي، صنعتها لي جدتي لأمي، وكانت تعيش في حي بعيد فلا نراها إلا في الأعياد. أخبرت قمر بأن الدمية مبتلة من أمطار الأمس، وأنني تركتها حتى تجف. لكن لم يكن هذا السؤال الوحيد، فاجأتني قمر بوابل من الأسئلة، عرفت من خلالها كل شيء عني وعن أبوَي وأخوَي، من دون أن أعرف عنها أي شيء. كان أهل إبراهيم قد انتهوا من نقل أثاثهم إلى البيت، فتوقفت قمر عن الأسئلة ونظرت اتجاهه وهو يمسح الشارع بعينيه قبل أن يدخل البيت وتغلقه يد

كبيرة. قالت من دون أن تنظر إليَّ:

- سنصبح أصدقاء.

لم أفهم حينها هل كانت تقصدني أم تقصد إبراهيم! لكننا أصبحنا صديقتين بالفعل في اليوم الذي مرضت فيه أمي وأختي، وكان أبي مسافرًا ومعه أخي. اضطررت إلى الخروج وحدي لجلب الماء، رأت قمر الخوف وهو يخيم على وجهي وجسدي ونظرتي، فصاحبتني إلى السقاء وحملت معي الدلو. كنت سعيدة وخائفة في هذه اللحظة، سعيدة لأنني أصبحت لي صديقة جديدة، جريئة وتستطيع أن تعبر الشارع وحدها مثل قمر، وخائفة من أمي التي تنهرني دائمًا عند التفوُّه بأي شيء عن حياتنا للغرباء، وكل الناس عندها غرباء. تقول لي:

- تتركين الناس يسألونك وتجاوبينهم من دون أن تسألِيهم، فيعرفون عنكِ كل شيء ولا تعرفين عنهم شيئًا!

سألتني قمر قبل أن تغادر وقد تعلقت عيناي بها:

- ماذا تريدين يا اعتماد؟

قلت لها:

- أريد أن نلعب.

ابتسمت وهي تلف وجهها لتسير تجاه بيتها. تذكرت نصيحة أمي فسألتها بدوري:

- ماذا تريدين يا قمر؟

ردت عليَّ وهي تطير إلى بيتها مثل فراشة:

- أريد أن أهرب.

* * *

في مساء اليوم الثالث من الحبس، كنت أجلس على طرف فراش أرضي قذر، أقاوم ألم رأسي بعصبه بمنديل أعطتني إياه إحدى المحبوسات، وهي الطريقة التي رأيت أمي تفعلها مرارًا عندما يشتد عليها ألم الرأس. كل يوم تدخل علينا عدة فتيات جديدات، فيتجدد الألم مع صرخاتهن ونحيبهن الذي لا يتوقف. الغريب أن الأمل أيضًا كان يتجدد، فكيف لكل هذا العدد من الفتيات البقاء معًا! بالتأكيد هناك خطة لنا. في هذا اليوم دخلت علينا فتاة في نفس عمري، تفوقني طولًا، وترتدي فستانًا أصفر فاقعًا يُظهر التفاف جسدها، دخلت بهدوء وهي تزيح خصلة شعر مجعَّدة من على وجهها وترمينا جميعًا بنظرة حادة، كأننا مسؤولات عما يحدث لنا، لم تكن إلا قمر.

عندما رأتني اقتربت مني كأنها لا ترى غيري. شعرت بأنني لم أرَها فحسب، لكنني رأيت الأمل بالخروج يقترب معها. وددت أن أضمها إلى صدري كأني أضم بيتي ومدينتي وأهلي، لكنها منعتني بنظرة، كعادتها القديمة. قبل عدة سنوات كانت قد قتلت ثعبانًا لأجلي، رأته يزحف تجاهي

فلم تصدر صوتًا ولم تجاوبني عن استفساري عن سبب وجومها والتقاطها حجرًا، ثم ما لبثت أن هجمت عليه وهو يقترب من ساقَي، وهشمت رأسه بالحجر. بعدها حاولت أن أعانقها لكنها أشاحت بجسدها عني، حتى كلمات الامتنان والحب قابلتها بفتور.

أصبحت أشعر بأنني مدينة لها، وعدم قبولها لامتناني كان كغصَّة في قلبي. بعدها بمدة قصيرة رددت لها الدَّين عندما كنا في غرفتها نلعب بالنرد الذي سرقته خُلسة من أبيها، تفرك الفصين وهي تغمض عينيها لا أعرف أمِن ألم أم من لذة! دخلت أمها فألقت الفصين بيننا، وقبل أن تسأل الأم رددت أنا بأنها فكرتي وأنني أردت أن أجرب اللعب بالنرد. كان ممنوعًا علينا حينذاك لما يسببه من منازعات بين الأطراف. عندما قابلت قمر بعد أن خرجت من فترة العقاب وعلى وجهي أثر صفعة أمي، لم تبدِ أي مشاعر، بل إنها سألتني: «لماذا فعلتِ هذا؟».

في المحبس اكتفت بالجلوس بجواري، ثم أمطرتني بوابل من الأسئلة. في العام الأخير لم تسمح لنا الظروف بالمقابلات، كانت الكلمة الأولى في حياتنا للفقر والاحتياج. غطت الأزمة أعيننا عن كل المباهج، ولم تترك لنا إلا التفكير في قوت يومنا. لا نعرف عن الوقت إلا الحاضر والغد، أما الكبار فكانوا يرون ما أبعد من ذلك. وكانت هي وأسرتها في معزل عن الناس بعد إعدام أبيها، فلم أعد أراها إلا نادرًا. سألتني عن سبب وجودي هنا، عن أبي وأمي وأخوَي، عن أيامي في المحبس، عما حدث وما أتوقع حدوثه، ووجدت نفسي لا أملك غير الإجابة عليها من دون أن أعرف شيئًا عنها، فعدنا كأننا في السادسة من عمرنا.

عرفت من أسئلة الفتيات لها أنها هربت من مصر من دون أهلها، دخلت السفينة في جرة كبيرة على اعتبار أنها عسل، ضحكت الفتيات على حكايتها. بعد ثلاثة أيام انتزعت منا قمر الضحك، مثل أيامها القديمة، لا يخلو مجلس هي فيه من الضحك والدهشة والإعجاب، تألقت بفستانها الأصفر على الرغم من الحبس، وحكت عن مغامراتها والطريقة الحميمية التي أُخذت بها بين ذراعَي الخاطف الذي أسمته «الجندي». جلسنا جميعًا أمامها مبهورات، عزمت عليها كل فتاة بشيء من طعامها، وحاولت أخرى استمالتها للنوم إلى جوارها، وأخرى الضغط عليها للحكي لها ومصاحبتها، تمامًا مثل الأيام القديمة، قمر في المنتصف وحولها النجوم، وأنا كوكب بعيد مهجور، لطالما أرَّق هذا الشعور قلبي وأثَّبت نفسي عليه، لأنني أحبها ولا يضيرني أن أكون أنا الكوكب وهي القمر ما دمنا في الفضاء نفسه.

مرَّ الليل بطيئًا، شعرت بها تتسحب من بين الفتيات النائمات وتنقل فراشها إلى جواري. همسنا ببعض نكاتنا القديمة نسخر من وضعنا، ثم قالت من دون تمهيد:

- أريد أن أهرب، تعالي معي.

لم أعتَد الهروب ولم يشغلني مثلما شغل قمر دائمًا، لكن في هذه الليلة كان شعوري مختلفًا،

وافقت على العرض بشرط أن نضع خطة وننتظر حتى نتأكد من نجاحها. هكذا كانت تسير الأفكار في رأسي، نقاط ومسارات وخرائط. لكن القدر لم يسعفنا لهذه المغامرة، إذ إننا في اليوم التالي رحلنا من المحبس، كل فتاة في اتجاه، لا قمر ولا نجوم ولا كواكب، أصبحنا جميعًا أقرب وأرخص من حجر الشوارع.

١١

في السماء غيمة وحيدة مثقلة بماء حزين، تقترب منها غيمة أخرى ماؤها لا يقل حزنًا. نزل ماء الحزن حثيثًا، واعتماد تحكي قصتها إلى أن نامت بينهما في غير فرشتها بمجرد أن أسندت رأسها إلى الجدار، بينما تنتظر انتهاء أذان الفجر القادم بصوت منغم من مكان قريب. تركها الرجلان وناما بالداخل، لكن ابن الحسن لم ينَم فورًا، توضأ وصلى الفجر، ثم ظل يحرسها بنصف عين ونصف روح إلى أن سمع دبيب خطواتها مع سقسقة طيور الصباح وانبلاج الغيوم، حينها فقط استسلم للنوم، فهو يعرف أنها في اليقظة تستطيع حماية نفسها.

طين الأمس أصبح ترابًا جافًّا من فعلة الشمس التي غلبت الغيوم. خرجت اعتماد لتتمشَّى حول المنزل وتستكشف المكان، رأت طبيعة مختلفة عما اعتادت رؤيتها في الأندلس منذ أن وصلت إليها منذ عدة أشهر. تذكرت أول مرة ترى فيها الأندلس وهي مع الجندي ويداها مقيدتان أمامها وعصابة على عينيها. بعد القليل من المسير فك الجندي العصابة، وأبصرت ما لا عين رأت ولا خطر على قلب بشر، أرضًا خضراء على امتداد البصر، ليس الأخضر الداكن الذي تعرفه في الأراضي الزراعية الممتدة على النيل، لكنه أخضر يبرق كأنه مكسو بالفضة. لأول مرة تبصر بحورًا من المروج المزهرة بالألوان، وتلالًا تكسوها خضرة غابات كثيفة. اتسعت عيناها لتتأكد أنها لا تحلم، وأن هذه المروج حقيقية، والنهر الذي يجري بينها نهر من ماء وليس من فضة. الأكثر غرابة أن حزنها وقلقها تبددا في ثوانٍ، ولم تعد تذكر أهلها لعدة دقائق، إلى أن صعدت فوق عربة خشبية بها بعض الفتيات ممن كُنَّ معها في الحبس. فركت يديها في بعضهما وهي تنقل بصرها بينهن قلقًا، لكنها عادت لمشاهدة الجنة التي ظنت من قبل أنها موجودة فقط في الحكايات.

أما عند بيت ابن الحسن فغلب اللون البني على الطبيعة، أرض بنية، وبيوت بنية، وأشجار بنية ليس لها أوراق. ومع ذلك وجدت نفسها منجذبة لتأمُّل كل ما حولها. هامت في صورة الطيور التي تسكن الأغصان الجافة، ورأت نفسها كأنها غصن شجرة يحتاج إلى مخلوقات صغيرة تعيد إليه الحياة. بدأت الصور الشعرية تداعبها قبل أن يقطع عليها أبو بكر تأملاتها الصباحية، ويلقي عليها

بيتًا من أشعاره. اعتماد صغيرة وتحب الشعر، وتجهل أن بعض الرجال يستخدمون الشعر والكلام، لا يَنظِمونه حبًّا للشعر ذاته. لذلك عندما سمعت شعره، هامت فيه كجزء من الطبيعة حولها، والغريب أن عينيه كانتا بنيتين تمامًا مثل ذقنه وشعره وثيابه. أصبحت تعشق اللون البني.

- هناك حمَّام قريب للنساء، يمكن أن أصطحبك إليه إن أحببتِ.

اعتماد تريد الاغتسال أكثر من أي شيء آخر، لكنها شعرت بالحرج لأنها بدت في عينيه أنها في حاجة إليه. تماسكت ولم تظهر حرجها أمامه ثم أعلنت موافقتها. في الطريق إلى الحمَّام حكى لها عن نفسه، عن بلدته شِلب، وترحاله المستمر، والمدن والبلاد التي رحل إليها، والقصور والساحات والدواوين التي دخلها، والسيوف التي هددت عنقه إن أخفق في إلقاء الشعر أو أثار ضيق الملوك والأمراء، والولائم التي أُعدت على شرفه، والهدايا التي قُدمت له كثيرًا وكان يرفضها.

- أنا لست من شعراء البلاط، ولا أكتب الشعر من أجل المال!

الحرية مبتغاي، والترحال وسيلتي!

الشعر هو الشيطان الذي يكتبني، ولست أنا من أكتبه!

أنا صعلوك وإن توجوني ملكًا!

أن أعيش مع الغجر أفضل من أن أبقى بين القصور!

ظلت مشدوهة وهي تسمع كلماته طوال الطريق، تنظر إليه كأنها ترى بطلًا أسطوريًّا، تسير بجواره بطوله الفارع فتشعر بأنها نبتة من طينه، يلقي عليها الكلام فيزهر في قلبها. صغيرة اعتماد، ولأول مرة تسير مع رجل ويحدثها ببلاغة وثقة العارف، هي التي ظنت طوال عمرها أن الرجال، مثل أبيها وأخيها، لا يتحدثون إلى النساء في أثناء السير معًا. لأول مرة تحب المشي مع إنسان غير نفسها، ولأول مرة تدرك حقيقة كونها تنتمي إلى هذه الروح الغجرية، وكون الشعر مكانًا رحبًا ومغويًا أكثر مما كانت تعرفه.

كان أبو بكر يشير إلى أماكن بعينها في الشوارع له معها حكايات، ولفت نظرها إلى أن أغلب أهل هذه القرية توائم، لذلك كانت تشعر بأنها تقابل الناس أنفسهم عدة مرات. في السوق، جلست امرأة تبيع البيض ومعها توأمتان شقراوان، تبتسم الثلاث ابتسامة واحدة ساحرة. يلاعب أبو بكر التوأمتين والمرأة تحدثه بعربية لها لكنة أعجمية، سألتْها عن فستانها البنفسجي وعرضت عليها أن تأخذ بيضًا بلا مقابل. تخيلت اعتماد حياة هذه المرأة مع الدجاجات في بيت بسيط بين هذه الطبيعة الصارخة. تمنت لثوانٍ أن تجرب هذه الحياة، وأن تَعول نفسها وتتحكم في مصيرها ولو لمرة واحدة على سبيل التجربة قبل أن تجد أهلها.

في الحمَّام، وُلدت اعتماد من جديد، أو هكذا خُيل إليها، لكن الأكيد أن شيئًا فيها تغير، خلعت عن نفسها قيودًا من صُنعها هي، كانت قد وضعتها احترامًا للأب والأهل والأعراف، سمحت لروحها أن تتحرر قليلًا. فكرت لأول مرة في جسدها، في مشاعر لم تجربها من قبل، الحب والرغبة،

شعرت بحرقة خفيفة في بطنها وبرغبة عارمة في الكتابة. غمرت المياه جسدها وروحها معًا، وذهبت بخيالها إلى ملكوت بعيد، كل شيء فيه ينبض وكل فعل جائز. في خضم الولادة الجديدة لم تلحظ تواضع الحمَّام مقارنة بحمَّامات الفسطاط، كما لم تلحظ أنها بلا نقود.

خرجت تفوح منها روائح زهرة اللوتس وخشب الصندل، وهي روائح مختلفة عن رائحة الورد المعتادة في حمَّامات مصر. رأته واقفًا مع بعض الرجال يتجاذبون أطراف الحديث. لمحها بطرف عينه فأتى تجاهها بخطوات بطيئة واثقة.

قالت:

- سأدفع لك ما دفعته حين نعود.

قال:

- أنا لم أدفع شيئًا، ألقيت على صاحب الحمَّام بعضًا من شِعري أمتدحه وأمتدح حمَّامه.

ضحكا، ساعتها رأت اعتماد أنه موقف طريف، لكنها بعد عدة سنوات ستدرك أنه يناقض كل المهابة التي يتحدث بها عن الشعر ويقدم بها نفسه.

في طريق العودة لم يتوقف أبو بكر عن الحديث كذلك، كل بيت شعر يلقيه يبهرها، كل استعراض منه لأخلاقه وشهامته وجرأته يلف عقلها مثل تعويذة سحر. قهقهت لأول مرة في الشارع، لم تدرِ إن كان من أثر الولادة أم الغربة. المرات القليلة التي نطقت فيها اعتماد، أخبرها بأن لكنتها المصرية تجعل الكلمات مثل حبات التوت في الفم، لكنه لم يزِد على هذا في غزله، وقاومت هي بصعوبة أن تجره لمغازلتها. تعرف جيدًا أنها تستطيع ذلك، ليس لأنها خبيرة بالغزل، لكن لأن زهورها التي تفتحت في الحمَّام منحتها قدرة جديدة على الاستدراج، ونوعًا آخر من الحرية، والحرية نفسها هي التي جعلتها تختار ألا تستدرجه.

عندما عادا كانت الشمس قرصًا أحمر يطل في ثوب السماء، وبدا أن وجه ابن الحسن الذي جلس أمام البيت مرابطًا له نفس اللون. اقتربت اعتماد منه مُرحبة، مُهللة، فتجهم وجهه ولم يرد عليها، انطفأت سعادتها مثل فتيل دُهِس قبل أن يشتعل. وجَّه كلامه إلى أبي بكر وقال:

- تسيران بجانب بعضكما؟

سألته اعتماد:

- وكيف نسير إذن؟

قال:

- الرجل يسير خلف المرأة وبصره إلى الأرض.

تضجر وجه أبي بكر بالغضب:

- لقد أكرمتنا في بيتك ولا أريد أن...

قاطعته اعتماد:

- كنا نتحدث يا شيخ، وهل يتحدث الناس إلا وهم متجاورون؟

قال الشيخ:

- الرجال لا يتحدثون إلى النساء في الشوارع.

قالت بمرح:

- وما الذي يفرق الشارع من البيت؟ وما الذي يفرق في الحديث بين رجلين أو رجل وامرأة؟

تبادل ابن الحسن نظرة مع أبي بكر، أما الأول فاتهم الثاني من دون أن ينطق أنه أثر في الفتاة، وأما الثاني فكان يحاول أن يثبت التهمة على نفسه على الرغم من معرفته أنه ليس السبب.

قال الشيخ:

- نحن عرب ومسلمون، ومثل هذه الأفعال تهين المرأة التي أراد الله أن يجعل لها مكانة ويكرمها.

قالت:

- الله أكرمني لأنه جعلني حرة. أستطيع أن أسير في الشارع من دون أن أشعر بالدونية وأتحدث مع الناس وأكسب احترامهم.

قال الشيخ:

- السير في الشارع له قواعد، والحديث مع الناس له أماكن.

قالت وكانت لا تفكر قبل الكلام:

- ومن الذي وضع هذه القواعد؟

قال الشيخ وقد هدأت نبرته:

- تريدين أن تغيري القواعد إذن؟

قالت:

- ما دمت لا أوذي أحدًا.

قال:

- شارب الخمر أيضًا قد لا يؤذي أحدًا، والكافر والعياذ بالله لا يؤذي أحدًا، لكن ماذا لو أنك تؤذين الله؟

قالت:

- الله يعاقبني.

ثم استدركت:

- الله يحب الناس ويرحمهم.

قال الشيخ:

- لكن الناس لا يحبون الناس دائمًا، ولا يرحمونهم أبدًا.

قال أبو بكر:

- فليذهب الناس إلى الجحيم.

ضحكت، لكن ابن الحسن بقي صامتًا، حتى عندما تقدمت للمطبخ وقالت إنها ستعد لهما أجمل مائدة. في المطبخ سمعته يتحدث مع أبي بكر، لكنه كان حديثًا خاليًا من الانفعال كأنه استكمال للجدال الذي أثارته. وجدت في خزين الشيخ تمرًا، وبيضًا، وسمنًا، ولبنًا دافئًا في طبق بدا أن الشيخ حلبه من العنزة في الجوار توًّا، فصنعت أكلة مصرية علمتها إياها أمها في أحد الأيام الخوالي. هرست التمر وحمرته في السمن على نار موقد صغير أطعمته الخشب، ثم شطرت عليه البيض، ومن نافذة المطبخ قطفت بعض الزهور وطحنتها في يدها فوق اللبن، فنزلت قطرات فواحة تشبه ماء الورد واختلطت به. كانت في مزاج مشرق كأنها عروس من دون كل تفاصيل العرس المرهقة. هي فقط عروس للحرية، للطبيعة، للحياة.

لم تعرف اعتماد أن سبب شعورها بالولادة والحرية والإشراق كان لأنها فتحت قلبها الموصد منذ ولادتها، ظنت أن السبب أبو بكر وحديثه والشعر. فكرة الإلهام تمحورت وقتها في الرجل وكلامه، فظنت أنه كل شيء، وأنه من فتح هذه الأبواب بداخلها. بعدها بسنوات ستعرف أن الإلهام كانت هي منبعه، وأتى في هذه اللحظة بالذات لأنها سمحت له، وأن نداءات قلبها كانت طويلة ومستمرة، لكنها اختارت هذه اللحظة وهي تمشي في أرض غريبة بين غرباء، ترتدي ثيابًا غريبة وتستمع إلى هذا الغريب. لحظتها تحرر القلب من قيوده التي وضعتها له منذ عرفت أن لها قلبًا، لحظتها قررت أنها تريد أن تتبع الخطوات التي لا تعرف إلى أين تحملها، وتمشي على هدى كل ما يجعل قلبها حيًّا وحرًّا. حتى لو كان الهوى الذي سيؤذيها كثيرًا فيما بعد بقدر ما سيعلمها.

لم تكن تعرف كذلك أنها تستطيع قول رأيها ببساطة، لم تعرف أصلًا أن لها رأيًا، وأن فكرة طرأت على بالها يمكن أن تكون حقيقة، وخاطرًا راودها يمكن أن يكون صحيحًا، وأن الكلام عندما يخرج من الفم يصبح أقوى وأكبر وينتمي فورًا إلى الواقع. عكس الكلام عن الحب والمشاعر الذي يقتله الحديث عنه. الكلام عن الأفكار يجعلها أشد، ويجعل لها لونًا ورائحة ووجودًا، حتى لو تراجعت عنها، حتى لو لم تكمل المجادلة فقد ألقت السهم وانتهت، من يمكنه أن يستعيد السهم؟

سمعت أصوات الاستحسان لرائحة الطعام، فخرجت عليهما تحمله مبتهجة بصنعها. كانت الأجواء بين الرجلين أهدأ، كأنهما اتفقا على شيء ما. بعد تناول الطعام قالت لهما:

- سأرحل الليلة للبحث عن مأوى وعمل.

تبادلا نظرة، ونهض أبو بكر ليحضر شرابًا، أما ابن الحسن فطلب منها أن تُتم حكايتها قبل أن

ترحل، فربما أشار عليها بما يساعدها في محنتها. كان الجو رائقًا، وروحها كذلك، وكانت تفكر في بائعة البيض وتوأمتيها الشقراوين، والحياة التي تنتظرها. قالت:

- سأبحث في هذا الحي، لن أبعد كثيرًا الآن، وبالتأكيد سأعود لزيارتك يا شيخ، ولن أنسى معروفك.

لكن الشيخ أبى أن تخرج وحاول منعها بكلامه، حتى إنه وقف بجسده الهزيل أمام الباب، فسمعهما أبو بكر فأتى وساند الشيخ في رأيه أن تبقى اعتماد معهما حتى يفكرا لها.

- تفكران لي!

ما الذي حدث لكِ يا اعتماد يا ابنة الستة عشر عامًا؟

- أنا لديَّ رأس لأفكر.

قال أبو بكر:

- رأس جميل خُلق ليفكر في طعام جميل وكلام جميل، لكن لا نريده أن يؤذي نفسه.

في خارجها صرامة، لكن في داخلها أحبت كلماته.

- وخُلق أيضًا ليأخذ القرارات بحرية.

ألقت عليهما السلام، وحاول الشيخ مرة أخيرة أن يمنعها، لكن أبا بكر قال:

- دعها يا شيخ، فهي فتاة حرة، وهذا سر جمالها.

مغازلة بعد مغازلة، عندٌ على عندٍ، لم تضعف اعتماد أو تتراجع، خرجت للبراح وتخطت المنطقة البنية المقفرة حول منزل الشيخ للشوارع والأسواق الملونة. هناك في المكان نفسه الذي تجولت فيه في الصباح، وجدت هرجًا ومرجًا بين السابلة وآخرين في زي موحد بدا أنهم من العسكر. النساء يولولن في الشرفات ولْولات عريضة ومسترسلة، والأطفال يبكون بأصوات رفيعة مرتفعة. كل شيء اشتعل في ثوانٍ كعاصفة شتاء هبت فجأة على أرض ربيعية. تسمرت في زاوية زقاق صغير لا تعرف ماذا تفعل والخوف يقطر من ثوبها الحريري البنفسجي، فإذا برجلين من العسكر يقتربان منها، يتحدثان بلغة لا تعرفها وهما يشيران إليها، رأت هذه الوجوه المُشربة بحمرة والجباه المجعدة والأعين الغاضبة من قبل. لم يكن أمامها وقت للتفكير، أسبلت عينيها وسارت كأنها لا تسمعهما.

١٢

هل تعرف شعور التفاحة التي سقطت من الشجرة؟

كان هذا شعوري من دون أهلي، وحيدة، مقطوعة، معرضة للأذى، ملقاة على الأرض.

في زمرة من عشر نساء قيَّدونا جميعًا وربطونا ببعضنا، نسير تحت وهج الشمس المصوبة على رؤوسنا تمامًا. حافيات، قذرات، بثياب ممزقة، كنا نبدو كسجينات لجرائم لا نعرف شيئًا عنها أبدًا، ولم أكن أعرف حينها عن الرق وسوق النخاسة. سمعت عن الجواري وأنا في الفسطاط، وأنهن مثل البضاعة يُبعن ويُشترين، وأنهن مثل الأثاث لا كلمة لهن، وأنهن مثل الخدم، لكن بثياب تليق بخدمة الملوك والأمراء. سمعت أيضًا أنهن يُستخدمن كالزوجات لكنني لم أسأل، ولم أفهم، ولم أهتم.

صوت بكاء النساء يشوش تفكيري، أصبحت مثل قمر، لا أفكر سوى في الهرب، على الرغم من القيد في يدَي والحبل على خصري الذي يصلني بمن قبلي وبعدي، لكنني لم أعدم الأمل. كنت أنظر حولي في وجوه المارة القلائل وهم يتفحصوننا، بعضهم يبدو عربيًّا، له نفس اللون والخشونة، وآخرون ناعمون بأعين لامعة. أسرح في جمال المدينة الساطع والألوان البهية للطبيعة وللقصر الكبير الذي نسير حوله (لم أعرف وقتها أنه حصن)، يحدنا سور عظيم. انقبض قلبي وملأت عينَي الدموع عندما سمعت من خلفه صوت البحر، صوت اليوم الذي فقدت فيه أهلي وضِعت.

عندما وصلنا إلى سجننا الجديد بالحصن أبقونا هناك ساعات، وبدأت ثرثرة النساء تنتشر والضحكات تعلو، مع استمرار البكاء، إلى أن دخل علينا ثلة من الأقزام ورجل ضخم. اقتاد كل قزم مجموعة من النساء إلى سجن آخر، كانت هذه المرة الأولى التي أرى فيها جَواري، بدَوْن لي كأميرات، قبل أن أستدرك الأمر، جمال في الشكل والملبس وحتى الحركات البسيطة التي لا نعرفها نحن كفتيات بيوت المدن وأيضًا الفلاحات.

بدأ الرعب في اللحظة التي أخذتنا فيها إحدى الجواري، النساء العشر المقيدات ببعضهن، ودخلت بنا إلى حوض كبير يشبه الحمَّامات. فك الأقزام قيودنا، وطلبت منا جارية كبيرة في السن عفية في الجسد أن ننزل الماء بلا خيط واحد علينا. بعضهن خلعن ثيابهن ونزلن الماء في ثوانٍ، وبقيت أنا وفتاتان واقفات نرتعش. في مصر كنا نتعرى في الحمَّامات، لكنه هناك كان أمرًا طبيعيًّا، أما هنا فالأمر كأنه شيء من كسر النفس والإهانة، شيء يشبه تنظيف الدجاج قبل طهيه، أو تسمين العجل قبل ذبحه. مالت إليَّ جارية صغيرة قالت لي إن العصيان يساوي الموت. عقلي أيضًا حدثني أن الانصياع لهم قد يمنحني أملًا للفرار.

لا أعرف لماذا توحشت أمي في هذه اللحظة بالذات، كانت ستدافع عني، ستموت من أجلي ولا أتعرى من دون إرادتي. خلعت ثوبي المتسخ، وحررت شعري من خرقة كنت قد غطيته بها. سمعت شهيقًا لم أعرف أهو للجواري أم للأقزام! حممونا بالصابون والعطور، وألبسونا فساتين من حرير عارية الصدر، مشدودة الخصر وخفيفة تكشف كل ما تحتها، كنا نبدو مثل الدمى. بعد قليل،

سيجردوننا من إنسانيتنا، ونقف صفوفًا أمام التاجر الذي سيسأل كلًّا منا عن مواهبها، ويقلب فينا مثلما يقلب بائع الدجاج في الدجاجات.

عندما جاء دوري ليسألني، فكرت في أن أجيب بشيء يكرهه الرجال وينبذه الناس عندما يكون من امرأة، ربما ينقذني هذه المرة، قلت:

- أنا أكتب الشعر.

سمعت شهقة مرة أخرى، ورأيت في عينَي التاجر اللتين اتسعتا بشكل كبير أن إجابتي راقته. سألني عما إذا كنت أكتب بالريشة والدَّواة، وإن كنت أستطيع أن ألقي الشعر، وإن كنت أعرف كيف أكتب الرسائل، وبدا أن كل إجاباتي أعجبته.

صنفنا جميعًا حسب الثمن كما عرفت بعد ذلك، وكنت مع الفتيات اللاتي يُجِدن الغناء في قائمة الأعلى سعرًا. بحثت عن قمر طوال الوقت لكنني لم أجدها، ربما استطاعت الهرب كما كانت تريد دائمًا. بعد يوم طويل قدموا لنا فيه التين والتمور المجففة والحليب، نقلونا إلى غرف نوم جماعية، وبسبب النظافة والشبع بعد جوع وتعب نِمت على الفور. منذ أن خطفوني وأنا أحلم كل يوم بأهلي وبدوار البحر وصوته الغاضب. في هذه الليلة حلمت ببساتين الجنة التي رأيتها في الطريق، رأيت أبي وأمي وهما يلوحان لي بسعادة وقد كانا شابَّين صغيرين، لكنني كنت خائفة وصحوت على دموعي.

هندمتنا الجواري ومشطن شعورنا وعطرنَنا. نتفن الريش وفركن اللحم، نحن الآن جاهزات للطهي. اقتادونا مرة أخرى إلى الخارج من دون قيود في أيدينا، ومن دون أن يربطونا ببعض، هذه المرة أخذونا إلى ساحة كبيرة تابعة للسوق الصغير، فلم يكن يعيش عند الحصن إلا بدو قليلون والكثير من الجنود العرب والمستعربين ورؤساء الخدم الذين نقف أمامهم الآن ليختاروا منا ويشترونا للأسياد.

تعجبت أنه حتى السيد لا ينزل بنفسه للسوق ويختار! عندما جلست مع الجواري فيما بعدُ عرفت أن الأسياد لا يعرفون الكثير من جواريهم، وأنهم لا يهتمون إلا بصاحبات المواهب والحضور والجمال. في هذا اليوم وقفنا ساعات طويلة، كل رجل يمر بنا يتفحصنا بشروط منها ألا يمس أجسادنا إلا عند الذقن والكتف، وألا يتحدث معنا. لكنه كان يطلب منا أن نلف ويجب أن نطيعه، كانوا ينهشوننا بأعينهم من دون أن ننطق، لاحظت هذا وأنا أراقب فتيات غيري. أما أنا فلم أكن أمنح نظرتي لأي رجل يقترب، وكانوا كثرًا، وكنت مرهقة، قدماي تؤلمانني، والعرق البارد يتصبب من عنقي، والشمس كأنها ترقد على جبيني، فكرت في أن أقع ليتوهموا أنني ضعيفة ويتركوني، لكن الفتاة التي سبقتني إلى هذا أعادوها إلى الحصن، وسمعت التاجر يقول إنها ستبقى هناك لتطعم الجنود، لم أُرد أن يكون هذا مصيري.

إلى أن تمت بيعتي، وأخذني رجل قصير القامة مدكوك الجسد أنا وعدة فتيات. ربطونا معًا وسرنا مثل البهائم، الشمس تعمينا، والهوان في قلوبنا كأننا كائنات بلا عقل وبلا ذاكرة. ركبنا عربة تنتظرنا بعد السوق. استغرقت الرحلة يومًا ونهارًا غفوت فيهما غفوة طويلة، تذكرت نومتي فوق الجرن، رائحة السكون في العصاري، همس أمي في الصلوات، المشربية الكبيرة التي يدخل منها النور في مربعات صغيرة تكسو الأرض. أفقت عندما وصلنا إلى بيت السيد. قصر كبير بأبواب خشبية ضخمة، ورائحة مسك ملأت المكان، وسجاجيد سميكة ومنقوشة على الأرض والجدران. انتظرنا في قاعة الضيوف حتى جاءت رئيسة الجواري لتعيد تصنيفنا مرة أخرى. رمقتنا من رؤوسنا حتى أقدامنا، تفحصت أجسادنا وملامحنا وأسناننا، أمسكت الأذرع وسمانات السيقان وخصلات الشعر، ثم سألتنا مرة أخرى عن مواهبنا، ومرة أخرى قلت الشعر.

انتحت بكل فتاة جانبًا تتحدث إليها، وعندما جاء دوري سألتني إذا كنت عذراء، أومأت بنعم، وتسارعت دقات قلبي، ثم سألتني إن كنت أفضِّل أن أكون جارية لذة أم جارية خدمة. سرحت في السؤال، ليس لأنني لا أعرف الإجابة، لكن لأنني لم أتصور أن أُسأل، قلت من دون تفكير: «جارية خدمة»!

الفرز الثالث كان مساء، عندما دخل علينا السيد نفسه تتبعه حاشية من الخدم ورئيسة الجواري. كان رجلًا مسنًّا في الخمسين، لديه بطن كبير ولحية صغيرة، وعلى رأسه عمامة ضخمة، عندما فتح فمه ليتحدث رأيت أسنانًا صفراء وبُنية، شعرت بالدُّوار من رائحة فمه العطنة، وكدت أسقط لكنني تمالكت نفسي بصعوبة. اقترب من كل امرأة كأنه سيلتصق بها، يشم شعرها ثم يهمس بشيء إلى رئيسة الجواري. عندما اقترب مني رأيت بوضوح وجهه الممتلئ بالبثور وشفتيه البنيتين المتقشرتين، عدت إلى الخلف فرأيت نظرة غريبة في عينيه، مزيجًا من الغضب والرضا، ارتعش جسدي وفكرت في أن قتل نفسي سيكون أرحم من أن أقترب من هذا الرجل مرة أخرى.

بعد أن رحل بمدة قصيرة خطبت فينا رئيسة الجواري، ألقت علينا بعض التعليمات والقواعد التي يجب أن نتبعها في القصر، مثل الصمت والالتزام بأماكننا وعدم التجول في الطرقات. ثم بعد أن انفض الجمع انتحت بي، وقالت لي إن السيد يريدني جارية لذة، قلت:

- لكنكِ خيَّرتني!

قالت:

- من العُرف أن أخيّرك، لكن من الواجب أن نطيعه.

سألت:

- وإذا رفضتُ؟

قالت:

- سيبيعك برخص التراب إلى سيد آخر، لكن من خبرتي مع السيد ابن كُليب سيأخذكِ غصبًا، ثم يقرر إن كان سيبقيكِ أم يبيعكِ.

مشت خطوة ثم عادت تقول وهي تنظر إلى جسدي:

- ألم تتوقعي ذلك؟ ألا تعرفين أنكِ أجمل فتاة في الأسيرات اللاتي معك؟

تهاوت قدماي، لكنني تخشبت مستندة إلى جدار. أخذتني جارية أخرى إلى مخدع الجواري، ربما جواري اللذة، فوجدت نفسي طفلة بينهن، باسقات مثل النخل، فائرات الجسد، بضَّات الوجوه، عرفت أن أغلبهن قشتاليات ولا يتحدثن إلا عربية متكسرة. قضينا أيامًا طويلة ربما أسابيع أو شهور نتعلم ونتدرب على المشي والأكل والرقص والحركة والجلوس والغناء. ظننت أن حياتي انتهت هنا. كنت أموت عدة مرات في اليوم كلما نادتني رئيسة الجواري، ليس فقط خشية أن تقدمني على صينية من ورد إلى سيدها، لكن لأن شيئًا في نظراتها لثدييَّ ولمساتها لفخذَي ومؤخرتي، كأنه عن طريق الخطأ، يقلقني.

كنت أرقص وأنا أبكي، وأغني وأنا أنتحب. أدعو اللـه أن أسلم روحي قبل أن أكون جارية لذة. فشلت في كل ما حاولن تعليمي إياه. رئيسة الجواري لاحظت وهني فطلبت مني أن أتبعها، أدخلتني غرفتها الخاصة، وطلبت مني أن أستلقي على الفراش، أمسكت زجاجة تشبه زجاجات الدواء وطلبت مني أن أخلع ثيابي، أخبرتني بأن هذا زيت ستُمسِّد به جسدي فيعود إليه بريقه وصحته. نظراتها كانت ثقيلة وكلماتها لزجة. تذكرت بعض همس الفتيات عن أشياء غامضة تبدو قبيحة وتحدث بين الجواري، أو بمعنى أصح: بين جارية صاحبة سلطة وأخرى ضعيفة. وأنا لست ضعيفة. اقتربت أكثر فخطفت الزجاجة من يدها وألقيتها على وجهها ثم فررت.

ظهرَت بعد ذلك بوجه به كدمة، لم تنطق إحدانا إلا بالنظر. وبدأت تعاقبني بجعلي أنظف الحمَّامات والمطابخ في وقت الراحة، بل وجعلتني أنظف حظائر البهائم وأعتني بها. لم تعرف قَطُّ أن الوقت الذي أقضيه مع البغال والأبقار كان أفضل وقت لي في هذا القصر، خصوصًا بعد أن انضمت قمر إلى الجواري، وعادت صداقتنا، لكن مع كثير من الصمت والحذر.

إلى أن جاء اليوم الذي أخذتني فيه رئيسة الجواري من الصباح لتعدني للطبخ وتقدمني لسيدها، وضعتني بين أيدي النتَّافة والحفَّافة، فنتفنني وحممنني وجهزنني للقاء السيد بكل العطور والحرير والأدهان ومعطرات الفم والشعر. طرأت في بالي فكرة، وتظاهرت بالرضا والسعادة بل والشوق. استمتعت بكل ما فعلنه بي وأنا أتخيل ما سأفعله بهن. تركنني لأرتاح حتى يطلبني السيد. كنت قد حفظت القصر، وكان الخدم معتادين على نزولي إلى حظائر البهائم، فمشيت أمامهم بأريحية للحظيرة، بحثت عن الشوكة وخطفتها. من الحظيرة اتجهت إلى باب خلفي مخصص للخوذي، فتحته وأنا أنظر خلفي، أعرف أن الموت موجود في كل مكان حولي. التقت عيناي مع عينَي الخوذي في الظلام، فعرفت أن النهاية قريبة، لكنه على غير توقعي أشار إليَّ أن أمضي.

أطلقت ساقيَّ، وعبرت الحديقة حول القصر، وصلت إلى البوابة التي دخلت منها، وقف بها حارسان يتسامران. انتظرت في الظلام قرابة ساعة، بلا نفَس ولا حركة، كل ما يثبت حياتي يمنحني الموت. حتى فتحا البوابة ودخلت عربة يجرها حصانان بلون الليل. تلكأ الحارسان في غلق البوابة، أو أن الزمن هو من توقف. كانت فرصتي الوحيدة، أمسكت حجرًا صغيرًا من الأرض كنت قد رأيته في ساعة انتظاري، ألقيته على أصيص زرع نحاسي بعيد فأصدر صوتًا عظيمًا، هُرع أحد الحارسين إلى مكان الصوت، فاندفعت إلى الباب المفتوح، وما إن تحرك الحارس الآخر تجاهي حتى هاجمته بالشوكة وضربته في صدره. حاولت بصعوبة ألا أنظر إليه وهو على الأرض والدماء تنفجر منه. رميت الشوكة وركضت خارج المكان والزمان وخارج حدود كل ما أعرفه عن نفسي. استمررت في الركض حتى شعرت بأنني بدأت أركض في أرض قاحلة، ولم أدرِ بنفسي إلا وأنا أسقط في الحفرة. سقوط تفاحة وحيدة، ملقاة على الأرض، لكنها ناضجة وصلبة، وسامة إذا لزم الأمر.

١٣

يناديني الأولاد في الحارة يا «عرجا»، ويناديني أهلي بـ«عود القصب». كبرت وأنا أعرف عن نفسي أنني دميمة، وكان هذا يجعل وجهي في الطفولة يحتقن بالدماء وتعلوه الحرارة، ودموعي تسقط من عينَي في غير الأوقات التي مفترض أن تسقط فيها. لكنني كنت أختفي عندما تداهمني هذه المشاعر، فلم يروا مني إلا الفتاة الهادئة المهذبة التي تشاركهم الضحك عندما ينادونها بهذه الكلمات. كنت أتجنب رؤية وجهي في انعكاسه على الماء في الطبق أو في صفحة النهر. دفعني خوفي من الدمامة إلى أن أتعلم، فأصررت على أهلي أن أذهب إلى دروس القراءة والكتابة مثل أخي حسين. كنت أذهب مع بنات خالتي وكنَّ يقضين وقت الدروس في المزاح والكلام، وأحيانًا في اللعب في ساحة البيت، بينما كنت ألتهم كلام المعلم وأحفظه. وأصبحت أنا الوحيدة في الحارة التي تكتب وتقرأ، فرضت على الناس احترامهم لي، فأصبحت اعتماد فقط.

كان ذلك قبل أن يشدني الشِّعر من قلبي، ويلقي بي في كل الحماقات التي حدثت بعد ذلك. الغريب أنني بعد كل هذه السنوات عندما تجاوزت صدمة خطفي وجدت قدمي تسير مثل أختها، ضاع العرج في ضياعي وأصبحت سليمة الجسد عليلة النفس، أسير بشكل طبيعي وأنا أسيرة بينما كنت أعرج وأنا حرة. في القصر لأول مرة في حياتي أصادف مرآة، رأيت فيها وجهي لأول مرة وصُدمت، وبكيت، كيف عشت كل هذه السنوات وأنا أظن نفسي دميمة؟ كيف ضحك عليَّ العالم أم

أنني ضحكت على نفسي؟ لمست وجهي أمام المرآة وشعرت به طريًّا تحت يدَي، وجه جميل حزين. والآن هأنذا حرة بعد هروبي وقد عاد إليَّ العرج من أثر سقوطي في الحفرة، كأنه يأبى أن يتركني سليمة وحرة، ربما كان ثمن الجمال الذي أشعر به الآن ولا شيء يقبض على روحي.

* * *

لم يكن هذا بالضبط ما حكته لهما اعتماد لاحقًا في نهاية اليوم، خجلت مثلًا من ذكر «النتَّافة» و«الحفَّافة»، انتابها القرف من ذكر رئيسة الجواري، وخافت ذكر واقعة قتل الحارس.

عندما اقترب منها الجنديان بالسوق بعد تركها الشيخ والشاب، لم يكن الوقت كافيًا لتفكر، لكنه كان كافيًا لتتذكر هروبها، الرجل الذي سقط بضربتها، الرجل الذي اشتراها، الآخر الذي باعها، ما أقسى الرجال في حياتها القريبة! كل ما استطاعت فعله هو أن تعود خطوتين إلى الوراء، اصطدمت بشخص، كان ابن الحسن وخلفه وقف أبو بكر. سألها جندي:

- من أنتِ يا فتاة؟

رد ابن الحسن:

- هي ابنتي، وذهبت لتشتري الخُضر من السوق.

قال الجندي:

- لكن هذا زي الجواري.

رد ابن الحسن:

- عطفت به علينا امرأة من رقة حالنا.

نظر الجندي إلى بعض المارة الذين وقفوا يستطلعون الأمر وسألهم:

- هل هي ابنته؟

أومأوا جميعًا بـ: «نعم». قال بنبرة حادة:

- الزموا بيوتكم، وإلا ذبحناكم في الشوارع مثل البهائم.

استرقَت نظرة إلى أبي بكر، فرأت وجهه ممتقعًا وعينيه غائرتين، لكنه لم ينطق.

عادت معهما إلى البيت في صمت، ثلاثتهم يطفح عليه الشعور بالمذلة. ربما كان شعورًا معروفًا ومعتادًا للرجلين، لكن لاعتماد كان شعورًا جديدًا لم تذُقه إلا منذ أشهر قليلة.

أشياء لا تفهمها اعتماد في الأندلس وكتبت قائمة بها:

١- العدد الضخم للجواري في القصور والبيوت والشوارع. في مصر الجواري للأسياد في القصور البعيدة فقط.

٢- الرجال أكثر فتنة بالنساء، تكون لهم زوجات وإماء ومع ذلك يتشممون ثنايا أي امرأة تمر.

في مصر القليل فقط من الرجال ينظرون إلى النساء خُلسة.

٣- شرب الخمر متاح للجميع. أما في مصر فهو حرام على الشعب، وحلال للأمراء والأعيان.

٤- الشِّعر في كل مكان حتى الشوارع. في مصر الشِّعر مقصور على بعض الدوائر والدواوين فقط.

٥- العسكر يملأون الشوارع لإرهاب الناس وليس لبث الأمان فيهم مثل العسكر في مصر. باستثناء طبعًا حوادث الظلم الفردية التي يتصرف فيها كل العساكر بلا عقل.

ستزيد القائمة في السنوات التالية.

أرادت اعتماد أن تبدد كرب الرجلين، فقصت عليهما قصتها قبل سقوطها في الحفرة وإيجادها. تعرف أنها ليست هذا النوع من القصص التي تبدد الكرب، لكنها تعرف كذلك أن الحكايات أيًّا كانت تؤنس القلب وتشغل الروح عما يؤرقها.

كان ابن الحسن مُنصتًا جيدًا، أما أبو بكر فكان مُستمعًا ملولًا، حتى إنه تركهما وذهب لقضاء حاجته مرة، وللشرب عدة مرات. لكن اعتماد لم تتوقف أو تنتظره، أكملت حكايتها كأنها خطبة بلا فواصل. في المساء كان أبو بكر قد اتخذ قراره بالمغادرة والسفر. قال وهو يقف على الباب من دون شيء في يده:

- لم أعد أستطيع التنفس هنا.

لم تفكر اعتماد مرتين. قالت:

- خذني معك.

قال:

- تعالي.

لكن ابن الحسن انتفض، ولأنه لا يملك حق الرفض اختار حق الاستضافة البسيطة التي استضافها لهما وحق السن الكبيرة التي تغطي وجهه بالتجاعيد والقلق. قال ابن الحسن:

- أنت رحال خفيف لا تحمل حتى زادك، كيف ستكون مسؤولًا عنها؟

وقبل أن يرد أبو بكر قالت اعتماد:

- أنا مسؤولة عن نفسي، وكنت كذلك قبل أن ألتقيكما.

زاد أبو بكر:

- لن تكون هنا بأمان أكثر من السفر، لديَّ بغلتي ترعى في الجوار، سنذهب إلى إشبيلية في رحلة لن تطول عن عدة أيام.

- وماذا لو قابلتما الجنود؟

رد أبو بكر:

- لا تخَف يا شيخ، قضيت حياتي في السفر وأعرف أسرار الطرق أكثر من معرفتي لنفسي.

عندما استشعر ابن الحسن عناد الاثنين، دخل إلى غرفة نومه وخرج ومعه بعض الثياب. قال:

- خذي يا ابنتي، ارتدي هذا القفطان حتى لا تواجهي البرد والمصاعب بثوبك الخفيف.

أراد ابن الحسن ألا يكتشف أحدهم أمرها بسبب فستان الجواري. فهمت اعتماد مقصده، فدخلت إلى الغرفة وبدلت ثيابها، وتعجبت أن القفطان يناسبها، كأنه كان لشاب صغير، كأن ابن الحسن كان لديه ابن. لقد حكت الكثير من الحكايات لكنها لم تسمع حكايته. جمعت شعرها الطويل وعقصته تحت شال لفَّت به رأسها، ثم ودعت ابن الحسن وداعًا لم تمنحها الحياة فرصة لتودع أباها بمثله.

- تعرفين عنواني. اكتبي لي عندما تستقر بكِ الحال.

- سوف أكتب لك.

هكذا ردت اعتماد قبل أن تخرج في الظلام مع شاعر غريب في بلاد غريبة.

١٤

هل جربت إحساس أن تنقلب السماء؟

هذا ما شعرت به اعتماد وهي تسير مع أبي بكر، كأنها تخطو على السماء الهشة، الناعمة، الملونة بالبهجة. وفوقها الأرض، بعيدة وقاسية ومنسية. لا تنتبه اعتماد للأماكن القاحلة التي يمران بها، ولا لبرودة الهواء الذي يضربهما كل حين، ولا للجوع أو العطش. كأنها في جولة سيرًا على الأقدام عبر السماء، وليست رحلة ضياع وتشرد. كانت تسير بالقرب من نفسها، أو من السعادة أو من شيء جميل وغامض ينتظرها. أحيانًا تسير بظهرها ووجهها إلى أبي بكر الممسك ببغلته، تستمع إلى كل ما يقوله من شِعر وحكايات ونوادر. تحاول عبثًا أن تجاريه، لكنها كانت تشعر بجواره بأن تجربتها في الحياة ضئيلة وغير مهمة، لذلك تصمت وتستلذ بكلامه أو حتى بالصمت.

اعتماد صغيرة لكن لها قلب الشعراء المُرهف، فقدت أهلها وتفتقد الحب، لكنها منذ زمن طويل تفتقد أيضًا الرفقة. لذلك شعرت وهي مع أبي بكر كأنها فرس ظمآن وجد أخيرًا نبع ماء، فنسي الطريق ونسي العالم، ووقف بجسده اللامع تحت الشمس الثقيلة ينهل من الماء العذب ويريح أقدامه من الركض الطويل بلا هدف. اعتماد صبية، ولأول مرة تشعر بالأرض خفيفة تحت قدميها، وبأنها لو شبت قليلًا يمكن أن تطير، ولأنها صغيرة أيضًا لم تميز هذا الشعور ولم تحاول أن تستكشفه، هي فقط ألقت نفسها فيه بكل كُلها، من قال إن القلب هو الذي يجازف والعقل يمنعه! العقل أيضًا يريد وينتشي.

كان أبو بكر لطيفًا، يعرض عليها أن تنام على ساقيه عندما يلاحظ عليها التعب، تندهش من العرض الذي يلقيه بمنتهى الاعتيادية والأريحية، يسليها عندما يطول الطريق، ويجعلها تركب بغلته أغلب الوقت. لم يتوقفا عن الحديث إلا ليتأملا ما قيل وما لم يُقَل. استمرَّا هكذا طيلة نهار اليوم الأول، وعندما اكتست السماء بحمرة الغروب وجدته يحيد عن الطريق، ويصعد إلى جبل صغير بدا كرأس برتقالي بزغ في صفرة الصحراء. تبعته مستفهمة، لكنه لم يرد عليها واستمر في الصعود. لم تحب يومًا فكرة أن تتبع أحدهم، لكن في هذا الوقت أرادت أن تمنح عقلها الذي أنهكه التفكير إجازة، وأحبت فكرة أن تسلم أمرها لشخص كأنه عائلتها، فبعد حمل مسؤولية شاقة يتحول الإنسان إلى طفل راغب في الإمساك بيد كبير يتخذ القرارات نيابة عنه.

ظلت تسير خلفه على سرعة خطواته، تنظر تحت قدميها لتتجنب الطوب والصخر وتتبعه بحدسها، حتى توقف عندما وصل إلى القمة المنبسطة، فتوقفت والتفتت إليه في اللحظة التي التفت إليها فيها. سألته سؤالًا متأخرًا:

- لماذا نحن هنا؟

لم يرد لكنه انزاح جانبًا وأشار إلى أعلى، نظرت اعتماد إلى السماء فوجدت أجمل لون رأته في حياتها، لون بنفسجي أزهى من الورد وأكثر اتساعًا من الصحراء. دققت النظر فشعرت بنفسها ترى حبيبات بنفسجية تطير وتتقافز، كأن هناك أطيافًا تمر بسرعة غير ملحوظة تزرع هذا الفضاء بالبنفسج فوق النور، تساءلت إن كان هذا اللون حيًّا أم أن هناك حياة خلف السماء. تداخلت السحب وتشربت اللون بدرجات متعددة، بينما تشربت اعتماد أيضًا هذا الجمال على مهل.

- اعتماد.

أفاقت من سطوة الفن على صوته الرنان.

سألها:

- ما رأيك؟

قالت، وهي تشعر بالبنفسجي في عينيها ونظراتها:

- لم أرَ مثل هذا!

- لكنكِ معي سترين كل يوم جمالًا جديدًا.

لمعت عيناه، واقترب منها من دون أن يقترب. أجفلت، فعاد يقول:

- سنبات هنا ونتحرك في الفجر.

- لكن البرد سيقتلنا.

أخرج من جعبة بغلته كيسًا من القماش ووضعه على الأرض، فأحنت البغلة رأسها لتأكل منه، ثم

أخرج عصا قاسية وقاعدة ملأها بعشب يابس، وجلس على الأرض يحك العصا مع القاعدة حتى اشتعلت النار. أشار إليها أن تجلس وأطاعت، ثم أحضر بضع حبات من التمر الناشف وناولها إياها. استحلبا التمر وهما يجلسان متقاربين خلف ألسنة النار. حدست أنه أتى إلى هنا عدة مرات، فتصرفاته تصرفات خبير وليس غرًّا مشدوهًا مثلها. مر الوقت سريعًا وهو يحكي لها عن أصله وعائلته في مدينة شِلب، وعن عشقه لحياة الصعاليك والترحال وإلقاء الشعر في الطرقات والنوم في الخلاء. كانت حكاياته قصصًا مبتورة بلا بداية أو نهاية، يدخل من واحدة على أخرى كمن يغزل ثوبًا من عدة خيوط. حتى انتهت به الحكايات نائمًا إلى جوارها كطفل صغير أنهكه اللعب. أما هي فلم تنَم.

اكتفت بالاستلقاء على الأرض، كلما غلبها النعاس أفاقت على صوت طير أو حشرجة حشرة أو ململة حجر آتية من بعيد. تعرف أن نومها خفيف، وفي هذه الليلة بالذات لم يتغلب عليها التعب، قلبها يقظ وروحها متقدة. الصمت منحها الفرصة لتفكر فيما هو ماضٍ وفيما هو آتٍ، في الأهل والغربة والضياع وفي ولادتها الجديدة هناك في الحمَّام. لا تعرف كم من الوقت مضى، أو كم دمعة ذرفت حين أطل عليها بدلًا من السماء وجه أبي بكر. لم ترغب في أن ينتبه لبكائها الصامت، ففتحت عينيها على آخرهما، وعندما سألها:

- هل تبكين؟

ردت:

- بل كنت متأثرة من روعة السماء.

المسافة قريبة على أن تنظر إليه في عينيه، فعوضًا عن ذلك ركزت بصرها إلى السماء، ولأول مرة تلحظ النجوم تتلألأ بخفة وثبات، كأنها تطريز لامع في ثوب أسود. أما القمر فكان يضاهي جمال النجوم برعشة ضيائه. عاد أبو بكر إلى مكانه، قالت:

- هل تعرف أنني كنت أحب، وأنا في مصر، أن أستيقظ وحدي في منتصف الليل وأفتح نافذتي وأتأمل السماء!

رد عليها وهو ينظر إلى عينيها:

- إن هذا ما كنت أفعله طوال عمري... وأسعد لحظاتي لحظة ظهور الشمس لتملأ الدنيا بنورها.

ابتسمت من دون أن تنظر إليه، فما زالت عيناها معلقتين بالسماء:

- لا أصدق أنني أسافر معك. أحاول أن أخبر نفسي بهذه الحقيقة كل حين، لكن هل تعرف السبب في أنني وافقت على هذا؟

- أعرف.

- لأنني أحببت أن أتخذ قرارًا مفاجئًا، أن أختبر جرأتي، أكره أن أُضيع حياتي من دون أن أجرب أشياء مستحيلة. صحيح أنني لا أعرف عنك إلا كونك شاعرًا، لكنني، ومن دون أن أعرف باقي صفاتك، أدرك أن هذا أجمل ما فيك.

يبتسم لها وهي ما زالت لا تنظر إليه. يقول:

- صفاتي بسيطة، أنا شخص قاسٍ مع القساة، غير مهذب مع الظالمين، غير أمين مع المدلسين، أكره الحمقى والاضطرار والشروط والقوانين، وأحب الحياة والألوان التي تملأها بالزهاء والصفو والقتامة، ولي مبدأ وحيد، هو أن أفعل ما أشاء من دون أن أهتم برأي أحد. الناس لا يعنونني، وإذا اخترت بينهم وبين ما أريد، اخترت ما أريد.

تنظر إليه هذه المرة لترى في عينيه إحساسها بالحب الذي يتدفق مع كل كلمة يقولها. أحبت وصفه لذاته وطريقته في عدم الإشادة بنفسه أو بإنجازاته أو عن كم هو شجاع أو طيب أو شاعر عظيم. وقعت في غرام صراحته، لكن أكثر ما أعجبها هو أنها شعرت بأن مبدأه في الحياة هو نفس مبدئها الذي لطالما تمنت أن تعيش به. إنها ترى فيه ما لم ترَه في كل الناس الذين عرفتهم، لم ترَه حتى في أبيها الذي تعشقه. قالت له وهي تنظر إلى عينيه:

- اقتربت لحظتك الأثيرة.

تمتم:

- الشمس.

- أحب وجود الشمس والقمر في الأشعار. وكم يرمزان إلى أشياء ومشاعر مختلفة!

- إذن فأنتِ تقرئين الشعر قبل أن تعرفيني؟

- لا أعرف، لا أتذكر، لا أتذكر الكثير من الأشياء قبل أن أصل إلى الأندلس.

قال:

- تقصدين لا أتذكر الكثير من الأشياء قبل أن أعرفك.

قالت مغيرة الحديث، حتى لا يكتشف علاقتها بالشعر:

- وأنت، من منهما تستخدمه أكثر في أشعارك، الشمس أم القمر؟

- الشمس، لأنها توحي بالحياة والأمل، والنور الذي يدخل حياتي.

نظر إليها في الشطر الأخير من جملته، ولم تستطع أن تخفي ابتسامتها.

- أنا مثلك، أبي كان دائمًا يصفني بالقمر بالمناسبة، لكنني لم أعجب بهذا الوصف، لأنني أعرف أن الشمس هي الأصل، وهي التي يحاول القمر أن يسرق نورها ويشتهر بجماله على حسابها.

نقطتان صغيرتان فوق جبل ينظران إلى نقاط أكبر وأبعد، واللمعة البعيدة تنعكس على قلبيهما. لم يُلقِ أشعاره هذه المرة، كأنه كان يكتبها في قلبه، بينما تفتح اعتماد كل حواسها لتتشرب الوقت واللون والإحساس. رعشة الظلام ولوعة القلب ورائحة الحب، الغواية تسري في الهواء، وتبتلع المنطق مثلما تبتلع النار الحطب. لكن ما يحدث يتكون في خياليهما فقط. تتوقف النظرات عن التلاقي حتى لا تشتعل الروح أكثر. إن كل ما بينهما الآن كلمات تذوب قبل أن تنطق، ومشاعر تريد أن تُجهز على كل ما تبقى من عقل، ملحمة لم تدمر شيئًا، وأشعار لم تكتمل. كل شيء معدٌّ لانتصار الرغبة، لولا النوم الذي أنقذ اعتماد وخطفها أولًا.

١٥

حتى إذا جاء اليوم الثاني وبزغت الشمس لتنير فضاءهما الأبدي، فتحت اعتماد عينيها فلم ترَه. وجدت نفسها كأنها مقيدة على الجبل، وشعرت كم السماء بعيدة! فجأة داهمها تعب اليوم الفائت، ولم تجد في نفسها قوة لتبحث عن أبي بكر. نزلت وحدها من فوق الجبل، ووقفت تحته تبصر ما حولها. لاحظت أخيرًا أن الصحراء ليست شاسعة كما هي الصحراء التي عبَرتها مع أهلها في مصر، لكنها تبدو محدودة بالكثير من المرتفعات والزراعات المتناثرة. كان من الصعب أن تجده بين هذه التضاريس المتباينة، لكن بعد عدة دقائق ظهر أبو بكر من بعيد فوق بغلته.

تغير المزاج العام للرحلة بتغيُّر مزاجه، راح يعاملها بنوع من الجفاء حينًا، وبنوع من الحنان والعاطفة حينًا آخر. بدا عليه أنه معذَّب، وكان هذا يزيد من جاذبيته عندها. استكملا الرحلة التي بدآها منذ يوم ونصف اليوم بلا أي إشارة إلى ليلة الجبل. لكن هذه المرة هو على البغلة وهي تسير إلى جواره. الأرض تحتها أصبحت أكثر صلابة، أتعبتها قدماها لكن التعب في قلبها كان أكبر، لم يهون عليها إلا أوقات المزاج الجيد عندما يلقي عليها أشعاره ويأخذ برأيها فيها ويناقشها، يغلبها وتغلبه. وفي أوقات الصمت كان يشغلها التفكير فيه، في أسباب عذابه، في كلمات حلوة أو عادية قالها في عرض الحديث، في أشعاره التي تحمل الخيال اللطيف تمامًا كما تحمل شيئًا لا تعرفه عن الشعر يجعله كأنه مكرر. على كل حال، كانت تنتهي دائمًا بأن تنكر علَّاته وتتخذ له الأعذار.

حتى لاحت لهما من بعيد واحة ببضعة بيوت، تهلل وجهها فرحة، وجدت نفسها تركض وتسبقه، لكنه ناداها بصوت لم تسمعه من قبل. صوت فيه قسوة محببة لمن يعرفون بعضهم عن قرب، أو قسوة غليظة لمن لا يعرفون بعضهم، على الرغم من أن القسوة واحدة، لكنها مثل كل المشاعر يستقبلها كلٌّ على هواه. وقفت مشدوهة من صوته، لا تعرف إن كان يجب أن ترد عليه أم تضحك له كأنها دعابة. وفي لحظة الارتباك وعدم الإدراك هذه، نزل من فوق بغلته وقال لها بصوته الجديد:

- اركبي أنتِ البغلة.

اعتماد لا تحب الأوامر، فكرت لثوانٍ إن كان هذا طلبًا أم أمرًا، إذا استمعت إلى صوتها الداخلي فهذا أمر، أما إذا استمعت إلى صوت الدقات الجديدة التي طرأت على قلبها فهذا طلب. وصوتها الداخلي ليس بصوت العقل كما هو شائع، فالعقل أحيانًا يمشي على هوى النفس وليس هواه، أما صوتها الداخلي فهو صوت الضمير الذي نسمعه حينًا ونتجاهله أحيانًا. امتطت اعتماد البغلة ومشى هو جوارها، لم يفتح فمه الذي أحبت كثيرًا كل ما نطق به، واستمرَّا في المسير لنصف ساعة آخر حتى دخلا الواحة، وأصبحا فجأة جزءًا من العالم، بعد أن كانا العالم بأكمله.

تعامل معهما سكان الواحة كرجل وزوجه، ولم يحاول أيٌّ منهما أن يشرح حقيقة وضعهما، بل إنه أحيانًا في أثناء إقامتهما البسيطة هناك راح يعاملها كأنها امرأته حقًّا؛ يستشيرها، يسألها أن تعد له شيئًا من الطعام، أو يطلب منها أي شيء يصلح كنقود. كان ينظر إليها بمحبة الأزواج ويطمئن عليها كل حين، وكانت اعتماد سعيدة بهذا التواطؤ الجميل. لم تقلق قَطُّ، العشاق لا يقلقون. لقد مرت اعتماد في الأيام الأخيرة بمرحلة الإعجاب ثم كان الوله فوق الجبل، والوله يعقبه عشق. في الواحة بدأت تعشق، لكنها لم تدرك هذا إلا عندما استوت ظلمة المساء في السماء.

بدو الواحة كانوا عدة عائلات متصاهرين يقودهم شيخ، يتحدثون العربية بوضوح أكثر من أهل قرطبة، ثيابهم بلون الرمال الفاتحة، ووجوههم كذلك. حالهم رقيقة، وهذا ما جعلهم قريبين من القلب، لم يسألوهما عن حياتهما السابقة والقادمة، كل ما فعلوه أن قدموا لهما الماء والطعام والظل. كأنهم محطة سفر، فيحرصون على أن يكونوا محطة خفيفة الوطء، لطيفة الذكر والمحيَّا. محطة عابرة لكنك لا تنسى أثرها، كالماء البارد واللبن الدافئ الذي يقدمونه. أجسادهما خشنة بداخلها قلوب طيبة، لكنك على الرغم من ذلك لا تستطيع أن تأمنهم، لأنهم نقطة فاصلة وعابرة في دفتر الحياة، كما ستنسى خيرهم ستنسى شرهم.

بين البدو رأت عُمر، فتى في الثانية عشرة لكنه يبدو مثل رجل قصير القامة. كان ضمن الرجال الذين تقدموا لمساعدتهما عندما حلا بالواحة وطلبا الاستضافة. لفت نظرها بجسده الفتيّ على الرغم من صغره، وصوته المفخم كأنه مصنوع من الفخار الثخين. كان الوحيد الذي يتحدث إليها بأريحية لأنهم اعتبروه من الصغار، يدخل ويخرج على النساء بشكل عادي. وقفت معه وهو ينظف خروفًا مذبوحًا، يقطعه ويعد اللحم للشي. حدثها عن أنواع قطع اللحم وعن سر الشي في ألا يُقلب اللحم على النار ويُترك يستوي وعصارته داخله. عندما هبت ريح أطفأت النار، حدثها عن أنواع العواصف التي تهب عليهم في الصحراء، والفرق بين التراب والرمل والغبار. كان يقطع حديثه ببعض الطلبات والأوامر التي يوجهها للرجال بتهذيب وهو يناديهم «يا رجال» كما لو أنهم يماثلونه في السن.

حتى إذا اكتست السماء باللون البرتقالي إيذانًا باقتراب الظلام، أشعل عمر النيران مع الرجال، ثم بدأوا جميعًا يتحلقون حول أطباق المكسرات والحلوى الجافة والطرية. نادى عمر على النساء فخرج أغلب العشيرة من الخيام. تعجبت اعتماد من اختلاط الرجال بالنساء، ذلك قبل أن تميل إليها إحدى البدويات عندما رأت التساؤل في عينيها وتخبرها بعربية جافة أن عادات عشيرتهم اختلفت عندما وطئوا أرض الأندلس، وأصبحت المرأة أكثر حرية من أيام كانوا يرعون في بلاد البربر. تبادل الجميع الحكايات عن الماضي والأجداد، ثم تلا ذلك مسابقة في فك الألغاز والأحاجي، مما جعل اعتماد تشعر بفورة من الذكاء لم تشعر بها منذ كانت طفلة، وهي تحاول أن تسبقهم في

الإجابة، بعدها أتى وقت الأهازيج التي وقف أحد شباب البدو يغنيها ويرددها الجميع من خلفه، يتوقف قليلًا ليبدأ آخر في إلقاء الشعر ثم تعود الأهازيج مرة أخرى.

الشِّعر ثانية، ومرة بعد مرة.

ماذا تفعل والشعر يحاصرها من كل جانب، حتى عمر الصغير - الكبير - ألقى شعره بصوت عالٍ وحماسة تصل إلى السماء! أما أبو بكر فانتظر حتى فرغ الجميع من أشعارهم، ثم وقف ليلقي شعره بزهو وأداء يسحر أعين الناس وألبابهم تمامًا كما سرق لُبها. عندما انتهى من شعره أحاطه الرجال يحاولون أن يستزيدوا منه ويفهموا منبع المكان الذي يأتي بالشعر منه، فأشعارهم عن الطبيعة والأحوال، أما هو فأشعاره تخللتها مشاعر الحب والحنين والوحدة والشوق. وهي مشاعر لم تشغل البدو صياغتها على الرغم من ترحالهم الدائم والشوق الذي لا ينتهي.

تسلل عمر ليجلس إلى جوار اعتماد، ورفع إصبعه إلى السماء. نظرت إلى النجوم التي يشير إليها، كانت مجموعة من سبعة نجوم كبيرة بينها العديد من النجوم الصغيرة. فُتنت اعتماد للمرة الثانية بعد مرة القمر. قال لها:

- النجوم هي خارطة الوصول.

- الوصول إلى أين؟

- إلى أي مكان، ألسنا كلنا مرتحلين؟

- ربما أنتم البدو. لكن أنا...

توقفت اعتماد عن الحديث عندما تذكرت أنها أيضًا أصبحت رحالة.

قال عندما امتد الصمت لثوانٍ:

- هذا النجم اسمه العقرب، هل رأيتِ ذيله؟ وهذا الكأس لأن له بروزًا يشبه فم الكأس. هذا يُسمَّى القلب، يقولون إن له شكل القلب، لكنني عرفت شكله أولًا، أما هذه المجموعة من النجوم التي أتيت بكِ من أجلها فتُدعى الثريا، وهي قليلًا ما تظهر في السماء، لأنها غالية وعزيزة.

سألته:

- كيف عرفت كل هذه الأسماء والأشياء؟

قال:

- الرجل لا يستحي من السؤال.

ثم استطرد:

- لكن هلَّا أخبرتكِ سرًّا؟

لمعت عيناها:

- أحب الأسرار.

قال:

- في ليلة في نهاية الشهر، والظلام حالك والنيران خامدة، والبدو نيام، خرجت من الخيمة لأترصد النجوم، ورأيت الثريا في السماء، صعدت إلى جبل صغير و...

قاطعته:

- ألم تخَف؟

قال من دون تفكير:

- الرجل لا يخاف.

ثم أكمل:

- رأيت وهج النجوم ولمس عينَي كأنه لدغة بعوضة صغيرة، لكن النور في عقلي كان أكبر، وشعرت بأنني سقطت في دوامة. بعدها زارني شعاع النور عدة مرات، لم تكن زيارات عادية، كان...

قاطعته ثانية:

- كان ينقذك، يقودك إلى الطريق الصحيح أو يحملك بعيدًا أو...

قاطعها:

- يوقظني من كابوس.

صمتا لثوانٍ، الدهشة في عينيه والغرابة في قلبها، ألم يكن ما حكاه قد حدث لها من قبل، لقد عاشت الشيء نفسه من دون أن تذكر التفاصيل. نجوم تلمع في السماء، قرصة طفيفة في عينيها، شعاع نور يظهر كل حين كنجدة من السماء.

قال:

- لقد رأيتِ الثريا.

رفعت كتفيها:

- أنا لم أعرفها إلا منك الآن.

لكنها في قرارة نفسها تعرف أنها رأتها في ليلة بعيدة من خلف مشربية غرفة نومها هي وأختها. ناداها أبو بكر.

قالت لعمر وهي تنهض من على الأرض وتضرب مؤخرتها لتطرد الرمال العالقة:

- يجب أن أرحل.

- تعالي في المساء عندما ينام البدو لنركب الخيل تحت نور الثريا.

- لكنني لا أعرف ركوب الخيل.

- لا تخافي.

قالت وهي تسير تجاه أبي بكر:

- ربما في الصباح.

١٦

في المساء عندما توارت روائح الطعام، وتوقفت أصوات الأحاديث وأُغلقت عليهما خيمة واحدة، جلست في الركن تضم فخذيها إلى صدرها، تمامًا كما كانت في الحفرة. هناك فرشة نوم واحدة قررت أن تتركها له. الغريب أنه نام على الفرشة فورًا من دون كلمة واحدة، أسبل عينيه فصمتت الأشياء. وبقيت هي تُسائل نفسها عما حدث وما لم يحدث، عن الطريق والمحطة والوصول، عن القرارات التي وجدت نفسها يجب أن تتخذها وهي لا تعرف الصواب من الخطأ. تسير بدافع التجربة، فرِحة بكل هذه المشاعر الجديدة، لكنها ما زالت خائفة من المجهول الذي ينتظرها في كل خطوة. متى سترى أهلها؟ هل أضاعتهم إلى الأبد؟ كيف ستعيش؟ تتحول الأسئلة في عقلها من أسئلة معقدة ومربكة إلى أسئلة ساذجة. هل سيبقى أبو بكر معي؟ لماذا لم أرَ السماء هكذا من قبل؟ هل البدو دائمًا لطفاء؟ لماذا لا أعيش هنا؟

شعرت بيد على ظهرها فانتفضت، رفعت رأسها من بين ركبتيها فوجدت نفسها مغطاة بدثار، واكتشفت أنها كانت تسبح في النوم وليس في أفكارها، رأت عينَي أبي بكر أمام وجهها، وذراعه تحاوطها، كل شيء حولها يرتعش كأنها ترى الأشياء من تحت الماء. سألته:

- هل البدو دائمًا لطفاء؟

أجابها:

- لا، بل إن لديهم من الشدة ما لم أجده عند أي جماعة غيرهم.

قالت:

- لكن الطعام والنوم و...

قاطعها:

- يرحب أكثر الأقوام بأسًا بالغريب المسافر. هناك سحر في الغياب، حتى الأم تفضِّل ابنها المسافر، والزوجة تعشق الزوج في غربته، والحبيبة تنتظر الغائب. الناس يشتاقون إلى من يحملون ريح السفر، ويرحبون بالمؤقتين أصحاب الإقامات الخفيفة، لأنها إن آجلًا أو عاجلًا ستنتهي.

همست:

- وهل وجودك مؤقت؟

- على حسب، يجب أن تؤمني بالمتعة حتى تجاوبي عن هذا السؤال.

- وكيف أومن بالمتعة؟

- تجربينها، دعي نفسك للريح.

سألت بطفولتها الساذجة:

- كيف والبرد هنا قارس؟

قال وهو يمسِّد ظهرها:

- تحتاجين إلى بعض الدفء.

اقترب منها، فمه على فمها، فمها في فمه، تشعر بأنه سيبلعها كلها، لا يشعر القلب بأن هذه قُبلة، يشعر بها كهاوية وأنها تسقط الآن سقوطًا لزجًا، وعلى الرغم من أنها لا تفكر فإن عقلها يقظ، عرفت هذا عندما شهقت، الشهقة أفاقت شيئًا فيها فركلته في بطنه. النظرة نظرة دهشة، والشعور حب، والفعل ركلة في البطن انتفض على إثرها، بينما هي تنهض وتلملم نفسها. فقال:

- ما الذي فعلتِه؟

ردت:

- ما الذي تفعله أنت؟

- أنا أحبك.

- حسنًا تزوجني.

- أتزوجك في الحال، رددي خلفي: «زوجتك نفسي على سُنة...».

قاطعته:

- تزوجني على يد شيخ وشهود.

صمت ونظر إليها متأملًا. الرغبة تجري على لسانه وتلجمه. تمتم:

- في الصباح.

قالت:

- إذن لا تقربني حتى الصباح.

سألها وهو ينظر إليها بوَلَه:

- أبعد ما حدث؟

أحكمت ثيابها:

- الصباح ليس ببعيد.

- أتُمنيننني؟

- أن أُمنيك خير من أن أجبرك.

- وهل أجبرتك؟

- إذا كنت استمررت كنت ستجبرني.

قال بنفاد صبر:

- كنتِ تريدين مثلي.

قالت بعناد:

- وما زلت... لكن لا أريده في حرام.

قال من بين أسنانه:

- أنتِ ملك يميني.

سألته غاضبة:

- ماذا تعني؟

أجابها محافظًا على صبره:

- يعني أنه من حقي أن أتخذكِ ملك يمين، وتكوني بمنزلة زوجة من دون شيخ أو شهود، ولي منكِ معاملة الأزواج.

فكرت في أنها هربت من أن تصبح جارية لصاحب القصر حتى تصبح ملك يمين لحبيب في الصحراء، فكرت في أن قيمتها في الحياة مجرد جسد يملكه رجل ما، أو أن تظل بلا مأوى أو صحبة ولا تجد حتى قوت يومها! فكرت في أن غياب أهلها يساوي نقل ملكيتها إلى غيرهم، وأنها لا تستطيع أن تعيش فقط امرأة حرة. لكن الحب لمس قلبها، والحب له أحكام. وحكمه الأول أن تكون حرة مع من تحب، وإلا ما الفرق بينه وبين صاحب القصر؟

سألته:

- ما الفرق بينك وبين صاحب القصر؟

أجاب:

- الفرق أنني أحبك.

- ولماذا أُصبح ملك يمين إن كنت تحبني؟ لماذا لا نتزوج؟

- ملك يمين يعني امرأة أحبها، ولا فرق بينها وبين الزوجة.

- الزوجة حرة. وأنت عرفتني كذلك.

استمرَّا في الأسئلة والإجابات طوال الليل، العشق يطفو والرغبة غفت لكنهما لم يغفوا. هو يحاول أن يرد على مخاوفها وتشككها ويقنعها بآرائه، وهي تحاول أن تفهمه وتُفهمه آراءها. عندما بزغت الشمس أخيرًا استلقى ونام على الفرشة، أما هي فلم تنَم، وحتى اللحظة التي ثقل فيها الرأس ومال إلى كتفها سمعت صوتًا مفخمًا مثل الفخار الثخين ينادي بحماس هادئ من وراء الخيمة:

- من يريد أن يركب الخيل؟

* * *

الفرق كبير بين بيضاء وبغلة أبي بكر.

أمسك عمر كعبَي اعتماد حتى تستطيع ركوب بيضاء، الفرس الثلجية التي أحضرها لها. كانت

ناصعة البياض ببعض الوهج البُني على جسدها، أما شعرها فكان بلون الصحراء، أصفر داكنًا. ضبطت جِلستها بتعليمات من عمر، وأمسكت اللجام وهي بين السعادة والخوف. أصدرت بيضاء صوتًا فانتفضت اعتماد، ضحك عمر وشرح لها الفرق بين صهيل الخيل، وشخيرها، ونخيرها، وجلجلتها، وحمحمتها.

قال:

- ما فعلته معكِ حمحمة وهو صوت الفرس إذا استأنس بأحد.

ابتسمت اعتماد، وسمعت تعليمات عمر، ثم مسحت على عنق الفرس وهي تمسِّد شعرها. ركب عمر حصانه البني وأشار إلى بيضاء إشارة صوتية فتبعته. بعد دقيقة من المشي، اندفع عمر مع صاحبه، وبيضاء مع صاحبتها. اعتماد تطير، شعرها يطير بعد أن فقد وشاحه مع أول اندفاعة، قلبها يطير وروحها وكل شعور فيها. الحماس يغلب الخوف أحيانًا، وبخاصة عندما تكون مررت قبله بخوف أكبر، تصبح حينها الكلمة للشعور الألطف والأقوى من الخوف. الصحراء أيضًا تطير من ورائها، والسماء تطير والهواء يلعب لعبته المحببة. أفاقت من حماسها على صوت عمر يقول:

- لماذا لا تبقين هنا؟

قالها وهو يهدئ من سرعة حصانه، فهدأت بيضاء أيضًا قليلًا.

قالت:

- لا يمكن.

سألها:

- حتى تبقي مع زوجك؟

أخذت ثانية لتفهم من زوجها. ثم ردت:

- لأنني أبحث عن أهلي.

- مِن وين أهلك؟

- من مصر. خطفهم الأندلسيون بعد أن عبرنا البحر.

- تقصدين قُطَّاع الطرق؟

صمتت تتذكر في مشاهد قصيرة رائحة البحر والجندي والمحبس ووهج الشمس فوق رأسها وهي تسير مكبلة إلى القصر.

قطع تفكيرها:

- يمكن أن أقوم برحلة لأبحث عن أهلك.

- وحدك؟

كانا يصرخان بالحديث لأن صوت حوافر الخيل يغطي المكان، قال لها:

- نعم.

- كيف يا عمر؟

- الرجال يدبر روحه.

غريب عمر، وتعجبها غرابته ولكنته وصغره. حدثت نفسها أنه عندما يكبر سيصبح قائدًا أو محاربًا أو عاشقًا.

استمر الحوار بينهما دقائق أخرى قبل أن تطلب منه العودة، عادا بنفس النسق من السرعة الكبيرة، ثم التهدئة التي تليها السرعة، قبل أن يصلا بقليل، وجدا أبا بكر على بغلته يمسك بوشاحها في يده وعلى وجهه غضب صامت له صوت الريح.

- اركبي معي.

قالها من دون عتاب واحد. ربما لم يأتِ وقت العتاب بعد، أحيانًا يتأخر ليصبح أعمق وأشمل وأحيانًا لا يأتي.

ركبت اعتماد بغلته وقد وجدت متاعهما القليل معه، لقد أعد كل شيء حتى لا يرجعا إلى البدو مرة أخرى. سألته عن وجهتهما لكنه لم يُجِب. بعد مدة من سيرهما معًا حكت له عن ركوبها للخيل لأول مرة، لكنه لم يُجِب. تبادلا المواقع بعد أن أشار إليها، وجلس هو على بغلته، حتى عندما هلَّ الغروب بغموضه وسحره، سألته عن الشِّعر لكنه لم يُجِب. وعندما استقرَّا في بقعة للراحة وأشعل النار وجلس يأكل من طعام البدو وحده، سألته عن الليل والقمر والنجوم، لكنه استمر في تحديقه إلى اللاشيء.

استكملا سيرهما عندما حل النهار حتى وصلا إلى قرية صغيرة، تهللت أساريرها فرِحة، وكادت تضمه من فرحتها، لكنه لم يتفاعل، فقط أشار إليها لتجلس على البغلة وهما يدخلان القرية. في القرية اتجه إلى سوق كأنه يعرفه، سوق ليس بمزدحم لكن همهمة الناس، وصوت الحيوانات، و«صهللة» الأشياء التي تتحرك، بددت الوحشة التي قد ملأت روح اعتماد، وبدأت تستعيد عبير الحياة، لا ينقصها إلا كلمة من أبي بكر لتعود إليها راحتها.

وقف أمام امرأة ترتدي السواد وتشمر كمَّيها، تنظف دجاجًا مذبوحًا، ألقت عليه تحية حارة وبادلها التحية، نظرت إلى اعتماد وعلى وجهها نصف ابتسامة ونظرة بها شيء من السخرية. قال لها أبو بكر:

- خذيها عندكِ إلى أن تدبر نفسها.

نقَّلت اعتماد بصرها بينهما محاولة أن تفهم، فهمس إليها أبو بكر:

- هذا فِراقُ بيني وبينكِ.

سار بجوار بغلته، وترك اعتماد ونظرها معلق بظهره من دون أن يعاود النظر. كان يقتلها أنه لم يعاود النظر إليها أكثر من تركه لها.

١٧

هل سمعت صوت ارتطام قلب بالأرض من قبل؟

كان هذا ما شعرت به اعتماد وهي تقف أمام بائعة الدجاج، قلبها يسقط أرضًا وتتناثر شظاياه بين التراب ودماء الدجاج والريش. روحها أيضًا تغادرها صعودًا وتتركها بلا لون أو شعور. حدث كل هذا بينما تطلب منها بائعة الدجاج أن تجلس إلى جوارها حتى تنتهي. جلست اعتماد لتستعيد أنفاسها، وتتمكن من تدبير نفسها كما قال. أرادت أن تفكر، أجبرت نفسها على التفكير وهي تشاهد السوق من حولها من دون أن ترى شيئًا، يجب أن تفكر حتى إن كانت بلا قلب أو لون أو شعور.

كيف يستطيع الإنسان استجماع روحه وقلبه وهو بين غرباء في أرض غريبة وبلا متاع أو صاحب أو أهل؟ فتاة في السادسة عشرة، تختبر الحب والضياع والرغبة لأول مرة، كل شيء حولها مرتبك، ثمة شيء واحد ثابت، عندما مر بخيالها ابتسمت. لقد قالت «لا». لقد اختارت أن تكون فتاة حرة وحيدة. عندما صفت السماء من الشمس وتبدل السكون بالضجيج، لملمت بائعة الدجاج أدواتها وأشارت إلى اعتماد لتتبعها. لم تكن تتبعها وحدها لكن وراءهما كانت العديد من الكلاب تسير حولهما بسرعات قريبة، بعضها يشاكس بعضًا وتنبح وأخرى تسير في صمت. دخلت هي والمرأة إلى بيت له جدران من الطوب المغطى بالطين وسقف من سعف النخل، أمرتها أن تجلس، فجلست اعتماد التي ما زالت لم تستجمع نفسها بعد. بدأت المرأة بالحديث:

- هذه قرية وادي نجم، وأنا أم الكلب.

في وقت صعب كهذا كادت اعتماد تضحك. أكملت المرأة:

- ليس لي أبناء لكن لديَّ قبيلة من الكلاب أنا أُمهم.

سألتها اعتماد التي حضر عقلها فجأة:

- والدجاج؟

أجابت المرأة وهي تبدل جلبابها بآخر:

- ليس لي، جارتي العجوز تربي الدجاج وأنا أبيعه فقط.

أومأت اعتماد، ثم بقيت تراقب المرأة التي ترتب البيت وتُعِد الطعام بالتبادل، حتى قالت لها

المرأة بنفس ابتسامتها الساخرة:

- هل أنتِ هنا لتتفرجي عليَّ؟ هيَّا ساعديني.

أخذت اعتماد عدة ثوانٍ حتى تنهض، فكرت فيها في مراحل تنقلها من سبية إلى جارية إلى مَحظية لخادمة. ساعدت المرأة في ترتيب البيت بتكاسل، لكنها لاحظت أن الأفكار تنتظم في رأسها بشكل أفضل وهي تعمل، وبدأت تستعيد عقلها، تفكر في أنها هربت مرة، ورفضت مرة، والآن يمكنها أيضًا أن ترحل، لكن ليس قبل أن تعرف وجهتها. هذه المرأة مرحلة، مثل رئيسة الجواري ومثل البدو، وهذه القرية مرحلة، مثل القصر والصحراء. لطالما تمنت اعتماد أن تعيش حيوات عدة، لكنها لن تدرك أنها حققت أمنيتها إلا بعد سنوات، أما الآن فهي ضائعة ومحبطة، ومن شدة التفكير تشعر بأن عقلها تعطل.

- هل رحل أبو بكر؟

سألت اعتماد أم الكلب بعد أن تناولتا الطعام القليل، اعترفت في نفسها أنها تريد أن تفهم أولًا.

ردت أم الكلب:

- لا أدري، هو دائمًا يرحل ويجيء بلا موعد.

- هل اعتاد أن يأتي بالنساء إليكِ؟

اتسعت عينا أم الكلب، ثم قالت بصوت عالٍ بلهجتها القروية:

- وهل ترين أنني قوَّادة؟

لم تفهم اعتماد معنى كلمة قوَّادة، لكنها فهمت فحواها، قالت:

- فقط أردت أن أفهم لماذا أتى بي أبو بكر إلى هنا.

قالت أم الكلب من دون أن تنظر إليها:

- يبدو أنه وجدكِ ضالة فلم يُرد أن يتركك لكلاب السكك. وعلى سيرة الكلاب هيَّا ساعديني لنطعمها.

المزيد من العمل، المزيد من التفكير، نشر غسيل أم الكلب الذي ما زال قذرًا، طي الفرش «المكمكم»، غسل الأطباق المجروحة، مَلء الدلاء الصدئة، الخروج مع أم الكلب كل صباح، كنس ريش الدجاج، مسح الدماء من على الأرض. يومًا بعد يوم، ثلاثة أيام من العمل نهارًا وليلًا، وفي المساء تنام مثل الدجاج في الأعشاش، بعينين مفتوحتين وخائفتين مما ينتظرها في الصباح. وقد تحقق خوفها حين سمعت الناس في السوق يهمسون بأن هناك جنودًا يبحثون عن جارية هاربة قتلت حارس قصر في قرطبة.

جفت دماؤها في اللحظة التي عرفت فيها أنها مطاردة، وراحت تغطي نصف وجهها بطرحة قديمة منحتها إياها أم الكلب، لكن الغريب أن ألم الحب كان أكبر من الخوف. في اليوم الرابع رأت

أبا بكر، كان يمر في السوق مع بعض الرجال، وتقابلت أعينهما. في هذه المرة بعد أن عبَرها استدار ونظر إليها. انتظرت حتى اختفى، ثم استأذنت أم الكلب لقضاء حاجتها.

جرت في الخلاء إلى بقعة أصبحت فيها وحيدة، سقطت على ركبتيها، ولأول مرة منذ يوم الحفرة تشعر بالدمع يسير تحت جلدها، أو أنه كان يسير منذ زمن، يتجمع في عينيها وينفجر، ينسكب مثل دلاء الماء ويغطي وجنتيها وأنفها وشفتيها وحتى ذقنها وجلبابها، تبكي بصوت عالٍ، تصرخ بالدموع، تستغيث بالبكاء، تمسك رأسها حتى لا يخرج منه المزيد من الدمع، حتى لا ينفجر هو الآخر. تساءلت: أين كانت كل هذه المياه في هذا الجسد الجاف الذي يرفض الطعام والشراب منذ أيام؟ أين كان الحزن مختبئًا؟ لا تعرف كم من الوقت مضى قبل أن تنهض وتمسح وجهها وتنظر إلى الثياب الرثة التي منحتها إياها أم الكلب، ثم تعود إليها بعد أن أصبحت فارغة.

بمجرد أن رأتها أم الكلب لطمتها على وجهها الصغير المستدير وهي تصرخ غاضبة من تأخيرها. تجمعت الدموع من جديد، لكن هذه المرة كرهتها اعتماد، وحاولت أن تبرق بعينيها حتى تمنعها من النزول، من دون فائدة. كانت المرأة أمامها تصيح وتسب لكنها لم تعطِها سمعها، أعطتها شيئًا آخر، دجاجة مذبوحة في وجهها، ألقتها اعتماد من دون تفكير، ووقفت تضحك من بين الدموع على الدماء التي تقطر من وجه أم الكلب والريش الذي تشابك مع خشونة وجهها.

ركضت بسرعتها المعروفة بين قريناتها في مصر قبل أن تصل إليها أم الكلب، حتى بلغت محلًّا بعيدًا خلف بيت مقفر، جلست تحت ظله تلتقط أنفاسها وتمسح الدموع التي لم تجفَّ بعد. مر وقت وهي في مستقرها حتى شعرت بأنها في مأمن عن شرور هذه المرأة، وأنها يجب أن تواجه الآن الشرور الأخرى، وأنها حتى لو رأت أم الكلب تستطيع أن تقاومها من دون أن تهرب. تمشَّت في القرية وبها شيء من الاعتداد والقوة بعد ما حدث، ثم راحت تسأل كل من تقابله عن أبي بكر من دون ذرة خجل. القرية صغيرة، والقدمان تعبتان، والوقت يمر ببطء، لكن كل هذا لم يمنعها أن تجده أخيرًا يقف بين عدة رجال. أحدهم يشير إليها ويقول:

- ها هي ذي.

يقترب منها فيبدأ نثار القلب في التجمع من جديد، ويكتمل الهواء في صدرها في اللحظة التي يقول فيها:

- عدت ولم أجدكِ، كنت أبحث عنكِ.

فترد عليه:

- وكنت أنتظرك.

١٨

أبو بكر مُعذب مما يحدث في وطنه. أمته المسكينة محاطة بالوحوش من كل جانب، والملوك ملهيون في التطاحن والحروب من أجل القوة والسلطان. يتصارعون على حساب الأبرياء المسالمين الذين يعيشون على قوت يومهم، بل إن الواحد من هؤلاء الملوك يريد الانفراد بالسلطة ومحو مُلك الآخرين حتى لو قُتِل البسطاء جرَّاء هذه الاعتداءات، وحتى لو اضطره هذا إلى الاستعانة بملوك الممالك المسيحية ليضمن قوة أكبر في مجابهة بنيه وأهله. حكى لها كم هو حزين لأن أحلامه بتعاون الملوك ليصبحوا تحالفًا أندلسيًّا قويًّا لم تكن إلا محض سراب.

هذا النوع من العذاب يمنح الرجل جاذبية أصيلة. في طريق السفر أخبرها أبو بكر بأنه وجد نفسه جافًّا كالهواء في يوم حار في الصحراء، بل جافًّا كالصحراء نفسها. وبعودتها إليه تفجرت الينابيع من جديد وسقط رذاذ الماء على أرضه القاحلة. أخبرها بأنه يشعر بأن هناك رابطًا وهميًّا يشده إليها، وأنه كلما أرخى شدتْه، وكلما شدَّه أرخت. عادت إلى اعتماد الأشعار والأهازيج، وعادت إلى الأشياء حولها الروائح والأصوات والألوان. استعادتها كلها في لحظة واحدة. وفي الليل البارد حولهما، أمام النار التي هي أقل حرارة من قلبيهما، أخرجت من صرة خبأتها في فتحة صدر جلبابها صحيفة صغيرة مجعدة وأعطته إياها.

لحظة الاعتراف بالكتابة لأول مرة لها قدسية تفوق الاعتراف بالحب، تشبه أكثر الاعتراف بالحبَل، كأن يُقال «لديَّ بذرة في أحشائي»؛ جملة تُقال بخجل وخوف وضياع، لا يُعرف ما يستجد بعدها وما يمكن معاناته، تُقال بتشكك على الرغم من وجود البذرة والشعور بها بين الثنايا، تُقال مع أمل في أن يباركها من يسمعها، لا أن يقول: «كيف حدث هذا؟»، أو «مَن فعلها؟»، لا أن ينظر بتردد أو شفقة. الاعتراف بالكتابة ثقيل ومسبوق بعدم يقين، لذلك يتأخر ولذلك يُنطق على استحياء.

تفاجأ أبو بكر ولم يبدُ عليه إن كانت المفاجأة سارة أم غير ذلك، لكنه قال لها وهو يمسك الورقة:

- النساء في الأندلس بارعات في الشعر.

غام قلبها.

قرأ الأبيات مبتسمًا، ثم طال صمته وانتظرت منه كلمة.

قال:

- إلى من تشيرين بهذا الحب؟

ودت أن ترد عليه بـ: «أشير إليك»، لكنها قالت:

- أنا فقط أتعامل مع الكلمات.

قضيا الليل في نقاش وجدال حول أبيات اعتماد وأسلوبها في الطرح وعلاقته بالواقع، في البُعد الجمالي والإبداعي لرؤيتها، وكان أحيانًا يقارن بينها وبينه، ويستفزها لإلقاء أبيات أخرى من الشعر. ملأها هذا بمزيد من الخوف، إذ إنه ليس هناك ما هو أصعب على الكاتب من أن ينقده حبيبه. لكنها في جزء منها كانت سعيدة لأنها حرة، وحرة لأنها تخلصت من عبء كتمان كتابة الشعر مع أول رجل تحبه، شاعرها وأنيسها. لم يكن هناك وقت للعتاب أو اللغو، الشعر ثم الحب ثم الشعر ثم الحب.

مرت الليالي الطويلة كأنها غروب قصير، ألوانه من الدرجات البرتقالية والأرجوانية تسبح في الفضاء وفي قلبيهما، صوته الشِّعر، ورائحته الشوق والرغبة، حتى وصلا إلى أسوار مدينة قرمونة. هذه المرة عندما استوقفهما الحراس، على الباب الخشبي الضخم المزخرف بالنحاس والفضة للمدينة، لم يقل إنها زوجته مثلما فعل مع البدو، إنما قال:

- نحن من شعراء البلاط.

عندما سألته اعتماد عن معنى «شاعر بلاط»، أخبرها بأنه الشاعر الذي يكتب القصائد في المناسبات ويلقيها في القصور على الملوك.

عقبت اعتماد:

- ويمدح الملوك؟

قال وهو ينظر إليها بشيء من الغضب:

- نعم.

- وظيفته التملق والترفيه عن الأكابر إذن؟

- أنتِ صغيرة وجديدة على هذا المجتمع، لا تعرفين قيمة شعراء الملوك.

الندم الآن يغطي اعتماد ويفيض. تُسائل نفسها: «لماذا بُحت بأنني أكتب الشعر؟».

لم تنتبه لجمال المدينة، والمروج في كل مكان، والجداول تتخلل المتنزهات، والناس يمشون ببطء وغنج بثياب خفيفة فاقعة الألوان ومزركشة بدقة في الطرقات المبلطة بالحجارة. لم تنتبه لخلو المدينة من آثار الحروب والجنود، ولم يأخذها سحر الوصول إلى مكان، لأنها كانت مشغولة جدًّا بصياغة جملة، ومع ذلك لم تستخدم إلا جملته، عندما وقفت عند مفترق طرق يميل فيه إلى اليمين، فاتجهت هي إلى اليسار وهمست إليه:

- هذا فِراقُ بيني وبينك.

١٩

هل كان السبب هو الغضب فقط؟ أم أننا من دون أن نقصد نخبئ ألمنا بعناية حتى نشهره في وجه من آلمنا في الوقت المناسب؟ لم تقصد اعتماد أن تفارق أبا بكر، لكنها وجدت الكلمات حاضرة على لسانها، والشعور حاضرًا في قلبها. لقد اقترب من المنطقة المحظورة، سرها الذي ما باحت به إلا بعد أن استوت مرارة الحب، والآن أمسك هو بضاعتها الغالية وعرضها في شارع رخيص، غير آبه بقلب العصافير في جوفها.

ولما كان الشارع ما زال مهجورًا والدكاكين مغلقة، مشت اعتماد بسرعة من دون أن تلتفت خلفها، قوية ومرعوبة، تخشى أن يجبرها على شيء كما حاول غيره منذ أن وطئت قدماها هذه البلاد، لكنها تستشعر القوة في نفسها، فتسرع. تجولت في الطرقات وهي تغالب دموعها، شعاع نور خطف بصرها للحظة قبل أن يتجمع في خيوط تفر، وتعرف اعتماد جيدًا أن عليها أن تتبعها، حتى وجدت امرأة متلحفة بالسواد تجلس على ظهر بعير وخلفها حزمتان ضخمتان من البصل. أدنت المرأة البيشة التي غطت نصف وجهها، وسألت اعتماد عن وجهتها، وعندما عرفت بضياعها أشارت إليها أن تتبعها.

في البيت الذي أودعتها فيه بائعة البصل قابلت اعتماد أول أسرة في الأندلس، الزوج ورَّاق وله في البيت مخزن من الكتب، والزوجة وجهها صبوح وتتنقل بنشاط طوال اليوم بين الغرف، والأطفال تفوح منهم رائحة الزهور، ولهم أعين ذكية وحركات مضحكة. الأسرة معروفة برعايتها للضائعين حتى يجدوا طريقهم. في بيتهم لم تجد اعتماد قسوة التجار وآثار السوق على تعاملهم معها، رحبت بها الزوجة ودعتها للنوم في جناح خاص بالضيوف، لكنها فضلت أن تنام في مخزن الكتب الصغير على حصيرة خشنة ورطوبة تؤلم الصدر. لقد وجدت بين هذه العائلة الكثير من العطف والدموع والوحشة.

نهارًا كانت تعمل مع بائعة البصل، ربما وجودها مع البصل يبرر الدموع التي تداهمها كل حين. عاشت أيامًا صعبة في التنقل سيرًا بين الحقل والبيت والسوق. تعمل بجد ينسيها ما مضى مؤقتًا، لكنه لا ينسيها ما هو آتٍ أبدًا. تنزل حبات العرق من جبينها لتختلط مع الدموع، وتتسرب القطرات من بين ثدييها إلى بطنها لتختلط مع الرغبة، وهي وحيدة ومقطوعة ومشتاقة. أما في الليل فكانت تنفصل عن العالم وتقرأ، لم تفهم أغلب الكتب، لكنها أحبت «طوق الحمامة»، وشغلها «باب من أحب من نظرة واحدة»، و«باب من أحب بالوصف»، و«باب الإشارة بالعين»، وتألمت من «باب الهجر» و«باب الغدر».

تمر الأيام ويزداد وعيها بكل الموجودات، تبدأ في ملاحظة تفاصيل حياتها الجديدة، وتبدأ المدينة

في كشف أسرارها قليلًا. في بيت أبي جابر وصحبة مرجانة بائعة البصل هي آمنة، لكن ليست تلك هي الحياة التي ترجوها. تتسع رؤيتها مع الوقت وكذلك قلبها، حتى تصل في يوم من الأيام التي تتسكع فيها في سوق الخضار إلى معرفة عشة مريم، وهي عشة تجتمع فيها النساء ليشربن ويتسامرن بعيدًا عن الأعين. كانت اعتماد قد جربت الشرب لكنه لم يرُقْها، أما ما راقها كثيرًا فهو النميمة والأحاديث عن الناس وما يحدث وراء الأبواب المغلقة. في جزء منها تلهيها هذه الحكايات، وفي جزء آخر تتشربها وتجعلها تفهم وترى، بل وتود أن تكتب كل ما تسمعه.

استمرت في تجمعات العشة أيضًا على أمل أن يقودها نثار الكلام إلى شيء قد يساعدها. حدث أن أتت إحداهن بسيرة فرشة البحر، وهي فرشة يبيع فيها التجار المفقودات من الناس في البحر، والتي تكون عادة نتيجة سفينة غرقت أو سطا عليها قُطَّاع الطرق. اضطرب قلبها بعنف من هذه السيرة، وقررت فورًا الذهاب إلى الفرشة. هناك خلف المروج أرض جرداء محدودة تقام على طرفها الفرشة، ويجتمع الناس من شتى المدن ليقلبوا في بضاعة مجهولة. تفحصت اعتماد كل قطعة بأنفاس قلقة وضيقة، غالبها شعور غريب بأنها تعرف كل القطع، أن هذه الزجاجة كانت لأمها، وهذا الخف لأبيها، وهذا الشال لعمتها، وهذا الطبق النحاسي لبيتها، شعرت بانتماء شديد إلى كل القطع، وتمنت أن تضمها جميعًا إلى صدرها وتشتريها، ثم تفرشها على الأرض وتنام بينها، كأنها استعادت جزءًا من حياتها القديمة. ما لم تتوقع أن تراه وتتعرف عليه بالفعل هو مشبك شعر عاجي على شكل فراشة، كان ملكًا لقمر. تذكرته فورًا يمسك بشعرها فيضيء عتمته ببريق خافت، اشترته من البائع وعادت إلى بيت أبي جابر تعقص به شعرها، وقد امتلأ صدرها برائحة بحر الأندلس المخيف ودفء بيوت الفسطاط.

مضت ثلاثة أسابيع قبل أن ترى أبا بكر أمامها في السوق، اقترب منها وهمس إليها:

- أخيرًا!

لم تنتفض من رؤياه هذه المرة، لكنها غرقت في خوف عميق من أن تعود إلى الطريق نفسه، من أن تستمر في الشيء نفسه الذي يدمرها ويفطر قلبها بالألم، إنها تشعر بأنها مسيَّرة بعكس طبيعتها التي تختار. تخيلت هذه اللحظة طويلًا في الأيام الماضية، وأعدَّت عدة ردود قاسية ترد بها عليه، لكنها عوضًا عن ذلك، ربما بسبب حماقة الحب، قالت:

- توحشتك.

جريئة ولا تعرف من أين أتت جرأتها. لكن ما لم يخطر على بالها بين كل تخيلاتها عن لقائهما القادم هو أن يهمس إليها، وهما يسيران بين المروج بينهما مسافة قصيرة، بعد أن تركت مرجانة وذهبت لتتحدث معه:

- سنتزوج.

فكرَت في أنه قال «سنتزوج»، ولم يسأل «تتزوجينني؟». لقد اتخذ قراره ويفترض أنها لن تتردد، أرادت أن تناقشه في الكلمة، على الرغم من أنها خائفة وترتعش من داخلها. هذا الرجل يجذبها ويخيفها، لكنها لن تظهر له إلا الثبات والقوة، لذلك ردت على قراره قائلة:

- سأفكر في الأمر.

- وهل ترفضين؟ ألم تكن رغبتك؟

قالت باسمة:

- بلى، لكنك فاجأتني.

- لا وقت للمفاجأة والتفكير، لقد أضعنا الكثير من الوقت، وتنتظرنا الكثير من الحكايات والأساطير والأشعار، وليالي الحب.

قال المقطع الأخير وهو يلف ذراعه على خصرها. تستطيع أن تفلت منه، لكنها أحبت هذا الشعور حتى وهي ليست متأكدة من استدامته. قالت:

- تريد أن نتزوج هنا في قرمونة؟ هل لديك بيت هنا؟

رد:

- نعم، لديَّ بيت في كل مدينة.

لم تُرِحها الإجابة. تحب الترحال والأماكن الجديدة، لكنها في هذه اللحظة خائفة. قالت:

- وهل تعرف الشيخ الذي يعقد القِران؟

رد ضاحكًا:

- طبعًا أعرفه. شيخ واثنان من الشهود كما أردتِ.

تمتمت:

- نقيم حفلًا!

قال:

- تقصدين مأدبة؟ لا، الإشهار لا يتطلب إلا شاهدين، ولا أريد كثرة كلام من أهل هذه المدينة، فهم لا يجيدون إلا النميمة. ثم إنه سيكون في الحلال كما أردتِ، وسنكون معًا بعيدًا عن أعين البشر، إنها حكايتنا وحدنا.

ذراعه تشتد على خصرها، فتفلت منه هذه المرة. تقول:

- أحتاج إلى يومين. يجب أن أودع أهل البيت الذي سكنت فيه، وأجد من يساعد مرجانة قبل أن أذهب، فقد أحسنت إليَّ. كما يجب أن أقوم باستعدادات أخرى.

قال ببشاشة:

- أعرف. سأنتظرك.

تمشيا حتى وصلا إلى حانة كلها رجال يتحدثون بصوت عالٍ، وبعضهم يلقي الشعر بأداء مبالغ فيه لم ترَه من قبل. أخبرها بأنها ستجده هنا، ولو لم تجده يمكن أن تسأل عنه. هذا إذا لم يأتِها هو

قبل انتهاء اليومين. عادت إلى بيت أبي جابر وهي مرتبكة تفكر في كل المجازفات التي خاضتها والاحتمالات التي تنتظرها. تفكر في العتاب الذي لم يحضر قَطُّ، وفي قسوته ونظرة عينيه العاشقة. تفكر في رحلتها لتجد أهلها والتي لن تتم وهي بمفردها، وفي مكوثها هنا لبيع البصل وقراءة الكتب بينما العالم ينتظرها. حتى خطر لها أن توقف سيل أفكارها العاطفية وتحكِّم عقلها لليلة واحدة. لم تكن لتفكر بهذه الطريقة لولا عشة مريم وقصص الحب والزواج العجيبة التي سمعت عنها.

عشة مريم كانت أول مكان تقصده اعتماد عندما انتصف النهار، سوف تسأل عنه بالاسم، فقد وجدت عدة نساء خلال الأسابيع الماضية يأتين إلى العشة فقط للسؤال عن سمعة رجل يتقدم للزواج، وكانت النساء هناك يأتين بـ«قراره»، وأولاهن مريم صاحبة العشة، والتي لها عدة عيون وآذان في كل مكان في المدينة والمدن المجاورة.

جلست اعتماد في ريح السيدة الأربعينية ذات الشعر المهوش الأحمر والملامح الغليظة المحددة بألوان داكنة، قالت لها اسمه فقط:

- أبو بكر.

نظرت إليها المرأة نظرة متعجبة، تحولت إلى نظرة متفحصة، خجلت اعتماد ومريم تنظر إلى جسدها الصغير المكتنز، حتى قالت مريم أخيرًا:

- صِفي شكله.

- رجل طويل القامة، أسمر البشرة، له عينان واسعتان.

- هل هو شاعر بلاط؟

أومأت اعتماد بنعم، وقد آلمها الاعتراف.

عادت مريم تسأل:

- هل هو من شِلب؟

تمتمت اعتماد:

- نعم.

أراحت المرأة ظهرها العريض على حجر حليبي، وتنهدت حتى ارتفع ثدياها بشكل ملحوظ. أخذت شربة من منقوع العنب في يدها، ثم عادت للتفرس بوجه اعتماد، قبل أن تسألها:

- هل حبلتِ منه؟

شهقت اعتماد وهي تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم قالت:

- لماذا ظننتِ بي هذا؟

قالت مريم وهي تعدل من جلستها:

- لم أظن بكِ بل ظننت به.

شعرت اعتماد كأن قلبها قد فارق صدرها. أكملت مريم حديثها:

- أبو بكر بن عمّار رجل ثائر ومحبوب ولسانه حلو وهيئته ملوكية حتى وهو شحاذ، له عديد من الحكايات مع النساء، يخدعهن بشِعره ومعسول كلامه وأحيانًا بحزنه وغضبه، لقد جلست مكانك الكثير من الفتيات يحكين عنه، منهن من تركها، ومنهن من حبَّلها، ومنهن من أرادت أن أدلها كيف تبقيه. تزوج كثيرًا زيجات استمرت شهورًا وأسابيع وأحيانًا أيامًا، غير من عشقهن من دون زواج. المشكلة في زوجته الأولى المسكينة التي يتركها في شِلب مع طفلين، يزورها كل حين ليمنحها قتاتَ ما يتحصل عليه من مسح المؤخرات في القصور. لكن أقول لكِ شيئًا ما دمتِ على البر: اهربي.

لفت الدنيا باعتماد، وشعرت بألم داهم معدتها، قامت مسرعة لتتقيأ خارج العشة. بقيت دقائق على وضع التقيؤ، عيناها جافتان، ووجهها محتقن بالدماء التي تركت جسدها كله للتجمع فيه. أتت إليها مريم تربّت على ظهرها وكتفيها، وقالت:

- قلبي معك يا ابنتي.

نظرت إليها اعتماد من دون أن تراها حقًّا، وقالت:

- أنا بخير.

٢٠

توقيت غريب لكتابة الشعر. في المساء بعد أن نام أهل البيت وهدأ العالم، أخرجت اعتماد دواتها وريشتها من صرتها الصغيرة التي تبقيها معلقة داخل ثيابها. اعتصرت ألمها قطرة إثر قطرة، ودوَّنت الشعر على ورق ليفي، كانت في مصر تكتب على أوراق البردي الثقيلة التي تنطوي برقة ولا تهترئ بسهولة. أما الآن فكل أوراقها جافة ومهترئة.

لم تنَم إلا بعد أن شقت الشمس السماء، أفرغت روحًا وملأت ورقًا. لكن حتى النهار المُرتبك لم يكتمل إذ سمعت جلبة بالخارج، وصراخًا ممتزجًا بسباب، أيقظتها أم جابر التي كانت تبرطم بصوت مرتفع لاعنة الجنود والملوك والناس جميعًا. سألتها اعتماد:

- هل هذا عراك في الشارع؟

ردت:

- لا، بل إنه عراك بين الملوك الذين لا يرون شوارعنا ولا يعرفوننا، هم فقط مهووسون بأراضينا.

سألت اعتماد وهي تمسك رأسها التعِب:

- ماذا سنفعل الآن؟

ردت الزوجة متنهدة:

- سنبقى في البيت، لا طعام ولا رزق، منهم لله.

اعتماد صغيرة وترى أن معركتها أكبر ونارها أعظم. تركت البيت وتلحفت بعباءتها التي أهدتها إليها أم جابر وخرجت مع الهائجين الغاضبين. اتجهت إلى الحانة التي أشار إليها أبو بكر بالأمس، لكنها وجدته هو نفسه في عرض الطريق قبل أن تبلغه، يقف مع عدة رجال يتصايحون بلكنات لا تعرفها، تفسر منها فقط بعض الكلمات العربية. تلاقت أعينهما فترك رفقته واتجه إليها بوجه شاحب. قال:

- كنت في طريقي إليكِ.

قالت:

- أنا أيضًا.

الضجيج يقترب من خلفها، وصوت صياح رجال جهوري مرعب، أمسكها أبو بكر من يدها يكاد يجرها وهو يهم بالركض، لولا أنها شدت يدها من كفه فصرخ فيها:

- لا وقت لعنادك.

ركضا معًا وهو يسبقها بخطوة لمدة لم تحسبها من خوفها، حتى وصلا إلى مجرى نهر في طرف المدينة يخلو من البشر. سقطت اعتماد على الأرض محاولة استعادة أنفاسها، أما هو فظل واقفًا يعلو صدره وينخفض بينما ينظر إلى النهر. سألته:

- ما الذي يحدث؟

- إنهم جنود بني عبَّاد، دخلوا من أبواب المدينة في أثناء دخول قافلة تجارية تحمل الحبوب.

قاطعته:

- يريدون أن ينهبوا القافلة؟

- بل يريدون أن يجوروا على المدينة ويحتلوها، كل ملك يريد أن يكون تحت إمارته أكبر عدد من المدن.

تجهمت، للحظة نسيت ما عرفته عنه، أو تمنت لو أنه كان كابوسًا بعيدًا. قالت من دون أن تنظر إليه:

- أريد أن أذهب إلى شِلب.

تنهد ثم قال:

- صحيح أنها موطني لكنها لا تصلح للحياة، لحياتنا معًا. إنها أفقر مدن الأندلس، ما زلت أريد أن أريكِ جنان هذه البلاد.

قالت وهي تنهض واقفة:

- لا أريد أن أذهب إلا إلى شِلب. هل تمانع أن أتعرف إلى زوجتك؟

بُهت أبو بكر ولم ينطق. أكملت هي:

- لقد وثقت بك، كنت ضائعة وكنت أنت وجهتي، وحيدة وكنت أنت كل عائلتي، خائفة وكنت أنت سبب أماني، سعيدة وأنت سر سعادتي، كان لديَّ أمل لأنك كنت هنا، لديَّ أحلام لأنك ظهرت في حياتي، لديَّ خطة لأنك موجود، لديَّ يقين لأننا نعود كلما افترقنا، لديَّ قلب لأنك جعلتني أشعر به، لديَّ ظهر لأنك تقف معي، لقد كنت أتكئ عليك.

ثم أمسكت حفنة من تراب الأرض، ألقتها عليه ورأته وهو يتفاداها ويغمض عينيه، بل وسمعته وهو ينعتها بالجنون وهي تتركه وترحل في اتجاه النهر. الدموع تتحجر في عينيها، تسمع صراخه فلا تتوقف، قلبها لا يشعر بالخوف من لَوْعته وأساه.

في الطريق وقفت تتأمل الأرض الخضراء المنبسطة بانسيابية من فوق الجبل لأسفل النهر، وصوت المياه التي تسقط من فوهة في منتصف الجبل، وبياضها الشاهق ولعبها وانطلاقها وهي تغادر الشلال، وكيف أنها تسرق الزرقة من السماء المرسومة بدقة حول دفقات السحاب الشفاف، فتكبر وتنضج وتتحول إلى مياه نهر هادئة رزينة. الجمال حولها يحرضها لتهدأ وتبقى وتصمت لتتشربه كله.

لحق بها وقال مقاطعًا تأملاتها، كأن ما حدث بينهما منذ دقائق لم يحدث:

- يجب أن نغادر الآن قبل أن يصلوا إلينا. بغلتي في حقل قريب من هنا.

- إلى أين؟

- إلى أي مكان نكون فيه معًا.

سألته وهي تنظر إلى الجنة أمامها:

- ألا توحي إليك الطبيعة بأبيات شعر الآن؟

- الحروب والدماء والخوف توحي إليَّ بما هو أكثر.

سألته وهي تنظر إلى عينيه بتحدٍّ:

- والهرب؟

فهم مغزى السؤال فأجابها:

- ليس لديَّ سلاح لأقاوم به، ليس لي إلا أشعاري و... أنتِ.

سألته وهي ما زالت تنظر إلى عينيه:

- وزوجتك؟ وطفلاك؟

تنهد والنظرة الحزينة في عينيه عاد إليها بريقها الجذاب، قال بصوت شجي:

- تعذبوا كثيرًا معي.

قالت وهي تبعد عنه بخطوة:

- كيف أخفيت عني؟

قال بانفعال:

- لأنك في ظرف لا يسمح بأن أخبرك بشيء قد يزيد عذابك.

- أنا لست معذّبة من الأساس.

اقترب منها محاولًا أن يضمها، بعدت خطوتين، وشعرت بأن العالم في هذه اللحظة خالٍ إلا منهما. قال بنبرة حنون:

- كنت خائفًا عليكِ.

- خائفًا أن أتركك؟

اقترب ثانية، دارت حوله، قال:

- ولماذا تتركينني؟

- لأنك زوج وأب وليس لك حق في أ...

قاطعها:

- لي كل الحق في الحب والزواج، وأن تكون لي جارية وملك يمين. أنا لا أقع في الحرام، وهذا هو الشيء الوحيد الذي يجب أن أخشاه.

- لكن الإنسان لا يحب إلا شخصًا واحدًا، كيف تقول إنك تحبني وهناك امرأة غيري.

- ليست امرأة، إنها زوجتي وأحبها، بل إن حبي لها يفوق حبي لكِ.

توقفت عن حركتها في الاقتراب والبعد والدوران، سقطت على ركبتيها تبكي وهي تخبئ وجهها بيديها. جلس أبو بكر بجوارها، وداعب شعرها من تحت طرحتها الخفيفة. همس في أذنها:

- أنا لا أخدعك. هل تريدينني أن أخدعك؟ أنا أحبك، هذه أيضًا حقيقة.

أكمل حديثه وهو يضمها بذراع واحدة إلى جانب صدره:

- يمكن للرجل أن يحب أكثر من امرأة، ويكون معهن جميعًا، هذا فضل عليه من الله وقدرة وهبها إياه.

رفعت رأسها ونظرت إلى عينيه بغير تصديق، دفعته بعيدًا عنها ونهضت. لا تنوي أن تتركه وترحل هذه المرة، لكنها تحتاج إلى أن تكون وحدها ولو لدقائق. كل أفكارها غادرتها، تشعر بأنها تنهار وتريد لهذا الانهيار أن يتم في صمت وخفاء. نهض ولحق بها في سيرها المرتبك. استدارت لتواجهه وهي تقول بانفعال:

- لو كنت حقًّا تحبها ما كنت ظهرت أنا، هناك مشكلة بينك وبينها، هناك نقص ما، خطأ ما. أنا لست فتاة ممن تتزوجهن أيامًا وتتركهن، وليس ما بيننا رغبة فقط، بيننا شيء أكبر وأهم يعيدنا إلى بعضنا كل مرة، يجعلنا نكتمل برفقة بعضنا، يجعلنا لا نستغني عن بعضنا، لا يمكن أن يكون هذا نفس ما تشعر به مع زوجتك. أنت تكذب عليَّ، وأسوأ من هذا أنت تكذب على نفسك. اشرح لي الآن كيف أنك تحبها وسعيد معها وتريد في الوقت نفسه أن تبقى معي وتعاشقني ونرتحل معًا؟! أريد حقًّا أن أفهم، كيف تقول إنك تحبها أكثر مني، وأنت تفكر بي وتبحث عني وتريد أن تضمني وتقبّلني وتصاحبني وتظل معي؟! أريد حقًّا أن أفهم.

بقيا صامتين لثوانٍ من دون أن يتوقف أحدهما عن النظر إلى الآخر. وعلى الرغم من كرهها له في هذه اللحظة فإنها شعرت بفوران في جسدها. اقترب منها وتسمرت في الأرض، قال لها بصوت مرتفع وأداء يشبه إلقاء الشعر:

- حتى لو أحببت مائة امرأة فستبقين أنتِ خاتمة النساء!

في اللحظة التالية ارتفع صوت حوافر أحصنة، اقترب الضجيج وهما ما زالا يقفان في نفس

مكانهما، لكن نظراتهما انقطعت، وكل المشاعر والأفكار طارت بعيدًا. أصبحت الأحصنة الثلاثة أمامهما، وصرخ فيهما جندي يشهر سيفًا في وجهيهما بلغة لم تفهمها اعتماد، لكنها سمعت بوضوح جنديًّا آخر يسأل أبا بكر وهو يشير تجاهها:

- هل هي قريبة لك؟

أبو بكر صامت، والجنود يتشاورون بلهجات مختلفة لم تتبينها اعتماد. كل شيء يحدث بسرعة وبشكل غير مفهوم، وأبو بكر صامت. سمعت جنديًّا يقول:

- يبدو أنها ليست أندلسية.

الآخر يرد:

- هل تكون هي؟

نزل جندي من فوق حصانه ويده على سيفه، سألها:

- هل أنتِ من مصر؟

صمتت. سأل أبا بكر ثانية:

- هل هي قريبتك؟

أبو بكر صامت، تعرف أنه لو نطق لربما أنقذ شيئًا، حتى لو قُتلا في اللحظة نفسها فسوف يكون أنقذ روحها من الهلاك. في الثانية التالية قيَّد الجندي ذراعيها بسرعة، وهي تصرخ وأبو بكر يقترب ويحاول أن يخلصها في محاولة ضعيفة. يدفعه الجندي، ويصرخ فيه:

- لا صالح لك بها، إنها ليست قريبتك.

سأله جندي آخر من فوق حصانه:

- هل هي قريبتك؟ في هذه الحالة سنقتادك معها.

صمت، والجندي الذي يقودها دفعها فوق الحصان وهو يصرخ:

- هذه مجرمة، قتلت حارس قصر في قرطبة، وهربت من بيت سيدها. هذه يجب أن تحاكم أمام جميع الجواري ويقطعوا عنقها.

أغمضت اعتماد عينيها، وطردت روحها من جسدها، تحاول أن تموت الآن.

من قرمونة إلى إشبيلية

٤٥٦ هجريًّا

١

اختلج قلبها في صدرها عندما أبلغتها رئيسة الجواري أنه طلبها، تعطرت وهي ترف في ثوب حريري بلون النرجس الأصفر، تعرف أن هذا اللون يمنحها قوة ما، تستطيع أن تواجه بها ما ستواجهه. مسحت بكفيها على خصلات شعرها التي تنسدل من طرحتها، ثم على جسدها اليانع تحت الثوب الناعم. فردَت صحيفة مطوية تمسك بها، وقرأتها بسرعة قبل أن تخرج من مخدعها الذي خُصص لها منذ عام إلى الآن.

الثريات تتدلى كفاكهة من نور، وصوت الموسيقى يغمر حديقة القصر. الزهور تبزغ من كل ركن وحافة، حتى إن سور القصر لا يكاد يظهر من موجات الأوراق الرقيقة الملونة التي تغطيه. الهواء يلف المدعوين، يهز أطراف ثيابهم الثمينة ويداعب أنوفهم وأعناقهم، تاركًا برودة لطيفة على الأجساد. في حضن البهو المطل على الحديقة يجلس صاحب القصر على سجاد فارسي سميك من درجات اللون البني مستندًا إلى حواشٍ من ريش النعام، وإلى جواره زوجتاه وبناته، وأمامهم جوارٍ قشتاليات يرقصن، وواحدة أندلسية تغني بصوت رخيم يصل إلى عظام من يسمعه. وعلى الجانبين ضيوف جلسوا على حواشٍ من الكتان المصري فوق سجاجيد حريرية ينصتون للغناء وهم يشربون. ينتشر السقاة والخدم حولهم من دون أن يبدو على وجوههم أي تعبير، ربما أحيانًا تقطيبة خفيفة. فبعضهم عربي متدين يرفض الغناء، والبعض الآخر أعجمي لا يستسيغه.

عندما رآها تقترب من بعيد ناداها بحماس صبي، وأشار إلى العازفات والمطربة أن يتوقفن، ثم طلب منها أن تجلس إلى جواره. تزحزحت زوجته الثانية لتفسح لها، بينما ثبتت الأولى في مكانها. ربَّت بيده على كتفها وصاح بصوته الحماسي قائلًا:

- الليلة أقدم لكم شاعرتي المفضلة. سوف تسمعون يا سادة من الشعر أغربه وأعذبه، ولا يغرنكم صغرها، فهي كبيرة الموهبة، ولا يخدعنكم خجلها، فهي جريئة الكلمة حصيفتها، ولا تُؤخذوا من قلقها، فهي لأول مرة تلقي الشعر في محفل، لكنها ألقته عدة مرات في الندوات الشعرية في بيت نائلة حيث أصحبها معي، وألقته عشرات المرات لي لأنني صاحب الحظ.

ضحك الحضور، بينما تململت بناته وبخاصة بلقيس.

صاح أحد الضيوف:

- لكن ما اسمها؟

أجاب صاحب القصر:

- اسمها وصال.

٢

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى ابن الحسن

أكتب لك اليوم الجمعة في الحادي والعشرين من شهر شعبان من مخدعي في قصر الرُّمَيكي. لقد عرفت مكان بيتك الجديد من جمال الدين الخوذي، فقد أخبرني عندما تصادف أن رآك في لبلة، وحمدت الله كثيرًا لأن اختفاءك كان يزيد على همومي همًّا. أرجو أن تكتب لي أنت أيضًا لتطمئنني عليك.

ما زلت ممتنة لك على ما فعلته عندما كان الجنود يقتادونني إلى قرطبة، جعلتني أشعر بأن لي أهلًا في هذه البلدة، وأنني لست وحيدة. لم أتخيل قَطُّ أن يوافق الجنود على عرضك بل خشيت أن يقبضوا عليك. تسلموا النقود بكل وقاحة في مقابل بيعي بثمن أعلى لمالك آخر غير الذي هربت منه. يومها لم أفهم ما مزية أن أكون جارية لرجل بدلًا من آخر، حتى عشت في قصر السيد الرميكي وفهمت، لقد اخترته لي لأنه من أفضل رجال هذه المدينة، مثلك.

صحيح أنه لم يتسنَّ لي أن أسمع القصة منك، لكنني قدرتها على هذا النحو، تبعتنا إلى قرمونة أو أنك كنت هناك لتلقي أحد دروسك. سماعك بواقعة القبض عليَّ من هذا الرجل الذي كان معي، والذي لا أريد أن أذكر اسمه، ثم بحثك عني في الطريق، وتتبعك لأثر الجنود، ثم مصادفة تلاقيك مع ركب السيد الرميكي المتجه من قرطبة إلى إشبيلية، والتي كنت مُحفظًا للقرآن بها، كما عرفت فيما بعد، ثم روايتك له عني، ثم أن وجدتمونا، ثم تقديم عرضك للجنود، ثم موافقتهم، ثم انتقالي إلى ركب السيد الرميكي، ووداعك السريع الذي حرمني من سماع القصة الحقيقية.

أريد أن أقص عليك قبسًا من حياتي هنا منذ هذا الحين، أي منذ عامين وشهرين وثلاثة عشر يومًا. في البداية أريد أن أعترف لك بأنني أكتب الشعر منذ أن كنت في مصر، لكنني لم أخبرك في الأيام القليلة التي التقينا فيها لأنها لم تكن بمعلومة ذات قيمة حينها، أما الآن فأنا ضمن شعراء قصر السيد الرميكي. عندما أخبرته بكتابتي للشعر سعد كثيرًا وطلب أن يسمعني، بعدها أصبح يطلب مني أن ألقي الشعر كل يوم، حتى وأنا أعيد الأبيات نفسها. سعد أيضًا عندما عرف أنني أجيد الكتابة والقراءة وأفهم في العلوم، حتى إنه ضمني إلى بناته في فصول التعليم الصباحية، وأتاح لي حضور الندوات الشعرية التي تقام في قصره وفي القصور الأخرى، وبعد مُضي عام من العيش في قصره بدأ يصطحبني معه إلى الندوات، لا لأستمع لكن لأقرأ من شِعري، أحببت كثيرًا فخره بي، وهو ما لم أشعر به قَطُّ في حياتي السابقة.

لو رأيتني الآن لن تعرفني، لقد شُفيت قدمي من العرج، ربما أصبحت في حال أفضل. حتى اسمي أصبح «وصال» كما سماني السيد الرميكي. لقد أذاع بين الناس أنني أندلسية، لا أحد هنا يعرف أصلي، قال إن هذا يضعني في مصافِّ الجواري الفاضلات. الحياة هنا رغدة، وإشبيلية زاهية، لم تطأها الحروب التي رأيتها في مدن أخرى، ولا يجوبها الجنود الغرباء. البيوت لها قباب ومآذن شديدة الجمال، والربوع كأنها في ربيع دائم. الناس هنا يلقون الشعر كأنهم يتحدثون، وهم مشغولون بشيئين: العلم واللهو، غريب، أليس كذلك؟ لكن مع الوقت ستعتاد هذا المزيج ولو أني أفضِّل لو كان هناك أمر وسط. مليكها يُدعى «المعتضد» وهو رجل ذو شكيمة ونفوذ وقوة، تخشى بقية الممالك الجور على مملكته، لذلك يعم السلام.

كل الأمور عظيمة، وعلى الرغم من هذا فإنه لم يمضِ يوم من دون أن أفكر في أسرتي، أتمنى أن تجمعني بهم مصادفة كما جمعتك بالسيد الرميكي في الطريق إلى قرطبة، حسب حكايتي، وحتى أراهم فأنا أرسل إليهم محبتي وأرسلها إليك أيضًا.

إذا وصلت إليك رسالتي وأردت أن تكتب لي، أخبرني كيف يمكن أن يرسل الإنسان رسالة إلى مصر؟ لم أشأ أن أطرح سؤالي هنا في قصر السيد الرميكي، لأنه يعاملني كأب ولا أريد أن أُولِمه بفكرة حنيني للعودة والعيش بمكان آخر وتركه.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

من اعتماد

٣

الأمر الذي لم تخبره اعتماد لابن الحسن في رسالتها، هو ما تشعر به من تعامل الرميكي معها، أحيانًا يتمثل لها في صورة أب باهتمامه وحنانه، وأحيانًا ترى في عينيه ولَهًا يليق بالعشاق، لم يطلب منها يومًا أن تكون جارية لذة، ومع ذلك تستطيع أن ترى أن له مشاعر جياشة يحملها في صدره، وكانت حائرة بين الإشفاق عليه والخوف من أن يتغير عن صورته كأب.

لكن الأمور لا تسير دائمًا على نحو أفضل.

بعد أن راسلت ابن الحسن بشهر مرِض الرميكي مرضًا طرحه الفراش. توقف كل شيء في القصر عن الدوران إلى أن استعاد بعضًا من صحته، وبدأ يسير على قدميه، لكن بقيت في عينيه

آثار الهزال. عرفَت أن الأمور تغيرت عندما أتى موعد درس القراءة الأسبوعي، الذي يناقش فيه أقارب وأصدقاء الرميكي من الشباب والبنات ما يقرأونه، ووجدت أنها ليست مدعوة إليه، بعد أن كانت تشاركهم فيه منذ عام. تكرر الأمر ومعه تغيرت عادات أخرى، فلم تعد اعتماد تحضر اجتماعات الشعر في القصر ولا عادت تخرج إلى الندوات. بعد أسابيع قليلة أخبرتها رئيسة الجواري بأنها يجب أن تعمل مع جواري الخدمة ابتداءً من اليوم.

واجهت اعتماد الكثير من الصعاب منذ أن حلت على الأندلس، لكن هذه المرة الأمر أصعب لأنها ذاقت حلاوة أن تكون ذات قيمة. لم يهدأ بالها قليلًا إلا عندما طلبها الرميكي في مخدعه يوم أن كانت الأسرة جميعها في عرس بقصر المسرة، يومها أخبرها بأنه استجاب لأوامرهم بشكل مؤقت حتى تهدأ الأمور ثم يعيدها سيرتها، لأن ابنته بلقيس ثارت وغارت ودفعت جميع نسائه، الزوجتين والبنات، إلى إقناعه بأن يجتمعن كأسرة من دون وصال بما أنها غريبة عنهن. لم يخبرها بأنهن قلن إنها ليست على قدرهن حتى تجتمع معهن، وإنه يمكن أن يتخذها جارية لذة إذا أراد أو أن تعود للخدمة. لم يخبرها بأنه أصبح أضعف ويرى ضعفه في أعين نسائه، لم يخبرها لأنه يخشى كثيرًا أن يسبب لها مزيدًا من الألم. أتى تبريره كيدٍ امتدت لتمسِّد قلبها، فامتثلت بدورها للأقدار.

ولأن الرميكي أمر الخدم ألا يقسوا عليها وأن يدَعوها تختار مهامها، فقد اختارت أن تعمل في غسل الثياب، لأن هذا سيمنحها الفرصة لتغادر القصر وتتمشَّى في المنتزهات المجاورة له، حتى تصل إلى الوادي الكبير الذي سمعت عنه كثيرًا من الجواري، وتمنت أن تراه. تعجبها المباني في الأندلس، لكن الطبيعة تسحرها وتلهمها وتغيّب عقلها، وهذا هو ما تحتاج إليه في هذه المرحلة من حياتها. الشيء الذي افتقدته أيضًا بجوار إلقاء الشعر هو يوم المسبح، وهو ما يحدث كل أسبوع عندما تجتمع نساء الرميكي في مسبح واسع لا مثيل لعظمة حجارته ومعماره. مغطس مائي يتصاعد منه البخار بشكل كثيف يكوِّن سحابات عملاقة تتهادى بين النساء. الأجساد شبه العارية تتعرق وتتلون بالحمرة الدافئة. تقوم بعض الجواري بتدليكهن، واستخدام الزيوت العطرية والزبدة للأجساد، والطين للوجوه وكعوب الأقدام. كان طقسًا له رائحة حلوة تعلق بالأنف لليالٍ طويلة.

في عصر هذا اليوم الربيعي خرجَت مع الجواري يقصدن الوادي الكبير، وكلٌّ منهن تحمل «طشتًا» في جوفه العديد من الثياب. كانت معهن لكنها في الحقيقة منفصلة عنهن وشاردة في تأمل الطريق والأحجار والأشجار والطيور والسناجب الصغيرة وبطة شاردة. حتى ظهر الوادي وظهر معه بعض المارة من النساء والرجال والأطفال في ثياب رقيقة، راحت تتأمل وجوههم وإيماءاتهم ونظراتهم. شعرت بأنها على أعتاب فصل جديد من حياتها، وأنها على الرغم من تحدر حالها وعودتها للخدمة بعد أن كانت شبه سيدة، فهي غير مؤهلة للانتماء إلى الطبقة العليا، فإنها تشعر بالطمأنينة والجمال والكلمات الجديدة التي تتشكل في عقلها والمعاني الجديدة التي ترى أنها

ستكتسبها من رحلتها إلى الوادي.

جلست القرفصاء على طرف شاطئ الوادي الصغير الذي يُسمُّونه «الوادي الكبير»، ربما لأنهم لم يروا وادي النيل. لكنها سرعان ما أنزلت قدميها في المياه ودغدغتها برودة الماء وحلاوة موجاته المتلاعبة. ضحكت منها الجواري فملأت كفَّيها بالمياه ونثرتها عليهن، ثم تراشقن جميعًا بها وبددن صمت الوادي بالضحك والحياة، إلى أن نهرتهن مسؤولة من الجواري فعُدن لغسل الثياب. لم تكن عملية رتيبة لاعتماد، عقلها كان يقظًا وأفكارها متدفقة مثل الماء. لمحت ثلاثة رجال يأتون من بعيد، يسيرون بمحاذاة النهر تمامًا، لهم مظهر غير مظهر باقي المارة، ليس في شكل الثياب فقط لكن في الطلة البهية أيضًا، وليس جميعهم لكن أحدهم تحديدًا. ستظل تتذكر هذه اللحظة دائمًا، وستستعيد كل إحساس وصورة ونَفَس. كان يتوسطهم، يبتسم بضحكة غير مكتملة، يسير على مهل وذراعاه المفتولتان تتأرجحان برقة، ذقنه مشذَّب شديد السواد، ووجهه كان يومض في النهار.

٤

نظرت إليه، ونظرت إليه، ونظرت إليه.

كيف لا تنظر إليه وهي واقفة أمام بطل الحكايات التي سمعتها في الطفولة والكتب التي قرأتها في الصبا والأشعار التي مرت على حياتها حتى هذه اللحظة! إن به شيئًا يمنعها من أن تحول بصرها عنه. تركت الثياب والمياه والطبيعة، ووقفت متسمرة في الأرض أمام حضوره الذي صبغ كل شيء. سألتها جارية عما ألمَّ بها، ففتحت فمها محاولة أن تقول شيئًا، لكن لم تخرج كلمة واحدة. نظرت الجارية صوب الرجال الثلاثة الواقفين الآن على مقربة منهن على ضفة الوادي وضحكت، الضحكة أفاقت اعتماد التي رمشت فقط، ثم حاولت العودة لما كانت تفعله.

هناك مهارة لا أحد يتعلمها إنما نولد بها، هي مهارة مراقبة الأشخاص من دون النظر إليهم. نظريًّا اعتماد كانت تغسل الثياب وقدماها في الماء مباعدة بين ساقيها ومشمرة فستانها، لكن هذا الشاب لم يغِب لحظة عن عينيها. وقف دقائق أخرى ثم رحل مع صُحبته، وعيناها تودعانه حتى اختفى. لكن القصة لم تنتهِ هنا. عاود الشاب الظهور على الوادي كل يوم بانتظام، مع الشخصين أنفسهما أو أحدهما، في كل مرة تراه تشعر بالفراشات تحوم حولها، وبأن قلبها يتدلى، والابتسامة ترتسم على كل جزء من جسدها، ويسري بها مزيج غريب من الخدر والنشاط، حتى إنها تريد أن تذهب وتجيء أمامه وحوله إلى الأبد.

ودت كثيرًا أن تقترب منه أكثر، لكنها منعت نفسها عندما لاحظت أن عينيه تلتقطان الحسان، وأنه في مرة رمى كلمة لإحداهن فضحكت. لا تريد أن تكسر صورته في نفسها. حاولت أن تجمع عنه المعلومات، صعب لكنه ليس بمستحيل. وجدت في نفسها الجرأة لتسأل عنه بحجة أنه يعجب صاحبتها، لم يكن يعرفه أحد، حتى وصلت أخيرًا إلى جارية كبيرة في السن.

كانتا تجلسان على مصطبة في قصر أبي شهاب حيث تعمل الجارية، قالت لها بقلق:

- حذارِ.

- لماذا يا خالة؟

- لأنك لن تتحملي عواقب حب مثل هذا الرجل.

عاودتها قصتها مع أبي بكر، فطردت الخاطر بصعوبة.

- أنا أسأل لصديقة.

مصمصت المرأة شفتيها وقالت:

- لا أحد يخوض هذه المخاطرة إلا لنفسه.

استجدتها:

- من هذا الرجل يا خالة؟

اعتدلت في جلستها، وقالت بأسى:

- إنه محمد بن عبَّاد ابن الملك المعتضد.

شهقت اعتماد، وظلت صامتة دقائق. تدور في عقلها صورته في كل المرات التي رأته فيها. ألم يكن يبدو عليه الترف؟ ربما بدا في ثيابه لكنها لم ترَ فيه إلا رجلًا عاديًّا يسير بين الناس ببساطة بلا حراس، ويوزع نظرات السلام وابتسامات التحية من دون أي نزعة ملكية تنبئ عن حقيقة وضعه. سألت نفسها: «هل هذا هو التواضع؟».

- ماذا تعرفين عنه؟

- أعرف أنه يُشبه أباه في الهيئة فقط، القوام المفتول والوجه المضيء ووسامة القسمات. لكنه لاهٍ ومشغول بلذاته من الشرب والشعر والنساء. ليس فيه من شجاعة عائلته شيء.

تركتها اعتماد وهي تفكر فيمن ستسأله عن محمد بن عبَّاد غير هذه المرأة، فقد تعلمت من السنوات القليلة التي عاشتها في الأندلس أن الناس يمكن أن يتحدثوا بالسوء والحسن عن الشخص نفسه، وأن الطريقة الوحيدة لمعرفة حقيقة الأشخاص هي التعامل معهم مباشرة من دون وسيط. لذا عدلت أيضًا عن فكرة أن تسأل عنه ثانية، قررت أن تتحدث معه مباشرة، لكن كيف؟ إن جُل ما تملكه هو أن تنظر إليه وتهيم في هذه الطلة.

الحب الثاني لا يشبه الحب الأول، والأخير لا يشبههما، مع كل تجربة يعود القلب بريئًا كأنه لم

يعرف الحب من قبل، لكن شيئًا في سلوك المحب يتغير، يصبح أكثر مرونة كوتر تداعبه الأصابع أخيرًا بعد ليالٍ من الهجر والوحدة، وأكثر صلابة كساق خضراء تشتد كلما ارتوت.

في المرة التالية التي رأته فيها اقتربت، مشت الهُوَينى حتى جلست أمامه، ظَهرها إليه ووجهها إلى ضفة الوادي كأنها تغسل الثياب، لكنها حقيقة كانت قد انتهت من مهامها بسرعة وتتظاهر فقط بأنها مستمرة بالعمل. سمعت صوته وهو يُحدث رفيقه فتسارعت نبضاتها والفراشات دارت حولها، وقلبها تدلى، والنسيم تواطأ مع جوارحها المشدوهة وأطار ما تبقى من صبرها... إلى أن سمعته يقول بوضوح:

- أجز: «صَنَعَ الرّيحُ منَ الماءِ زَرَد».

استقامت فجأة والكلام يسكن عقلها ببطء، استدارت فرأت ظهره إليها، مرت بجواره وقررت أن تقول أي شيء، يجب أن تتحدث، يجب أن تخرج الكلمات، تخرج في شكل شعر، يجب أن يكون جميلًا، يجب أن يعجبه بل يدهشه، رأسها فارغ ومزدحم. أغمضت عينيها لثانية وزفرت لتطرد القلق، ثم شهقت لتسترد روح الشاعرة:

- «أيُّ درعٍ لقتالٍ لو جَمَد».

خرج صوتها كأنه صوت كائن يشبه العصفور، لم يكن صوتها.

التفت إليها.

رأت العالم كله يدور ويلتفت، كادت تشهق من بهائه، لكنها في ثانية تذكرت أباها وهو يقول لها ألا تخاف الجنود والملوك، إنهم جميعًا بشر، يأكلون ويتغوطون ويتعرَّون ليستحموا بالماء، وسيقفون جميعًا سواء أمام الخالق. بادلته النظرة بابتسامة خجلة وهي تنظر بعيدًا. تنظر إلى دنيا جديدة، إلى أشعار تتطلع إلى أن تكتبها ومشاعر تتمنى أن تفرج عنها وتغطي بها الكون.

قال لها:

- من أنتِ؟

٥

أنا اعتماد بنت عبد اللـه بائع الجبن الذي له قلب محارب وعزة نفس ملك، وفاطمة التي تساعده على عمله، وروحها من براح السماء وهشاشة السحابات التي تسبح بها. ابنة العائلة التي هربت بحثًا عن الحياة فضاعوا، وتفرقت حياتهم إلى حيوات مبعثرة. أنا ابنة الفقد والضياع والشعر، فتاة لا تثق بالناس ولا الزمن ولا المشاعر، خيالية لكنها ما زالت تستطيع أن تحلم بأرض تقف عليها

بكل ضياعها فتعمرها وتزرعها وتحكمها.

- اعتماد.

قال:

- من بيت من يا اعتماد؟

أسكن في شارع برقوق بحي المغربلين في الفسطاط بمصر المحروسة، في قلبي الدفء وعلى جبيني الشمس. أعيش الآن بين كل هذا الجمال الساذج الذي لا يشبه جنة حيي ومدينتي. أسكن في قصر لا يمنحني إلا الصقيع، وبلاد لا تمنحني إلا الخوف، كيف نستطيع أن نرى الجمال ونحن خائفون؟

- من بيت الرُّمَيكي.

قال:

- هل لكِ بعل؟

أنا سيدة حرة ووحيدة، أقرأ وأكتب وأعرف عن علوم الكواكب ووصفات الطب وتاريخ العالم القديم. أنا لا أغني ولا أرقص ولا أجيد أعمال البيت، لكنني سريعة الخُطى، أركض فأسبق الطيور والهررة والصبيان. في سؤالك القادم ستعرف أنني جارية، أرجوك لا تصدقني.

هزت رأسها بالنفي، فنظر إليها بتفرس وبادلته النظرة ثم رحلت. لا مزيد من الأسئلة.

٦

بعد ثوانٍ عدة استدارت بعفوية لتقتنص منه نظرة أخيرة، وربما لتتأكد أنه لم يكن أحد أحلام اليقظة التي تداهمها باستمرار. رأته يتحدث إلى الجواري اللاتي يقُمن بدور الحراسة، خفق قلبها من مجرد تخيل ما قد يقوله. أسرعت الخُطى إلى ربوة على الطريق، لفت حولها حتى وجدت مكانًا غير مكشوف للمارة، وجلست على الأرض في ظل شحيح لنخلة تفكر في كل الاحتمالات. ينتابها شعور بأن شيئًا جيدًا سيحدث، وحتى لو لم يحدث، اللحظة التي التقت فيها أعينهما كانت تساوي في نظرها كل الأمور الجيدة.

التقطت أنفاسها وجمعت شتات نفسها، ثم عادت إلى الطريق عندما سمعت خطوات الجواري العائدات لتلحق بهن. أمضت ليلتها محملِقة إلى السقف، لا تتحدث ولا ترد. مشاعرها تجيش في صدرها وقد هجرها الكلام والشعر، امتلأ رأسها بأسئلة عديدة تبتدئ كلها بـ: «ماذا لو؟». إنها

ليست غارقة في حبه، بل أحيانًا تشعر كأنها فقدت إيمانها المطلق بالحب، لكنها منجذبة إليه. ليس كانجذابها المؤقت لبعض الشعراء الذين صادفتهم في ندوات الشعر ثم نسيت أسماءهم بعد أحاديث قليلة. الانجذاب الذي ينطفئ بسرعة ولا يترك رمادًا خلفه. إنها مثل دوار الشمس، تلف وتدور لتبحث عنه وتنظر إليه. عندما التقت سهام أعينهما شعرت بأنها منحته شيئًا ما، شيئًا أضاف إليها هي.

لكن هل شعر هو بهذا الشيء؟

تراكمت الأسئلة في قلبها حتى غفت مضطرة عندما غطتها الأسئلة تمامًا. في صباح اليوم التالي استيقظت على زغاريد بجناح الجواري. على باب مخدعها تتعالى الصيحات، صيحات الفرحة الصادقة المختلطة بالزائفة. سمعت من بين لغط الكلمات لفظة أمير فانتفضت، انتصبت واقفة وهُرعت إلى الباب وفتحته، فإذا بهن يتساقطن من ورائه في ضحك وغنج. صرخت فيهن راغبة في جملة مفيدة، دقات قلبها أعلى من كل هذا الضجيج المحيط بها الآن. حتى قالت إحداهن أخيرًا:

- الأمير سأل عنك إيثار.

وضعت يدها على صدرها كأنها تمسك قلبها قبل أن يقفز. أكملت الجارية:

- يريد أن يخطبك لوزيره.

ثم تعالت الهمهمات: «يا لحظك يا وصال! وزير الأمير مرة واحدة!»، «ستنتقلين للعيش بالقصر يا فتاة!»، «سترافقين الأميرات والملكات!»، «سينعم عيشك!»، «سترغد حياتك!»، «يقولون إنه شاعر أيضًا!»، «سمعنا أنه صعب المعشر لكنه قوي البناء والتركيب وله أثر في كل فراش وطئه!»، «كيف لفتِّه يا وصال؟».

«صحيح كيف؟»، تساءلت اعتماد في نفسها، وعاد قلبها يغوص في صدرها.

تركتهن في تساؤلاتهن، وهرعت خارج جناح الجواري بحجة أنها تريد الذهاب إلى بيت الخلاء المخصص لهن بجوار القصر. لكنها لم تقصد بيت الخلاء، وبدلًا من ذلك تسللت إلى الحديقة حتى وصلت إلى شجرة التين الكبيرة وجلست خلفها، لا تستطيع أن تفكر لكنها تريد فقط أن تبقى وحدها. البقاء وحيدة مع الحزن هو الأسلم والأجمل دائمًا في التعامل معه، لا أحد يرى وجهها المتغضن، لا أحد يرى الدموع الصغيرة التي تتولد على مقلتيها، لا أحد يحدق إلى الأسى الذي يكسو ملامحها. الحزن هنا مُضعف، حزن على رجل عاشت أيامًا قليلة حلم أن تكون معه، وحزن على الحقيقة التي تنساها دائمًا أنها جارية مملوكة، وحزن على الحزن لأن لا شيء يستحق، الأخير كان الأكبر.

رسمت دوائر على الأرض الترابية التي أحاطت الشجرة، دائرة عائلتها، دائرة الحب ودائرة المصلحة، الحب كبير، والعائلة بعيدة، المصلحة ابتلعت كل شيء. ستتزوجه.

لكن بمجرد أن وصلت إلى القصر واستأنفت مع الخدم مهامها في تنظيف المطبخ وإعداد مائدة

الإفطار ثم لمها، كانت قد عدلت عن قرارها. لن تمد جذورها في هذه الأرض، يجب أن تظل وحيدة وخفيفة ومستعدة حتى تأتي لحظة الرحيل. الزواج سيجعلها امرأة مرتاحة وغبية، وهي تحتاج إلى كل مهاراتها وذكائها لتهرب في الوقت المناسب.

مرت أيام قليلة، وفي مساء إحدى الليالي، استدعاها الرميكي وقد ترك فراش المرض وبدأ يستعيد مجلسه في جناح الكتب، حيث كانت لهما أوقات طويلة من الحكي والقراءة والمناقشات. هيئة الكتب المرصوصة من الأرض حتى السقف على كل الجدران، كانت تبث فيها الأمان كأنها عادت إلى وطنها، تشعر كأنها هنا فقط قوية وأمامها عمر من الأحلام، وأنها لن تحتاج إلى أحد أو شيء، هنا فقط يمكن أن تعيش إلى الأبد. دخلت عليه مطأطئة الرأس في ثوب الخادمة، رحب بها بنوع من التحفظ، وكان الحزن الشفيف باديًا على قسماته. طلب منها أن تجلس أمامه كعهدهما القديم، جلست وعيناها إلى الأرض تردد بداخلها كلمة واحدة وتنتظر الوقت المناسب لتنطقها: «موافقة».

أنت لا تعرف الشعور الأهوج بأن يعجبك شخص ما إلى حد أن توافق على أن تكون مع غيره فقط لتبقى قريبًا منه. إنها تريد أن تبقى بجوار محمد بن عبَّاد، حتى لو كانت رؤياه ستكون مجرد لمحة لخياله من بعيد، حتى لو كان وجوده مجرد نفَس دافئ ينتقل في القصر من صدره إلى صدرها. إنها تريد هذا القرب حتى لو كان ثمنه مشاطرة رجل غريب الحياة. إنها ذكية لكنها تقريبًا تحب.

قال بصوته الرخيم الذي أضعفه المرض قليلًا:

- وصال!

أومأت وقد رفعت بصرها إليه.

- أتعرفين من أرسل إليَّ اليوم يطلبك للزواج؟

خفضت بصرها كأنها تنتظر لحظة النطق بالحكم، الحكم الذي سينفيها إلى الأبد، لكنها ستختار هذا النفي بإرادتها.

قال بصوت أضعف تغلفه دموع غير مرئية:

- إنه الأمير محمد بن عبَّاد.

٧

هل هي الغيرة أم أنها المحبة؟

جنان، الجارية رفيقتها التي تعمل بالمطبخ، والتي تطهو أشهى أنواع اللحوم بالأعشاب والتوابل والبطاطا والبرقوق المجفف والتمر المطحون، تخبرها سرًّا بأن الأمير محمد بن عبَّاد معروف عنه ولعه بالنساء، وأنها بآرائها التي تعرفها قد لا تتحمل أن تكون واحدة ضمن مئات الحريم، وأنه ربما يملها بعد حين ويعيدها جارية.

- ألم تسمعي عنه من قبل يا وصال؟ يقال إنه يغازل الجواري والحرائر وكل مؤنثة على الأرض، وله في كل مدينة محظية.

- من الذي يقول؟

- حنة وسماء وجورية... اسأليهن.

- واحدة منهن أخبرتكن جميعًا، فأصبحتن عدة مصادر وليس مصدرًا واحدًا.

- لم تشأ أيٌّ منهن أن تحدثكِ بالأمر، لكن ربما لأنني أعرفكِ أكثر منهن، اعتبريه مجرد تنبيه.

في الظاهر تجاهلت اعتماد كلام جنان، وواصلت التفكير في حياتها المقبلة، لكن بداخلها كانت خائفة مما هي مقبلة عليه، ليس فقط الخوف من المجهول، لكن أيضًا الخوف من الحب. إنها تخشى الحب بسبب تجربتها الأولى، ولأنها لم تجرب الشعور بأن تكون ضمن سلسلة من النساء، ولا تريد أن تختبره. لم يكن بشيء منتشر في حيها القديم في مصر، الذي كان كل عالمها، ولم تعتَده عندما عرفته هنا في الأندلس. لا تستطيع تخيُّل نفسها مع رجل له الحق في أن ينام كل يوم مع امرأة أو أكثر، لا تتخيل كيف ستقبله وترحب به في حضنها مجبرة، لا تستطيع تخيُّل أن تقترب هذا القرب من إنسان عاشَر امرأة قبلها، وسيعاشر أخرى بعدها. إن هذا يتنافى كليًّا مع أفكارها عن الحب.

مرت أيام تسمع فيها الشكر والذم فيه كأنها في دوامة، الشكر يجعلها تشعر بالرضا، لأن مهمتها في أن تجعله يحبها الحبَّ الذي يسمح لها بالبحث عن أهلها وبالاستمرار في كتابة الشعر ستصبح أسهل، أما الذم فيثقل قلبها لكنه يزيدها إصرارًا. «هذا الرجل يجب أن يحبني حبًّا لا يجعله يلتفت إلا تجاهي ولا يقع إلا في غرامي». قررت في سريرتها بنزق الصبا ولوعته، لكنها في جزء داخلي منها لا تحب الاعتراف به، كانت تخشى أن تقع هي أولًا.

أذيع في القصر أن موكبًا من طرف الأمير سيحل بنهاية الأسبوع ليُقِلها إلى قصر الملك المعتضد، وسمعت بعدها في همس الأحاديث التي كانت الجواري ينقلنها إليها بالحرف والنفس، أن الرميكي رفض هذه الزيارة، وطلب مزيدًا من الوقت. في هذه الفترة من حياتها كانت اعتماد سعيدة سعادة العاجز، لا تستطيع أن تفعل شيئًا أو تتخذ قرارًا أو حتى تحدد ألوان ثيابها، كل شيء يُعَد لها من دون أن تدري، وربما لا شيء يُعَد. هناك أمير وقصر وعائلة لا تعرف عنهم شيئًا، وهناك مسالك جديدة وطرق وأساليب تجهلها جميعًا. الشيء الوحيد الذي تعرفه وأكيدة منه هو أنها ذاهبة إلى الحب.

حدثت نفسها: «لكن من يضمن أنه سيحبك يا اعتماد؟ ما معنى الحب أصلًا؟».

تشتري لها رئيسة الجواري إيثار الثياب الثمينة من الحرير الخام والأثواب المطرزة الثقيلة

وقمصان النوم الشفافة بألوان فاقعة وأخرى بألوان هادئة، وهي حائرة بين كل هذه الأشياء، لا تعرف إن كانت حقًّا ستستخدمها أم أنها تفضِّل أن تشتري ثيابًا جديدة عندما تغادر القصر على ذوقها الخاص، وليس ذوق رئيسة الجواري. أرسلت في طلب إلى الرميكي، تريد أن تخرج في تمشية بالمروج التي تحد القصر، فوافق، على أن تكون مع إحدى الجواري، إلا أنها رفضت، وأرسلت تعيد طلبها مشترطة أن تكون وحدها، وعللت ذلك بقولها: «ما زلت جارية، ولا أحتاج إلى أحد يحرسني!».

بثوب أزرق بسيط ليس له كُمَّان قصت ذيله سلفًا لأنها منذ حادثة هروبها من قصر السيد ابن كُليب، كرهت كل الأثواب ذات الذيول التي تحد الحركة. تنسدل على كتفيها طرحة رأسها الشفافة الذهبية، وتميل مع شعرها مع نسمات الهواء الربيعية اللطيفة. تمشَّت في المروج قليلًا، وفي رأسها ألف تساؤل تحاول أن ترتبها من دون جدوى. خلعت مركوبها الأبيض من قدميها، ومشت على العشب الندي. تسللت إلى روحها سعادة تزورها كل حين عندما تطل عليها ريح مصر. أغمضت حين عرفت أشعة الشمس طريقها من بين أوراق الشجر ووصلت إلى عينيها مباشرة، مستمتعة بشعور الطين من تحت قدميها وبوجهها المضاء الآن بالنور الهارب. سمعت حشرجة أوراق شجر تتكسر أو ربما ترقص أو تتكلم، فتحت عينيها فوجدته أمامها؛ الأمير محمد بن عبَّاد.

٨

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

إلى ابن الحسن

وصلت إليَّ رسالتك، وسعدت سعادة لا يمكن للقلم أن يصفها، ولا للحبر أن ينقلها، ولا للرق أن يحملها.

أنا خائفة!

لست متأكدة إن كان قد وصل إليك الخبر، لكنني سأتزوج الأمير محمد بن عبَّاد ابن ملك إشبيلية ووالي مدينة شِلب مع بداية الخريف، كما تعرف من خطابي السابق القصير أنه طلبني للزواج من الرميكي، لكن ما لا تعرفه أن الأمر تأجل شهرين. كنت أظن حسب الشائعات أن السيد الرميكي هو من أمر بتأجيله، لكنني فهمت فيما بعد سبب التأجيل، والذي كان من ناحية الأمير محمد وبطلبه ورغبته.

كنت أتمشَّى في المروج وحدي أحاول أن أنظم أفكاري، لا لكتابة الشعر كما قد تظن، فقد توقفت عن كتابته منذ أن رأيت محمدًا، ولا أعرف السبب حتى الآن، لكنني أظن أنني سعيدة ومشغولة ومحاطة بالبشر، وأن الشعر يحتاج إلى الصفاء والحزن والوحدة. في البرية رأيته أمامي، كانت مفاجأة عظيمة، لا يمكن للقلم أن يصفها، ولا للحبر أن ينقلها ولا...

أخبرني بأنه أرسل أحد حراسه لمراقبة القصر في انتظار أن أخرج لأي سبب، وأوصاه أن يبلغه وهو في مكان أُعد له عند شاطئ الوادي الكبير، حتى يأتي ويلقاني، أخبرني أيضًا بأنه هو من طلب تأجيل الزواج إلى ما بعد شهرين لأنه أراد أن يعرفني. قد يبدو أمرًا صبيانيًّا غير متعارف عليه، وبالتأكيد هو لا يليق بأمير، ولم أعرفه في مصر ولا الأندلس، لكنني تمنيته وأردته كثيرًا، وكنت خائفة أن أتزوج رجلًا لا أعرفه، لأن أغلب من رأيت قصص حبهم منذ أتيت إلى الأندلس لم يتزوجوا، وانتهوا نهايات مريعة. الشباب هنا في عزوف عن الزواج، وأغلب من تزوجوا حولي لم يروا بعضهم قبل الزواج إلا مرات معدودة. لذلك أنا خائفة.

لكنه في هذا اللقاء الذي سأعده الأول، كانت له أفعال طمأنتني وكلمات زجت بي إلى الوثوق. في البداية استأذنني، هل سمعت عن أمير يستأذن فتاة، ولن أقول جارية، ليتحدث إليها؟ ثم إنه كان مبتسمًا وظل مبتسمًا حتى نهاية اللقاء، كأن هذا الوجه المنحوت بالأصالة لا يعرف إلا أن يمنح السعادة. الأمر الثاني أنه لم يسألني عن الشِّعر، وهذا أيضًا كان يشغلني، كنت أسأل نفسي، هل يريدني زوجة لألقي عليه الأشعار؟ ثم إنني عرفت أنه هو نفسه شاعر، وهو لم يعرف عني إلا البيت الذي أكملت به بيته. لكنه في هذا اليوم أدحض أفكاري التي دارت حول الشعر، تجاهله تمامًا، وعندما أشرت إليه قال: «أنا هنا من أجل شيء آخر». تبادلنا أحاديث عن حيواتنا، أو الحقيقة أنني تحدثت أغلب الوقت عن نفسي، أخبرته بأشياء مهمة وأشياء تافهة جدًّا، أخبرته مثلًا عن حبي للحلوى الحامضة، وأنني منذ أن أتيت إلى الأندلس لم أجد منها إلا المسكَّر.

الأمر الثالث ولن أقول الأخير، لأنني كلما عدت إلى هذه الساعات تذكرت أمرًا جديدًا. في جلستنا على العشب الندي، وراء شجرة البرتقال التي لن أنساها بعد اليوم، حيث لا يتناهى إلى سمعنا إلا أغاريد الطيور، سألني عما إذا كان اعتماد اسمي الحقيقي، قال إنه لم يسمع به من قبل، وإنه يذكّره بمُهرة أصيلة بيضاء تأكل من المراعي وتركض من دون قيد. كان لطيفًا في وصفه ونظرة عينيه. قلبي يرتجف الآن وأنا أكتب هذه السطور. هذا الرجل غريب. عندما أعود إلى أشعاري القديمة أشعر كأنني كتبتها من أجله، من أجل أن يقرأها، حتى تلك التي كنت قد كتبتها لهذا الذي لا أريد أن أذكر اسمه، لم أجد له أثرًا بها، كأنها بُعثت من جديد ليقرأها محمد، ويعرف أنني كتبتها له قبل أن ألتقيه، ليس لأنني كنت أعرف، لكن لأن الكلمات الحقيقية تولد من أجل إنسان حقيقي.

لماذا هو حقيقي؟ لا أدري، لكن قلبي يحدثني بذلك. وقلبي أحمق كما تعرف، فأنا لست متأكدة من أي شيء.

ما حدث يا ابن الحسن العزيز؛ هو أنه بعد عدة أيام لم أغادر فيها القصر استدعاني الرميكي، وأخبرني بأن رسول الأمير أحضر لي صحيفة كبيرة من الحلوى الحامضة، وورقًا من الشعر، كل بيت فيه يبدأ بحرف من حروف اسمي:

أغَائِبَة الشَّخْصِ عن نَاظِرِي

وحَاضِرة في صَمِيمِ الفُؤَادِ

عَلَيكِ السَّلامُ بقَدرِ الشُّجُونِ

ودَمْعِ الشُّؤونِ وقَدرِ السُّهَادِ

تَمَلَّكتِ مِني صَعْبَ المَرَامِ

وصَادَفتِ وُدِّيَ سَهلَ القِيَادِ

مُرَاديَ أُعْطِيكِ في كُلِّ حِينٍ

فَيَا لَيتَ أنِّي أُعطَى مُرَادي

أقِيمِي على العَهدِ ما بَيْنَنا

ولا تَستَحِيلِي لِطُولِ البِعَادِ

دَسَستُ اسمَكِ الحُلوَ في طَيِّ شِعْرِي

وألَّفْتُ فِيهِ حُروفَ «اعتِمَادِ»

٩

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

إلى ابن الحسن

أريد أن آخذ نفَسًا عميقًا وأزفره وأزفر معه كل حب عرفته قبل الآن، أريد أن أمحو ما أذكره عن الحب والماضي الذي تلوث به. لا أريد أي أثر منه في جسدي، لا أريد الألم والخوف والعذاب والاشتياق وعدم الشعور بالأمان، لا أريد غبائي وحماقتي وتهوري، لا أريد رعشة الشوق ورجفة الحزن والدموع الداخلية التي لم تجفَّ بعد، لا أريد أخطائي ولا ذنوبي ولا حتى توبتي. أريد أن أعود بقلب جديد يجرب هذا الشعور لأول مرة، وأعِد قلبي الذي أقدسه بأنني لن أخذله ثانية، ولن أكون ضحية وأستسلم للجوع العاطفي وللرعب من الوحدة. سوف أواجه الحب مثلما واجهت الضياع والتشرد والقسوة، بالمثابرة والصبر والرفض وقتما أشاء والإقبال متى أرضى، لن أكون غضة طرية ولا صلبة عنيدة، ومع ذلك سأبقى أنا.

أقول لك هذا الكلام لأنك الوحيد الذي يعرف ما مررت به. لكن القادم سيغير أقداري أكثر مما تغيرت، للأفضل كما أظن وأتمنى. مر شهر الآن تقابلنا فيه يومًا بعد يوم، نتحدث عن كل شيء. حديثنا كله أسئلة صغيرة وإجابات طويلة، لاحظت أنه متحفظ قليلًا في الحديث عن أهله أو عن الأندلس، إنما يحدثني عن نفسه بأريحية أكبر، وعلى الرغم من أنني لم أبدِ تحفظي، فإنه لم يسألني قَطُّ عن حياتي الصعبة كمشردة وجارية.

كل شيء في هذا الرجل نبيل؛ وقفته، مشيته، ضحكته، نظرته، حتى التفاتته البسيطة. ومع ذلك تخيفني نبرة عدم مبالاة في حديثه القليل، ويرعبني ما عرفته عن أبيه. يقولون إنه رجل بطاش ظالم، يحصد أرواح الناس كما يحصد الفلاحون الفاكهة، يعرف ما يحدث في كل بيت، بل وفي كل نفس. لكن هل ينصفني هذا الرجل الذي سأتزوجه إذا احتجت إليه؟ لا أعرف، لكنني ذاهبة ومعي هذه المرة خطة، بل خطط عديدة. إن السبب الأول والأهم من الحب في إقبالي على هذه الزيجة هو أن أستطيع الوصول إلى أهلي. لا أستطيع منع نفسي من كره الأندلس، لكني إذا وجدت أهلي ربما ستكون هذه هي الضمادة التي تداوي جرحي الكبير من هذا البلد.

وقد اتفقت مع محمد، قلت له: «لديَّ شرط في الزواج بك»، وعندما سألني متعجبًا من كلامي، قلت: «أن تجد لي أهلي». وافق على الفور، حتى إنني طلبت منه أن يعدني ووعدني.

عُرسي يوم الخميس المقبل، أول خميس بعد العيد. طلبني الرميكي، وعندما جلست قبالته كعادتنا القديمة دمعت عيناه وهو يبلغني بموعد العُرس، الذي كنت أعرفه سابقًا من جلسات الحديقة، لكنني تظاهرت بأنني أعرف لأول مرة. أبلغني أنه رفض أن أذهب إلى قصر الملك المعتضد من دون أن يجهزني، وأنه أحضر لي عدة صناديق وملأها

بالثياب والأقمشة والعطور والحلي، كما أنه أعد لي ليلة دعا إليها كل وجهاء إشبيلية وشعرائها، لكني أظن أن وعده الأخير لن يتم، لن تسمح له نساؤه وأنا أيضًا لا أهتم. ما يهمني حقًّا هو أن أذهب إلى الحب والأمل، أن استمر في الهروب حتى إذا كان البقاء هروبًا في هذه المرة.

نسيت أن أخبرك بأنه من اللحظة التي طلبني فيها الأمير محمد للزواج أصبحت محط الإعجاب ومنتهى الأمل عند الجواري، كأنني حققت لهن أحلامهن، أو بمعنى أدق: جعلتهن يصدقن في الأحلام. ومن يومها وهن يتمسحن فيَّ كأنهن ينشدن البركة، لقد أشعلت بهن شيئًا أتمنى ألا ينطفئ.

على الرغم من شعوري في بعض الأحيان بأنني لا أريد أن أتزوج هذا الرجل، لأنني لا أعرف تاريخه، لا أعرف الأشخاص الذين أثروا فيه ومن آذوه في طفولته، ولا أعرف مواقفه من الحياة والناس، ولا أعرف شيئًا عن دينه أو ميوله أو غضبه. لا أعرف إلا كلماته التي قالها ببطء وتفكير وحذر، وأشعاره التي منحني بعضها الذي انتقاه. لا أعرف كيف يحزن ويفرح، وما يريده لنفسه. الغريب أنني مدركة أن الحب هو أن أقبل عليه من دون التفكير في كل ما سبق، فهل لم أحبه، أم أنني أخشى كلام الجواري عنه؟ أو ربما لأنه كذب وقال إن أهله يرحبون بي وقصر الرميكي كله يتحدث عن رفض الملك لي وما سأواجهه في أيامي هناك؟

تمنَّ لي الخير في حياتي الجديدة، لأنني خائفة، ولا أحب القصور ولا الملوك ولا الأندلس.

١٠

في يوم أصفر شمسه بيضاء لاحت أسوار قصر الملك المعتضد من بعيد، تظللها الأشجار الكثيفة متهدلة الأغصان التي تطبع على الصورة كآبة وعجزًا. من جهة الشرق تمتد مروج برتقالية قاحلة، ومن جهة الغرب يمر نهر وحيد ضيق حوله زرع متآكل ورياض مهملة. في السماء تكاثفت الغيوم معلنة عن رغبتها في الصراخ والبكاء، لكنها انتظرت قليلًا احترامًا للعروس التي تخطو بداخل القصر لأول مرة.

تهمس إليها حنة التي ترافقها من بيت الرميكي:

- الحروب شوَّهت المكان.

ينقبض قلب اعتماد، كل شيء حولها تسقطه كمجاز يشبه حياتها، النهر والوحدة، الغيوم والحزن، الأراضي القاحلة وجسدها، الأغصان المتهدلة وأمانيها. انفتح الباب الضخم قبل وصول موكبها بدقيقة، وبمجرد أن عبرته ونزلت من العربة رأت المشهد الذي لن تنساه لبقية حياتها؛ أعمدة خشبية منصوبة في الجهة اليمنى، وعلى قمة كل عمود رأس آدمي، أول رأس وقعت عيناها عليه كان حديثًا، عيناه بيضاوان، وفمه مفتوح تظهر منه أسنان باهتة بينها تلمع سن من الذهب، وبعض الرؤوس سوداء لم تتبين ملامحها.

مادت قدميها فلحقت بها حنة تسندها وتشد من عزمها وهي تقول:

- إنها رؤوس من عارضه ومن ظفر بهم من الملوك في غزواته. سمعت الحكاية لكنني لم أرَ النُّصب من قبل.

كانت في استقبالها مجموعة من الجواري ورئيستهن التي طلبت من الموكب الذي معها أن يغادر:

- لا أفراح هنا.

ثم تابعت بهدوء وثبات:

- الأمير طلب الجارية للزواج ونزل عنها الرميكي وأعتقها. انتهى.

اتسعت عينا اعتماد دهشة من وصفها بـ«جارية»، وهي تظن أنها تدخل القصر «ملكة»، لكنها لم تشأ أن تعقب الآن، ربما فيما بعد، فالوقت ما زال أمامها. أكملت رئيسة الجواري:

- والآن هيَّا يا سيدتي، فالجميع في انتظارك بالداخل.

لا قشة واحدة مما أحضره لها الرميكي دخلت القصر، هي وفقط بفستانها الأحمر الحريري المحتشم، تسير كطفلة معاقبة داخل البراح الفسيح من دون أن تتبين تفاصيله. تدخل قاعة كبيرة بها عديد من النساء، وتجلس حيث تقودها رئيسة الجواري على يمين امرأة عرفت فورًا أنها أم الأمير. كان لها من السماحة وجه شديد البياض المشرَّب بحمرة، والعينان اللتان تخبئان ابتسامة. تنظر حولها فتتبين عددًا غفيرًا من الجواري أغلبهن حسناوات، وعددًا كبيرًا أيضًا من الأطفال والأمهات وثلاث زوجات غير الأم الجميلة. تتوسط القاعة بعض الجواري اللاتي يضربن الدفوف، وأخريات يتمايلن ويرقصن، وواحدة تغني وهي مغمضة العينين أغاني أفراح، لكن وقْعها في قلب اعتماد كان حزينًا.

انتظرت اعتماد وانتظرت وانتظرت، حتى سمعت ضجيجًا من بعيد، كان لا يشبه الضجيج المبهج للأعراس في مصر، لكنه ضجيج أقرب إلى الولولة. الأم الجميلة تباركها ثم تتبعها النساء والزوجات. في زمرة الفرح اقتربت فتاة في سمرة الغروب واتقاده، تضحك لها ضحكة كبيرة أظهرت كل أسنانها التي بدت أبيض من المعتاد، تنظر إليها بعينين واسعتين جاحظتين، وتقول وهي تنحني انحناءة بسيطة:

- جاريتك الخاصة يا سيدتي.

بادلتها اعتماد النظر بعينين زائغتين.

كل الأغاني تثير خوفها الذي لم تَعُد تذكر سببه، تحاول تجاهله من دون فائدة. تعد الثواني حتى ينتهي كل شيء وتنفرد بالأمير، الشخص الوحيد الذي تعرفه في هذه الغابة. حتى حانت اللحظة، وطلبت منها الفتاة ذات لون الغروب أن تتبعها. ها هي ذي تسير في القصر الضخم الذي لم ترَ مثله في الزخرف والزينة والاتساع والأبهة، وهي تتبع جارية.

صعدتا إلى الطابق الثاني من القصر، وفتحت لها الجارية الأبواب وهي منحنية قليلًا. سألت اعتماد:

- لا أحد هنا؟

أجابت الجارية:

- لا أحد يا سيدتي، لكنني سأبقى على الباب في خدمتك.

- ألن يأتي الأمير؟

- لا أدري يا مولاتي.

همت الجارية الصغيرة بالانسحاب وإغلاق الباب، فقالت اعتماد مسرعة:

- ماذا إذا احتجت إليكِ؟ بماذا أناديكِ؟

ردت الفتاة:

- قرة العين.

تفحصت اعتماد مستقرها الجديد بتأنٍّ: فراش عريض بحجم غرفة صغيرة، مغطى بكُلة بيضاء رقيقة، على الجهة اليمنى مجلس واسع من القطيفة الحمراء ممتلئ بالوسائد المنثورة. وعلى الجهة اليسرى صناديق من خشب الصنوبر مزخرفة بالصدف والعاج، ويزداد زخرفها عند غطائها. في الواجهة منضدة ممتلئ سطحها بالعطور والحلي ومرآة ذهبية، الشيء الوحيد الذي يميزها عن غرف النوم الأخرى التي رأتها في الأندلس، غير بهائها الساطع، هو أن بها أرجوحة من خوص مقوى معلقة بالسقف ومغطاة بالمخمل. ابتسمت اعتماد عندما رأتها. تذكرت أرجوحتها في الساحة الخلفية لبيتها في مصر، وكانت من القماش الدمور المعقود بحبل من الخيش في جذع شجرة. تلمستها بسعادة وجلست عليها فورًا.

- كنت أعرف أنكِ ستحبينها.

قالها محمد وهو يدخل الغرفة، فضحكت. ذاب شيء ما بينهما. سألته عن أمر لا تذكره، قال لها كلامًا لم تتبينه، كان هناك شيء بينهما أقوى من الكلام. ليس له صوت أو رائحة أو شكل، كما لو أنه أغلق الحواس كلها وجمد الوقت ووقف هناك في المسافة بين شفتيهما يترقب. الاقتراب الذي لو رأيته من الخارج سيكون لثوانٍ، لكن داخل هذه اللحظة كان بطيئًا مثل حركة الشمس في ظهر يوم حار. الالتحام وشيك على الرغم من بضع كلمات بلا معنى، وعلى الرغم من أعين لا ترى إلا ما سيحدث في اللحظة المقبلة. يُقبِّل عينيها، لم تعرف أن هناك قُبلة في العينين. النهم الآن بينهما وهما يتواجهان لأول مرة، يلقيان السلام والحب ويتعاهدان على مزيد من كل شيء.

١١

تنتهي القصص دائمًا بالزواج بالأمير، لكن مع محمد بدأت القصة. في الليلة الأولى وفي أثناء البوح الغرامي الأول، حكت له اعتماد عما عكر سعادتها؛ دخولها القصر في صمت وحديث رئيسة الجواري. لم ينتصف اليوم الثاني إلا وقد أتى لها محمد بثياب عرس جديدة، وأمر أن يقام عرس يشاركهما فيه أهل إشبيلية. ارتدت اعتماد فستانًا أبيض مطرزًا بالذهب، وزيَّنتها الجواري بنفائس الحلي، ثم خرجت لتجد محمدًا، الذي ينادونه بـ«المؤيد» وأحيانًا بـ«أبي القاسم»، في حلة باهية

ينتظرها في عربة مزينة بالزهور والعناقيد والنحاس الأصفر والأحمر. ركبت إلى جواره، ولفت العربة إشبيلية كلها بموكب صغير من عدة جنود على أحصنة بنية وبيضاء تحيط بالعربة. لكن الأجمل كان المواكب المتعددة من العامة الذين أحاطوهما يباركونهما ويدعون لهما وينثرون الزهور والملح. دخلت فرحتهم قلب اعتماد متجاورة مع الحب والأمل والبدايات الجديدة.

بعدها بدأت اعتماد تنتبه للقصر الذي لم ترَ مثل اتساعه وبهائه وزخرفه في حياتها، بدا لها أنها يمكن أن تقضي عمرها كله من دون أن تنتهي من اكتشاف غرف وقاعات وأبهاء وحدائق وبرك القصر. الأبواب كلها مقوسة بشكل ساحر كأنها أبواب حكايات، ولها عدد لا يمكن إحصاؤه، وأغلب الزخارف كانت على شكل نجوم، وكتابات بخطوط عربية متداخلة، أغلبها تحتوي على لفظ الجلالة، حتى إن أطر النوافذ والخشب المفرغ بداخلها نقش بنفس الكتابات والنجوم. امتدت الزخارف لتشمل الأسقف الخشبية وليس فقط الجدران التي بطنت بأنواع من الحجارة الملونة المصقولة المدمجة ببعضها. في واحدة من القاعات رأت اعتماد قبة لا تشبه بقية القباب في القصر، مرسومة على شكل نجمة اثني عشرية، تبدأ بمنطقة مربعة تعلوها منطقة مقرصنات ثم القبة الخشبية المزخرفة التي كلما ركزت بها شعرت كأنها تنبض وتتحرك. أما عن الأعمدة الرخامية الأسطوانية التي تعلوها الأقواس الخشبية المزخرفة والتي زينت الأفنية فقد سرقت لبها! التمعن في القصر يجعل اعتماد تنشغل وتنقطع عن الدنيا.

أمر واحد ما زال ينغص عليها، هو أنها لا تستطيع أن تفتح ستائر نافذة جناح نومها، ولا تستطيع أيضًا أن تقترب منها، على الرغم من عشقها لألق النهار المنسكب على العالم، فالقرب من النافذة يعني رؤية الرؤوس الآدمية المنصوبة على حافة سور القصر، تذكِّرها دائمًا بأنها أيضًا مجرد رأس يمكن لنهايته أن يكون معلقًا بسور.

ظلت اعتماد مريضة في أول أسابيع الزواج بسبب هذا السور الذي تطل عليه، تشعر بالدوار وبطنها لم يعد يتحمل الطعام. ذهنها مشغول ومشتت بالأمير شبه الصامت، وبأبيه الذي يرعبها ظله، وبالقصر الجديد البهي ذي المائة غرفة بحدائقه الأسطورية، وعلى الرغم من ذلك فإنها لا تشعر بأنها تنتمي إليه، وهو نفس شعورها في كل قصر وبيت سكنته في الأندلس، متعبة للغاية وحزينة وبائسة كأنهم قطفوها من حديقة ليضعوها في مزهرية ثمينة. حتى هذا التشبيه استنكرته، لأنها أتت من مخدع جواري الخدمة وليس من حديقة، ولأن الزهور تذبل في كل الأحوال حتى وهي على الشجر، فما معنى التشبيه بالقطف؟ إنها مثل عصفور محبوس، لكن حتى هذا ليس صحيحًا، لأنها منذ أن أتت إلى هذه الأرض وهي محبوسة بشكل أو بآخر، المشكلة أنها أصبحت أميرة، لكنها لم تتخلص من الشعور بالمعاناة.

الأمير لا يفارقها إلا مضطرًّا، لا يقرب الحريم كما تصورت، ولا يبرح القصر مثلما يفترض.

في عينيه الهيام وفي جسده لوعة، وهي تشعر إلى جواره بأنها صغيرة للغاية، وأنها مدللة ومحبوبة، لكن من دون روحها الجامحة. عندما اجتمعت الأسرة على الغداء لأول مرة بعد عدة أسابيع، جلست منكمشة بجوار زوجها، الجميع كانوا يأكلون في صمت مميت. لاحظت أن الملك ينظر إليها بتركيز، كانت له عينان كبيرتان، ووجه شابت وسامته، ورسمت تجاعيده مع عبوس الكِبر قسوة وبرودًا. يقطع اللحم ببطء ونعومة وخبرة، بعكس الأمير الذي كان يمزق اللحم بغير خبرة، ويمنحها منه نسائل صغيرة ويأكل نسائل أصغر. قاطع مشهد الأكل صوت الملك الرخيم الهادئ وهو يقول لها:

- ائتيني ببعض الماء.

نهضت من مكانها، لكن يد محمد أمسكت يدها، وقال موجهًا كلامه إلى جارية تقف على يمينه:

- أحضري الماء للملك يا ورد.

رد الملك بصوت أعلى:

- طلبته من زوجتك!

رد الأمير:

- زوجتي تتناول طعامها مثل سائر النساء، أمَا أمرت الجارية؟

قال الملك:

- وهل فعلت غير ذلك؟

رد محمد بهدوء:

- إنها زوجتي.

نظر إليها الملك بعينيه البقريتين، وقال مشيرًا إلى اعتماد بيده من دون أن يفقد الحديث لياقته:

- اذهبي إلى غرفتك.

نهضت ممتثلة للأمر، فنهض محمد معها وأمسك يدها وهو يقول:

- سألحق بك.

في طريقها إلى غرفتها بالأعلى لمحت الأمير وهو يركع أمام أبيه ممسكًا يده، لا تعرف إن كان يستسمحه أم يعاتبه. بعد قليل لحق بها وفي يده طبق من القطائف المحشوة بعجينة اللوز، وكانت مبتسمة ابتسامة واسعة لتمسك بالدموع في عينيها، لكن الدموع فرت في حضنه الذي ضمها مباشرة، وهو يتحسس شعرها بلطف كبير. غرقت في حضنه من دون أن ينطق كلاهما، ثم التهما القطائف معًا.

بعد هذا اليوم بقليل أخبرها بأنه مسافر إلى شِلب لتفحص أمورها بما أنه حاكمها، وبما أن وجوده ضروري حتى لا يثِبَ عليها الإسبان. استغلت اعتماد الفرصة وطلبت منه أن ينتقلا للعيش هناك، لكنه بادرها بالرفض. كان صَموتًا، يضمر في نفسه أكثر مما يصرح به. ما زالت ضائعة على الرغم من الحضن والحب. عرفت بقلبها أن أباه ربما يُكرهه على أمور لا يريدها. كانت ترى العذاب متواريًا في عينيه، وتحت ضحكته الجميلة التي يمنحها للجميع. اعتماد صغيرة ومغامرة منذ أن أتت إلى هذه الأرض. خطرت لها في هذه الأيام فكرة لكنها تحتاج إلى مساعد.

كل شخص في هذا القصر غريب وغير مؤتمن، لكنها عندما غادر زوجها وترك أثره في شفتيها، قررت أن تبدأ في خطتها فورًا.

- قرة العين، أنتِ أختي، تعرفين ذلك؟

- أستغفر الله، حضرتك مولاتي.

- لا أنا لست مولاة أحد، وقد كنت جارية، وقبلها كنت فتاة مثلك تمامًا.

أحنت قرة العين رأسها خجلًا، فأمسكت اعتماد ذقنها ورفعت وجهها حتى تستطيع النظر إلى عينيها.

- هل أعتمد عليكِ يا قرة؟

- خادمتك سيدتي.

- لستِ خادمتي، أنتِ أختي، وإن خذلتني مت في هذا القصر وعلقوا رأسي فوق السور.

- لا يعلقون رؤوس النساء اطمئني سيدتي.

أجفلت اعتماد، ثم عادت تقول:

- أريد شيئًا.

ردت قرة العين:

- شيء! لو طُلب لبن العصفور في إشبيلية لوُجد.

- أريد حصانًا.

- ما أكثرها سيدتي!

- أريده مساءً عندما ينام كل من في القصر، أريده جاهزًا عند البوابة الخلفية إذا كانت هناك بوابة خلفية. أريده سريعًا وذكيًا وبصحة جيدة.

اتسعت عينا قرة العين وبلعت دهشتها، انتظرت اعتماد أي ردة فعل منها حتى أومأت أخيرًا.

- حسنًا، انصرفي الآن وتعالي عندما تتأكدين من الأمر.

عند الباب التفتت قرة العين إلى اعتماد، وتحدث كلتاهما في الوقت نفسه.

- لكن يا سيدتي أنا خائفة عليكِ.

- تذكري أنني سأموت إذا عرف أحد.

ضحكت اعتماد ضحكة قصيرة، وعادت تقول:

- لا تخافي يا قرة، فقد مررت بما هو أصعب.

ثم استدركت:

- أتظنينني أهرب؟ وهل أهرب من قدري الجميل؟ إنما ألاحقه.

لم تفهم قرة العين تمامًا. قالت:

- أعرف يا مولاتي. حيطان الحبيب راح ولو كانت مرياح.

ثم انصرفت عاكفة على التفكير في الطريقة التي ستنفذ بها أوامر سيدتها الصغيرة من دون أن ينفضح الأمر. مضت عدة أيام وفي كل مرة ترد على اعتماد المحبوسة في غرفتها بين النافذة المغلقة والفراش البارد والقلب القلق، بأن الحصان غير جاهز بعد. مرت أسابيع ثقيلة حتى جاء يوم دلفت فيه قرة العين إلى جناحها تُدخل الطعام كعادتها، لكن هذه المرة لم تغادر المكان بسرعة وصمت. وقفت مترددة أمام اعتماد التي لم تغفل عن أن الجارية تحتاج إلى نغزة لتفيض بشيء ذي بال. سألتها:

- ما الذي يحدث يا قرة؟

قالت كأنها تُحدث نفسها:

- صحيح، إذا غاب الوجه ما للقفا حرمة.

دقائق أخرى من التردد حتى انهارت عند قدمَي سيدتها تبكي وهي ترتجف وتحاول أن تقول شيئًا في كلمات غير مفهومة.

- إن الوزير جعفرًا يريد أن... يخطط... نعم يخطط لأن يتفق مع رجل، حسب رغبة الملك أو أحد قريب منه، لكنني لم أسمع الرجل، سمعت جعفرًا، الملك هو من قال، يريدون أن... لا أعرف لماذا؟ أنا لم أسمع تمامًا، طاهر سمع...

سألت اعتماد وهي تمسك يد قرة العين:

- ماذا يريدون يا قرة؟

- يريدون أن يتخلصوا منك.

سألتها اعتماد مندهشة:

- من؟!

ردت وهي ما زالت خائفة:

- والله لا أدري. ولم أسمع، من سمع هو طاهر.

- من طاهر؟

- حبيبي... بستانيٌّ بحدائق القصر.

- قرة، أرجوكِ احكي بهدوء كل شيء.

أمسكتها وجعلتها تجلس إلى جوارها على الفراش.

- طاهر سمع السيد جعفرًا، أحد وزراء الملك يتحدث مع امرأة من الموالي، وفي الحديث ذكرا رجلًا آخر غريبًا... اسمكِ كان هناك... يبدو يا سيدتي والله أعلم أنهم يريدون التخلص منكِ.

أخفت اعتماد دهشتها في ابتسامة عدم تصديق. سألت نفسها قبل أن تنتبه إلى أن صوتها خرج بالسؤال:

- لماذا؟

- لا أدري سيدتي، أنا لست ذكية مثلكِ، لكن لا تفكري كثيرًا، طاهر وجد الحل.

نظرت إليها اعتماد من دون أن تنطق، وهي تشعر بأن الأرض تنفلت من تحت قدميها.

- سينتظرك مساءً بالحصان عند البوابة الخلفية، في منتصف الليل تمامًا، انزلي إلى المطبخ في نهاية الرواق الأيمن، سيكون فارغًا ومظلمًا، ثم منه إلى باب الحديقة حيث ستجدين طاهرًا وسيصحبك أنَّى شئتِ. اعذريني يا سيدتي، كان طاهر من يمنعني أن نحضر الحصان قبل ذلك، لأننا كنا خائفين عليكِ.

- حسنًا يا قرة، سأغادر مساءً. لكن تأكدا من صحة الحصان.

قالت قرة العين:

- يا سيدتي إذا أقلكِ حمار، استخيري الله وانهقي.

- ماذا؟

- سيصحبك طاهر بعد إذنك. إنه خارج في إجازة لعدة أيام، سيصحبك سرًّا ويعود.

- سأفكر في هذا الأمر حين يأتي الموعد.

خرجت قرة العين من الجناح، وبمجرد خروجها صرخت اعتماد. قلبت الطعام، الذي توقعت أنه مسموم، على الأرض وبكت ووجهها مدفون في وسادتها حتى لا تثير ريبة أحد بصوت نهنهتها وأنَّاتها. مرت ساعات من الرعب وهي تقف ملاصقة للجدار كالمحكوم عليهم بالموت، وتجلس خلف باب الغرفة كأنه سيحميها. قبل الموعد المحتوم ارتدَت شيئًا من ثياب زوجها ولثمت وجهها وخرجت من سجن غرفتها. كانت هناك بعض جواري الخدمة يتهامسن ويتضاحكن، رأينها فارتبكن وظنن أنها ضيف فانحنَين محيِّيات. دخلت المطبخ بسرعة تتلمس طريقها في ضوء خافت قادم من الباب المفضي إلى الحديقة. بمجرد أن خرجت وجدت الحديقة معتمة بشكل مخيف، حتى إنها لم تتبين مساحتها. مشت عدة خطوات إلى أن وجدت عصا امتدت لتوقفها، انخلع قلبها وهي تنظر حولها في جزع لتجد شبحًا آدميًّا قصير القامة ضخم الرأس بعينين واسعتين.

- اهدئي يا مولاتي، إنه أنا طاهر.

طلب منها أن تدخل في شِوال، فرفضت بشدة وقالت بحدة:

- لن أنكمش في شوال.

اضطر طاهر إلى أن يعبئها بنفسه في الشوال على ظهر الحصان، ولم تنطق أو تقاوم، ثم خرج من القصر ليبدأ إجازته. عندما استقرَّا في بقعة بعيدة عن القصر خرجت من الشوال وهي تتأوه من

قسوة عظام الحصان على جسدها. أصرت على أن يصف لها الطريق إلى شِلب حتى تذهب إليها وحدها، لكنه كان أكثر إصرارًا على أن يرافقها. في النهاية اتفقا على أن يرافقها حتى قرب نصف المسافة، ويتركها عند سور باجة، مدينته، وتكمل هي الطريق إلى شِلب.

- الرحلة ستتطلب عدة أيام.

ابتسمت:

- لقد وهبني الله عمرًا جديدًا، لا تعني فيه عدة أيام أي شيء.

مضى يومان حتى فارقها طاهر، فراحت تسرع من تقدُّمها بالحصان، منهكة وجائعة، لكنها كلما تخيلت لحظة لقائها بزوجها يهون عليها كل التعب. ما حدث أنه بعد نصف يوم ارتطمت ساق الحصان بحجر فتوقف، ثم مال إلى جانبه وهو يئنُّ بصوت باكٍ. بقيت اعتماد إلى جواره تضمده بالتراب وقد شعرت بالعجز التام، كأن ساقها هي التي كُسرت. مر الوقت بطيئًا وقاتلًا وهي تجلس ملاصقة للحصان، كأنه سيحميها أيضًا مثل الجدار، إلى أن زحف الليل بهدوء وسمعت صوتًا يغمش الحشيش ورأت نورًا يقترب، وقف الغريب أمامها يسألها بصوت بدوي:

- ماذا بكِ؟

خلعت اعتماد عمامتها وقالت:

- أنا مسافرة إلى زوجي في شِلب وكُسِرت ساق الحصان.

تمتم بامتعاض:

- كلكن تَقُلن هذا.

- ساعدني ولك الأجر، زوجي رجل مقتدر.

قال مرة أخرى:

- كلكن تَقُلن هذا.

سمعت صياحًا من فوق الحصان الذي يمسك الرجل لجامه، صوت طفل كبير أو شاب صغير:

- ساعِدها يا أبي لأجلي.

نظر البدوي تجاه الصوت بعطف، ثم أعاد النظر إلى اعتماد، وقال:

- تعالي، لكن سنترك الحصان، لا حيلة لنا به.

- لكن يجب أن نأخذه معنا.

- تعالي معنا قبل أن ينقضَّ عليك اللصوص.

- لن أتحرك من دونه.

اقترب البدوي من الحصان وتفحص ساقه لبرهة، ثم قال:

- ليس كسرًا، مجرد كدمة، يمكنه السير من دون العَدْو.

رافقتهما اعتماد وقد أطعماها، وأكرمها البدوي لخاطر ابنته التي كانت فوق الحصان، إلى أن وصلوا إلى بوابات شِلب، فافترقا عنها من دون أجر، لأن الرجل كان على عجل ليصل إلى سوق الفاكهة حيث ينتظره عمل جديد.

على البوابات الكبيرة طلب منها الحراس أن تعرِّف نفسها، لكنها رفضت، وطلبت مقابلة أبي القاسم المؤيد، استهانوا بها وهم يتفحصونها محاولين معرفة كنهها، قالت:

- أنا في زيارة عاجلة من قصر إشبيلية.

اصطحبها أحد الحراس، وكلٌّ يسير على حصانه، حتى وصلا إلى قصر الشراجيب الذي تحاوطه بسائط فسيحة ومروج خضر، لكنه كان أكثر تواضعًا من قصور إشبيلية التي عرفتها. انتظرت قليلًا عند الباب حتى سمحوا لها بالدخول. سمعت أحد الخدم يقول في أثناء دخولها ساحة الحديقة على حصانها واقترابها من مجلس الأمير:

- رسول قصر إشبيلية يا مولاي.

الأمير بكل بهائه أمامها أخيرًا، تضحك من تحت اللثام وتبكي من فوقه، يضيّق عينيه ويقف، يقترب منها فتعرف أنه عرفها من اللحظة الأولى. يطلب من مجلسه أن ينصرف ومن الحارس كذلك، الحديقة فارغة إلا منهما. تنزع اللثام فيمد ذراعيه لتسقط من الحصان إلى حضنه، الزمن يتوقف وهما ملتحمان في صورة جسد واحد. ينتفضان، هي من أثر البكاء وهو من اللوعة، وفي الخلف تشاطرهما الحديقة الزقزقة والاتساع والخضار البهيج. رفع رأسها إليه ومسح دموعها بإبهاميه، ألف سؤال وإجابة في رأسيهما، لكنه اكتفى بأن قبَّل قمة رأسها، وأعادها إلى حضنه وهو يدخل معها إلى داخل القصر.

في غرفته قصت عليه اعتماد كل ما حدث، وهي تتنقل متحمسة حوله وتخلع ثيابه من فوقها، لكنها لم تقصَّ ما يخص أباه وتورطه في التخطيط للتخلص منها. بثته رغبتها الحارقة في البقاء إلى جواره ومشاطرته السفر والتغرب والوحدة والحياة الاجتماعية وكل شيء. كعادته قليل الكلام، لكن نظراته وتمتماته وربتاته كانت كل ما تحتاج إليه. سألته أن يسامحها على ما فعلت، فقال:

- لن أغضب منكِ ما حييت.

أخذتها جارية لتتحمم، وعندما عادت وجدته ينتظرها بشبق لم ترَه منه في لياليهما في قصر إشبيلية. مر اليوم وهما لا يفارقان غرفتهما، يتبادلان الكلام والضحك والطعام والحب. يخبرها ضاحكًا بأنها أجمل غلام رأته عيناه. يحكي لها عن حبه لشِلب وتعلقه بها. يحكي حكايات عامة، لطيفة، يغازلها وتغازله، وينسجان الحب في كل حكاية وزاوية. ظلا في غفلتهما الجميلة حتى استأذنهما خادم ليخبر الأمير بأن رسولًا من إشبيلية يريد مقابلته. نزلا لمقابلته معًا. قال الرسول

متلجلجًا:

- سيدي، أنا مكلف بإخبارك بأن زوجتك هربت من القصر، وأن الملك أمر بالقبض عليها متى وجدناها.

ابتسم الأمير محاولًا أن يبدي الحكمة على الرغم من حداثة سنه، وقال:

- أخبِرهم في القصر بأنني أنا من أرسلت إليها من يأخذها، لأنني أريدها معي في قصر شِلب.

أومأ الرسول وانحنى قبل أن يذهب إلى من حيث أتى.
قال الأمير باقتضاب عندما عادا إلى مخدعهما:

- لا تفعليها ثانية.

- تقصد أنك لا تريد أن أعرِّضك لهذا ثانية؟

بدأت نوبة أخرى من نوبات الغضب الصغيرة المتكررة بينهما. لا تفهم تمامًا لماذا يتوالى الغضب مع العشق، لا تكاد تهنأ بقربه حتى تشعر بجفائه، كأنه لا يريد منها إلا الجسد والطاعة مثله مثل كل الرجال الجهلاء الذين لم يحظوا بعلمه وأدبه ومكانته.
قالت بيأس:

- أنا لا أفهمك.

- أنتِ لا تريدين أن تفهميني.

- اشرح لي نفسك.

أجفل وبعد عنها ليبدل ثيابه، وعندما اندسا تحت الفراش أعطته ظهرها، كانت تبكي في صمت، وبأقل دموع لا تستطيع كبحها، غاضبة من نفسها أكثر منه، لأن معنى هذا الغضب أنها تنزلق إلى حماقة الحب.

- ليس حتى لا أتعرض لهذا ثانية، بل من أجل ألا تعرضي نفسكِ لهذا ثانية.

قالها عند عنقها، ثم استدار ونام وهو يشعر بها تضمه إليها، وقد أصبحت النهنهة واضحة الآن، ثم سألته عما سيفعل به الملك لأنه خالف أوامره. أرادت أن تجعله يشاركها خوفه ومشاعره وخططه، لكنه اكتفى بأن استدار وقال لها بابتسامته المطمئنة:

- لا شيء... لن أفعل شيئًا... سوف أكتب له قصيدة وسيسامحني.

١٢

كان لقصيدة الأمير فعل السحر على أبيه الذي يُقدر الشِّعر مثل تقديره للحرب، فالشعر الجميل انتصار يجبُّ ما قبله. بعد أشهر قليلة عادا إلى إشبيلية بأمر من الملك. كانت الأحوال في الأندلس

تزداد سوءًا. عرفت هذا من توقف اجتماعهم العائلي على الغداء، وتوقف الحفلات والمعازف والرقص والغناء الذي كان يقام يوميًّا، فالملك لا يبرح مجلسه، حتى إنها تشعر بأنه يبيت فيه، والخدم يتناقلون الكلام الذي يصل بعضه إليها، وزوجها بالإضافة إلى صمته فهو أيضًا شارد حتى وهو بين ذراعيها. أما قرة العين فاستمرت أيامًا تُعلن، وهي تبخر مخدع اعتماد بالعود والمسك، أن هناك روحًا شريرة بالقصر. انتهزت اعتماد فرصة غياب الأمير عن القصر، وطلبت من قرة العين مقابلة طاهر لتتقصى منه الأخبار. قال:

- ما سأقوله لكِ ثمنه عنقي، لكن ما بيننا يجعلني أسلمك هذه العنق لأنك لم تشي بي. إن الملوك يتناحرون وأصبح بعضهم عدوًّا لبعض. شاعت بينهم الأحقاد وانتشرت بينهم البغضاء بسبب الفِرى، وانتهز أعداؤنا الحقيقيون الإسبان هذه الحال، ودخلوا بين الملوك يثيرون بعضهم على بعض، ويجبرونهم على دفع الإتاوات. إنهم يتربصون بأطراف البلاد ليرجعوها في الوقت المناسب، وهذا ما يقوله الفقهاء.

قالت قرة العين التي تنظر إلى طاهر بفخر الآن:

- ليس فقط الكذب والوشايات ما فرَّقا بين الملوك، لكن الخمر واللهو والحسان هي من أشاعت في البلاد الفجر والعياذ بالله! نحن نستحق أن نُقتل جميعًا بقدر ما في هذه البلاد من كبائر.

قاطعتها اعتماد موجهة حديثها إلى طاهر:

- من هم الفقهاء؟

ساد صمت شعرت فيه بتردده قبل أن يقول بصوت هامس:

- بعض من القضاة والأئمة وجلساء الملك... لكنهم يتحدثون للناس من وراء ظهره. ولا تسأليني عن أسماء وإلا لن أنطق بحرف آخر.

سألته:

- ما الذي يحدث تحديدًا في هذه الأيام؟ القصر لم يَعُد كما كان.

قال طاهر:

- قتل الملك الشيخ أبا حفص الهوزني، لأنه أسدى له نصيحة رأفة بالمسلمين، ومن وقتها والناس غاضبون، ولولا أنهم يخافون بطشه لثاروا عليه، وقد وصل الخبر إلى مالقة فأرسل ملكها كتيبة من الجنود إلى إشبيلية وهم الآن في طريقهم.

صرفتهما اعتماد وقد تملَّك منها القلق، وهذا الشعور الملازم لها بأنها يجب أن تفعل شيئًا، لكن ما بيدها وهي بهذه الثياب الحريرية، تحمل جنينًا في أحشائها ولا أحد يتحدث معها. في اليوم التالي ودعها محمد بعد أن أبلغها أنه ذاهب لمواجهة جيش مالقة. ابتسمت ابتسامة كبيرة ومنحته قُبلة وضمة طويلة تبثه فيها كل ما تستطيعه من تشجيع ومحبة. تغلبت على خوفها، ولأول مرة تنظر من نافذتها محاولة تجاهل السور. هذه المرة نظرت إلى البوابة الكبيرة ورأت محمدًا بين قواد الجيش وكله مهابة وجلال. لأول مرة ترى وجهه قاسيًا وهو يشير بإصبعه إلى الجنود الذين هو أصغرهم ويلقي عليهم أوامره. رأت فيه ملكًا مثل ملوك القصص، شجاعة ونبلًا وجسدًا مشدودًا ووجهًا وسيمًا بقسمات جادة. تقدَّمهم بحسنه الفائق وساروا خلفه في طاعة. شعرت في هذه اللحظة بأنها تود لو كانت أحد جنوده حتى ترافقه وتظل قريبة منه، إن هذا هو دورها الحقيقي.

مرت الأيام مظلمة وثقيلة، إلى أن عاد ظافرًا واستقبله القصر بكل سكانه وحراسه وخدمه بالإشادة والمحبة والتشجيع. ولأول مرة ترى الملك يخرج عليه مسرعًا على الرغم من كبر سنه وثقل خطواته، يضمه ويهنئه فخورًا به. كانت ترى هذه المشاهد من بعيد وهي تستعجل الوقت حتى تنفرد بحبيبها الذي رأته ملكًا من النافذة. وبعد التهاني والأفراح، أخيرًا استطاع التسلل من الحفل الذي أقامه أبوه احتفالًا بالنصر وبعودته سليمًا معافى. جرت عليه اعتماد تبثه الشوق في كل شبر في جسده بكل شبر في جسدها، وعندما شبع الجسد من الجسد لاحظت أنه كان في حالته القوية الغاشمة، الحالة التي تعرف بها أن به شيئًا. لم تسأله لأنها تعرف عناده، أحاطته فقط بنظراتها العاشقة وبيديها الشقيتين، وأنفاسها المتهدجة التي تبثه الشوق. صمتا قليلًا وهما في حضن هادئ كصحراء مهجورة لا قمر بها، ومع ذلك تشع بالجاذبية، إلى أن قطع الصمت صوت بكائه. الأمير يبكي! ينهنه في حضنها الآن، وهي تحضن رأسه وتمسِّد شعره. تحرقها دموعه التي تبلل صدرها، تود لو تخترق روحه لتعرف ما به. استمرت تمطره بكلمات الحب والفخر والتشجيع والطمأنة، حتى قال:

- قتلت رجلًا.

ساد الهدوء للحظات، لم تستطع فيها اعتماد أن تفهم جملته، ولم يتركها لتخمينها طويلًا، قال:

- إنها المرة الأولى التي أفعلها، حاولت تجنب هذا الشيء لسنوات، كنت في المواجهات أصيب السيقان حتى أوقف الأعداء وأعرقلهم وأحمي جنودي من دون أن تزهق الأرواح. أترك مهمة القتل لغيري، لست جديرًا بها، لست أهلًا لها، لم أكن من قبل سببًا في موت إنسان ولا حيوان ولا اقتلعت نبتة. قلبي يعتصر صدري لو رأيت الموت بعينَي، إن رؤية الموت تعيد إليَّ آلامي كلها وتحطمني. لم أقصد قطُّ أن أقتل هذا الرجل. عندما هاجمني صوبت سيفي نحو ساقه، فكيف انحرف إلى صدره! كيف أنام بعد اليوم! كيف أحلم! كيف أضحك! كيف أكتب! كيف أرى الحياة! إن عينَي يكسوهما اللون الأحمر، الدماء التي لطختني هذه المرة لطخت حياتي كلها... لم أجد في حياتي من أتحدث إليه، ليس لديَّ إنسان واحد أشاركه، أبكي أمامه، كنت خائفًا على الدوام أن تفيض نفسي بهذا الحديث، حتى تظلي ترينني الرجل القوي المحارب الشجاع، حتى لا تهتز صورتي في مخيلتك، حتى لا تظني بي اللين والهوان، لكنني الآن لا أريد إلا أن تعرفي أنني قاتل ومذنب وحزين. هذا الرجل الذي يغطيكِ بالحب والطمأنينة، خائف ومعذب، يداري انكسار روحه باللهو، ويختفي بين جموع الأصدقاء والناس والسمر حتى لا يرى أحدهم حقيقته. أنا الآن بين يديكِ بكل ضعفي ولا أريد منكِ إلا أن تأخذي عني هذا الضنى، فقد تعب القلب من حمله وحده.

لم تنطق اعتماد، أمامها أمير في ريعان الشباب، له من القوة وحسن التدبير وإدارة سياسة البلاد أفضل مما لدى أي رجل آخر في الأندلس، وله من حلو الحديث والروح والمعاشرة ما لا يجود به الزمن على رجل آخر. كيف يواجه كل هذا الألم في قلبه من دون أن يشعر به أحد! كيف عاشت إلى جواره عامًا كاملًا تتصل معه بالجسد من دون الروح! إنها مذنبة مثله، وقد كانت تظن أنه قتل العديد من الرجال، لكنها عرفت الآن أنها سبقته إلى القتل، لكنها لم تسبقه إلى هذه الرهافة التي تتمثل لها في جسده الضخم الذي يستسلم تمامًا ليديها وأنفاسها حتى تأخذ هذا عنه. لطالما شعرت بأنه أبوها، ولم تُرد أن تواجهه بهذا الشعور حتى لا تنطفئ رغبته، لكنها تريد الآن أن تكون أمه، تريد أن تشرب حزنه وتمتص عذابه كله.

في الصباح يعودان كأن شيئًا لم يكن، وفي المساء تمسِّد جراحه بين يديها من دون أن يمنحها إلا حديثه القليل المبتور، وأفضل ما تصنعه معه - بعد الحب - هو أن تضاحكه وتحكي له الحكايات وتعلق على حديثه وحديث غيره تعليقات ظريفة، فقط لتراه يبتسم. مرت عدة أسابيع وهما يعيشان

الحب والمداواة. بطنها يكبر، والمشاعر بينهما كذلك. حتى أتى يوم عادت فيه اعتماد من تمشيتها اليومية، مثلما طلبت منها القابلة حتى تتيسر ولادتها، فرأت الخدم يتهامسون على أمر جديد، هذه المرة وأعينهم تمر عليها.

داخل القصر رأت حملات من التنظيف والترتيب، وجناحًا من أجنحة الضيوف المغلقة مفتوحًا على مصراعيه ويدخلون إليه الصناديق. تسألهم:

- ماذا يحدث؟

ولا يجيبها أحد. قرة العين الوحيدة التي قالت:

- لا أحد يدري. إذا رأيت الأمير يغني أدري أن همومي تبكي.

دخلت اعتماد جناحها فزعة تشعر بأن مكروهًا على وشك الحدوث. لم تسأله، كان يقف أمامها بحلة جديدة من الحرير الأبيض المطرز بالخيوط البنية والذهبية، نظرت إليه فقط، كأن هذا كل ما يحتاج إليه لينطق هذه المرة.

قال وهو يضمها:

- سأتزوج.

١٣

في هذه الليلة والعرس قائم في قصر العروس بباجة، والزهور والتحف الجديدة والمصابيح تملأ قصر العريس، كانت اعتماد تجلس على الأرض في جناحها، عيناها لا تتوقفان عن البكاء، وروحها ترتجف من الحزن. تكتم شهيقها حتى لا يسمعها من بالقصر وهي تحترق. بداخلها تولد مئات الأسئلة كل دقيقة، وتنتهي إلى سؤال واحد «كيف؟». كيف فعلها بعد أن كان في حضنها كل ليلة! كيف يستبدل بمائها ماء امرأة غيرها، وصوت أناتها ولمستها وحرارتها! وكيف يمنح ماءه وعرقه لامرأة أخرى! إن كل تبريراته السابقة المقتضبة عن كونها زيجة من أجل أن يوطد سلطانه مع ملك مدينة باجة لا تعنيها، ما يعنيها حقًّا ما سيفعله الليلة وكل ليلة بقلبها.

على الأرض خطر لها شيء لم يخطر لها منذ عام، شيء لا يأتي إلا مع الألم، كأن أحدهما يذكِّر الآخر بنفسه! نهضت من على الأرض، واتجهت إلى مائدة كتابة الرسائل. أشعلت مزيدًا من الشموع في حامل الشمع، ثم أخرجت من الصندوق الصغير بجوار المائدة صحيفة، غمست الريشة في الدَّواة وكتبت.

توقفت الدموع، واستمر القلم في تدوين كلمات مبهمة تشعر بها ولا تفكر في معناها، كأن أحدهم

يمليها عليها، حتى صوت الموكب الملكي وهو يقترب ليدخل القصر لم يوقفها. ظلت تكتب كلماتها بفوضوية وهمة كأنها تنجز عملًا مهمًّا تتوقف عليه البشرية. لم تشعر بأنها نامت على المائدة وهي تكتب إلا عندما أيقظتها اليد التي تعرفها جيدًا. نظرت إليه بدهشة من دون أن تنطق، منذ أن عرفت بزواجه وهي لا تتحدث إليه، عيناها فقط من تفعلان. مسَّد شعرها بيده وهو يداعب وجهها باليد الأخرى. قال:

- لماذا لا تنامين على الفراش؟

«**يا لغبائه!**»، حدثت نفسها. أحقًّا لا يعرف لماذا لا تنام هناك**!** نظرت إلى النافذة فوجدت العتمة ما زالت قاتمة وبليدة. مسح بقايا دموعها، ثم حاول حملها من تحت إبطيها، لكنها انفعلت وقاومت ورفضت. حاول معانقتها وهو واقف أمامها، تكرر رفضها، فما كان منه إلا أن ذهب إلى فراشهما ونام، أشار إليها لتأتي. في هذه اللحظة نطقت:

- أنت حتى لم تغتسل من عروسك.

ابتسم كأنها صالحته بهذا العتاب. قال:

- لا أريد إلا أن أكون إلى جوارك، لم أستطع النوم من دون أن تكوني آخر ما أراه. رائحتكِ تمنحني السكينة. تعالي نامي وفقط، هذا كل ما أريده منكِ الليلة.

لم تتحمل اعتماد التمزق الذي كانت فيه بين حبها وهذا الشيء الآخر الذي يؤلمها، والذي لا تعرف أن اسمه «كرامة». ذهبت إليه بخُطى مترددة واندست معه في الفراش، ضمها إليه يستنشق عبير شعرها وهو مغمض العينين، ثم قال مُتمًّا لجملته:

- إلا إذا أردتِ أنتِ ما هو أكثر من النوم.

ونامت معه في ليلة عرسه الأولى.

١٤

إنه أمير وولي عهد الملك، لا تستطيع أن ترفضه. هكذا أقنعت نفسها حتى لا تعترف بحقيقة أنها أيضًا كانت تريده في هذه الليلة. تخيلت قبلها أنها يجب أن ترفضه ويجب ألا يمسها، ليس فقط لأنه أصبحت له امرأة أخرى، لكن لأنه خدعها بالحب حتى توهمت أنها ستكون الوحيدة. في اليوم التالي لم يأتِ إليها مساءً، لكنها استيقظت فوجدته إلى جوارها، وفي يده طبق عميق ممتلئ بحلوى المرزبان المصنوعة من عجينة اللوز وماء الورد المغطاة بالسكر التي تعشقها. إنه حتى لا يمنحها الوقت لتكرهه وتحقد عليه. تمر الأيام، ويثقل جسدها، ويخبو بريق روحها، تفكر في أهلها، وفي

بلدها، وفي الهرب والموت، الأخير بالذات. تتجدد الأحزان وتتخدر الروح، لا تمله لكنها تمل شخصها الجديد الخاضع دائمًا، الذي لم يعد له أحلام ولا خطط. حتى إنها تطلب منه أن يذهب إلى زوجته ويتركها قليلًا لنفسها، تريد أن تعود إلى الكتابة، يلح عليها هذا النداء ولا تملك أن تتجاهله.

وجدت نفسها في ليلة وهي في حضنه تطلب منه أمرًا، وكانت ذكية كفاية لتعرف أن الطلب لا يأتي قبل انطفاء الرغبة كما سمعت من النساء، لأنه في هذه الحالة يتحول إلى ابتزاز، لكن الطلب يأتي بعد انطفاء الرغبة، لأنه في هذه الحالة يتحول إلى رجاء المحبين. في هذه الليلة طلبت منه أن تعود إلى مجالس الشعر والأدب. نظر إلى بطنها وضحك، ثم قال مطمئنًا:

- ستذهبين، وسترافقينني في مجالس الشعر أيضًا.

فمَا حَلَّ خِلٌّ من فُؤادِ خَليله

مَحَلَّ اعتِمادٍ من فُؤادِ مُحَمَّدِ

ولَكِنَّها الأقدارُ تُردي بِلا طُبى

وتُصمي بِلا قَتل وتَرمي بِلا يَدِ

كيف تكره هذا الرجل؟

في أول خروج لها وحدها مع الحراس لم تذهب إلى ندوة شعرية أو لقاء صديقة، لكنها ذهبت إلى مجمع الأخبار، وهو مجمع يقصده الناس للتقصي عن أحوال المدن الأندلسية الأخرى، وأحوال عائلات بعينها، وذلك لتعثر على قنوات التواصل بين الأهل والأقارب. وهو مجمع اجتماعي بالأساس لا علاقة له بالسياسة أو ما يتبعها. هناك سألت اعتماد عن السيد ابن كُليب في قرطبة، سيدها الأول الذي هربت من قصره. أدخلوها من غرفة إلى غرفة حتى وصلت إلى ما يخص قرطبة، ألقت سؤالها أمام بعض الرجال، فأجابها رجل على الفور بأن السيد ابن كُليب قد مات قبل أعوام قليلة. ثم سألته السؤال الذي أتت من أجله، عن حارس قصره الذي قُتل قبل أعوام أيضًا، لم تجد الإجابة وقتها، وانتظرت عدة أسابيع حتى أرسل إليها المجمع رسولًا بالخبر؛ لم يمت الحارس.

١٥

٤٦١ هجريًّا

الزمن يسير، والأيام تتوالى. مرت خمس سنوات وهما يتعرفان على بعضهما كل يوم، يقعان في الحب من جديد كل يوم، يعيدان نفس الدهشة، ويخترعان نفس الشوق، فتشعر اعتماد كأنها في دوامة من الحب، سعيدة وتائهة. سعيدة لأن معها هذا الرجل الجميل، الكريم، حسن المعشر، وتائهة لأنه ما زال لا يتحدث عن نفسه، ما زالت لا تعرفه. تسلم له كل مفاتيحها من دون أن تتأكد من هذا

الإنسان، أم أنه وهم جميل منحها إياه الخيال، أو أسطورة دخلتها من غير قصد، أو معجزة تحدث وستدرك أثرها فيما بعد. ولخمس سنوات لم تكتب.

أنجبت ثلاثة أولاد، ولم تشعر اعتماد بعبء الأمومة، فكانت الجواري يتولين كل شيء، هي فقط ترضع الأيام الأولى ثم تتولى مُرضعة الأمر، ويقتصر دورها على أن تلاعب. لكنها شعرت بمحبة الأمومة ومخاوفها، وبحزن غريب يرافقها. لم يتغير جسدها كثيرًا بل إنه اشتد، والسبب لم يكن فقط تنظيمها لتناول الطعام وامتناعها عن الكثير منه، فلقد قرأت في الكتب عن الاهتمام بالجسد وحمايته من الأمراض والسمنة، فكانت تعد لنفسها يوميًّا وقتًا تتريض فيه بغرفة فارغة في القصر، وزعمت أنها تمارس هناك العزلة. كانت تتمرن بالانحناء والانثناء من دون الرقص، وبرفع الأحجار الثقيلة نوعًا ما وشد بطنها بالمطاط، إلى أن تعرف أنها حامل فتتوقف عن التريض، ثم تعود إليه بعد أن تتوقف عن الإرضاع.

واستمر اتفاقها مع زوجها، تشارك في الأمسيات الشعرية والندوات، وتقضي الأوقات القليلة التي لا يكون معها في تمشية طويلة بحدائق القصر بعيدًا عن السور المخيف. تداعب القطط المتسللة، وتتأمل الصمت وهي تستعيد كل مشاهد الحب متمنية ألا تنتهي. إنها على الرغم من كونها مستنزفة من الحمل والإنجاب المتتالي، فإنها ممتلئة بالأمير حتى قمة رأسها، لكنها سرعان ما تعود وتتمنى أن تنتهي هذه المشاهد، وتفيق على حقيقة أن هذه ليست حياتها، وهذا ليس بلدها، وحتى الأطفال لم يمنحوها في القصر الوقت الكافي لتربيهم، فتجد نفسها أحيانًا تنظر إليهم وتتساءل «من أين أتيتم؟». هي هنا مجرد أسيرة مملوكة تنجب الأولاد، حتى لو كان اسمها زوجة، تتعجب لماذا تحاصرها الأفكار السيئة وهي سعيدة وممتلئة! إنها كالغربان التي تنعق من بعيد، لا فائدة منها، فقط تشوه الأفق الجميل، وتزعج القلب المستقر.

ليست الكتابة فقط التي خذلتها في هذه السنوات، إن وعده بأن يجد لها أهلها يكاد يُنسى! كانت تسأله عن هذا الأمر في البداية كل أسبوع، ثم كل شهر، ثم أصبحت تسأله كل عدة أشهر، ولا تجد إلا إجابات مبتورة: «إن شاء الله». «لم أنسَ». «استمري في الدعاء».

في هذه السنوات تزوج الأمير بثالثة، ولم تتألم كثيرًا هذه المرة، لأنها لسبب لا تعلمه جمدت هذه الزيجات في خيالها. إنها لا تستطيع أن تتخيله مع امرأة أخرى، وهو في كل مساء يأتي إليها على الرغم من كل شيء. يقضي أغلب وقته عندما يكون في القصر معها، يصطحبها معه إلى مجالس الشعر ويتباهى بأشعارها وجمالها وحبها أمام الجميع. إنها لا تفهم كيف يحبها وهو ينام مع نساء أخريات، لا تفهم ما تركيبة الأمراء أو الرجال، ما الذي منحه إياه تعدد النساء والأجساد في فراشه إذا كان لا يسعده إلا جسد واحد! «لا توجد امرأة تمنحني هذه السعادة مثلكِ». ألم يكرر هذا على سمعها؟

في هذه السنوات لم تتغير علاقتها بالحريم، كانت شديدة العزلة، لم تشارك في مناسبات القصر إلا مضطرة، ولم تسعَ إليها إلا لِمامًا. لا تتحدث بأريحية إلا مع قرة العين وزوجها طاهر، أما علاقتها بالملك فاقتصرتها على الصمت والتمتمة بجمل مبهمة تعطيه انطباع الطاعة. لذلك عندما سمعت دق باب مخدعها هي ومحمد ودخلت عليهما الجارية فتنة مستعجلة، لونها مصفر وعيناها متسعتان، قالت بصوت مبحوح:

- مات.

لم تجد اعتماد في نفسها ذرة صدمة أو حزن، بل وجدت أنها تتمنى لو ماتوا جميعًا. سأل محمد الجارية:

- الملك؟

فحركت رأسها بـ: «لا»، لكن الأمير عرف أنه «نعم»، وأنها خائفة أن تنطقها.

تذكر اعتماد أنها ذرفت دموعًا قليلة على زوجها الحزين وليس على أبيه، في محاولة أن تشاطره مشاعره، قلبها الذي يحبه عرف أنه حزين هذا الحزن العابر، لكن شعوره الجديد هو الراحة بعد أن تخلص من أكبر ضاغط في حياته، تخلص من الذي يحركه على غير هواه، من سبب ألمه وغضبه طوال سنوات حياته. في هذه الأيام هجر زوجاته إلَّاها. كان يغيب بالساعات في مخدع أمه، ويعود إليها فارغًا من الحزن الثقيل ويتغلب على بقايا الحزن معها.

وفي إحدى هذه الليالي وهو يتخطى الحزن بالحب، مغمض العينين هائمًا في ملكوته في أشد لحظاتهما قربًا، سبَّ أباه سبابًا قذرًا، تراجعت وسألته إذا كان بخير. استلقت إلى جواره وهو أحمر الوجه يكظم الكثير من الغضب، لم ينفجر يومًا بالغضب، أقصى ما يفعله أن يشيح بوجهه حتى لا تراه وهو غضبان، لكنها أصرت على النظر إلى عينيه.

- احكِ لي.

قالتها فابتسم. لم تبتسم وقالت:

- توقف عن التظاهر واحكِ لي... هو لم يعد هنا، بعد أيام قليلة ستكون أنت الملك.

اعتدل الملك في جلسته وحكى.

١٦

أعيش وأنا أخفي حقيقتي منذ ثلاثين عامًا، ما أحبه وما أبغضه، ما أتوق إليه وما أهرب منه،

طفل صغير يريد أبسط شيء في الحياة، أن يكون على طبيعته، لكن كل ما حوله يدفعه إلى أن يخفي مشاعره، ويبتلعها مثل قطة تحمي أبناءها.

الغضب والخوف والقسوة كانت أمورًا ضبابية في عينَي. حين كنت طفلًا في الرابعة من عمري، في القاعة الملكية حيث يصدح الغناء والموسيقى، أتلصص عليهم من باب الخدم، لأنه غير مسموح لي بالدخول ولا بالوقوف أمام الباب الكبير في ساحة القصر. كنت أشم رائحة بخور قوية، لم أعرف أنها مختلطة برائحة القنب، أرى النساء وهن يتمايلن، والشراب يأخذ بالعقول فتتمايل الرؤوس كذلك. أرى بين الناس أبي هذا الملك العظيم وهو يترنح ويطوح عمامته منسجمًا مع النغم، ثم ما يلبث أن يلقي الشعراء أبياتًا أظنها فاضحة. وعلى الرغم من أنني أحببت أبي وهو على هذه الحال، لكن كان هناك خطأ في الوضع برمته، حاجز يقف بيني وبين حبي لأبي وهو يضحك ويتراقص ويلقي الشعر. هذا المشهد الغائم كان آخر ما تذكرته بعد أن قدم لي أحد الغلمان الخمر في كأس، لا أعرف إن كان بوازع شرير منه أم عن جهل، لكن الكأس فعلت بي أشياء لا تُعقل، وكان هذا من سوء حظ الغلام.

يقولون إنني دخلت إلى القاعة وأنا أضحك وأهذي بأبيات من الشعر، ثم ما لبثت أن وقفت على مائدة من الموائد الصغيرة الممتلئة بالفاكهة والجوز واللوز، رفعت جلباب نومي وتبولت أمام الناس، أمام أبي بالذات! يقولون إنه ضحك وحملني في حضنه بعد أن سترني ونادى الغلمان، وطلب منهم أن يتعرف على الغلام الذي منحني الخمر حتى يكافئه، لأنه كشف له أن ابنه شاعر حقيقي في هذه السن. تقدم الغلام بفخر، اقترب منه أبي وحضن رأسه بكفيه، كان يرفعه لتتبدى العنق الرقيقة للغلام، ثم بحركة بسيطة وسريعة قطع رأسه بسكينه التي لا تفارقه حتى وهو يرقص. كانت هذه هي اللحظة التي أفقت فيها وأنا أرى الرأس يتدلى والدماء تنفجر، لأيام طويلة لم أنَم ولم أرَ إلا اللون الأحمر في كل مكان.

عشت في ظل أمي، وجاريتي رزقة، تخطيت واقعة القتل هذه ووقائع أخرى مماثلة تحدث كل حين بفضلها. تحكي لي حكايات جميلة عن عالم يشبه عالمي لكن ليس هو، تطعمني البراءة والحنان واللطف، والفن أحيانًا. وكنت ألف مع رزقة في الحدائق بالساعات لألعب، علمتني من دون أن تقصد كيف أنتبه للجمال حولي بانبهارها بكل تفصيلة وتحويلها إلى حكاية. أما الرجل الذي هو أبي فاهتم بتعليمي الأدب والعلوم ومهارات الحرب، مثل رمي الرمح وسباقات الخيول والنيشان والعدْو وغيرها. كان يأمر فقط ويأتي إليَّ بالمعلمين. أما من علمني فعلًا وصبر عليَّ حتى أُتقن كل هذه الأمور، فكان أخي إسماعيل، كان يستحسن شِعري ويشجعني على الكتابة كذلك، لم يكن يهاب القتل مثلي، لم أرَه إلا محاربًا شجاعًا. لم أعرف قَطُّ ما كان يدور بداخله، مثلما لم يعرف ما بداخلي، ربما لأنه الأكبر والأقرب إلى أبي.

حتى أتممت العاشرة، وطلب مني أبي أن أرافقه في رحلات الصيد، وهناك أرادني أن أصوب سهامي نحو الغزلان والأرانب، كانت أصعب لحظات حياتي، طفل صغير لا يريد أن يقتل لكنه إن لم يفعل خسر حب واحترام أبيه. الحيلة التي توصلت إليها آنذاك هي أن أصوب سهامي في اتجاهات خطأ بفرق ضئيل يوحي إليه بغشامتي وليس برفضي. كان ينالني سخطه أيضًا، ومع سخطه، صبره على هذا الولد الغض الذي لا يعرف كيف يصيب فريسته، المهم أنه لم يفقد الأمل مني.

الآن أقول إن هذا الرجل يفهم قرار الناس، وبالتأكيد أدرك حالي وتغاضى عنها بقصد حتى لا تسوء الأمور بيننا. أو لأنه في هذا الزمن لم يكن يتوقع مني أن أكون خليفته، وأن يؤول ملكه إليَّ. وأنا الآن بعد موته يتأكد لي أنني لم أسامحه، على أمرين بالذات وعلى كل شيء في إجماله. الأمر الأول أنه قطعني عن صديقي الأقرب. لقد عشت سنوات شبابي وحيدًا لم يكن لي إلا الشعر ولياليّ الأنس، وكانت حياة ناقصة لأنني لم أجد فيها من يفهمني. الكل كان يتملقني ولم يكن بطبيعته معي، إلا هذا الصديق الذي انشقت الأرض عنه عندما كنت أقود جيشًا في شِلب، نعم قد كنت أقود الجيوش من عمر الثانية عشرة ضد رغبتي، فلم تطِب لي الحروب ولا مشقة الإمارة، لكنني دُفعت إليها فأصبحت مشتتًا بين أمرين.

صديقي هو الرجل الوحيد الذي كان على طبيعته معي، وكان ينقد شعري ويناقش أفكاري ندًّا لند، ومع ذلك يمنحني أنسه ولطفه ومحبته، وقد أتيت به إلى إشبيلية قبل سنوات وأقام معي في القصر. جعلته يشاركني كل شيء؛ لهوي وأسفاري، وأهم شيء أشعاري، ربما لأنه يكبرني بأعوام وله باع في كتابة الشعر. أكمل هذا الشاعر الشريد نقصي وأصبح أقرب إليَّ من أهلي.

لم يعجب هذا الملك واستغل فرصة خسارتي في حرب علي بن عبدوس ليطلب رأسي وينذر دمي، لم يرجعه عني إلا قصيدة كتبتها أستعطفه فيها، أرسل إليَّ بعدها بأيام أنه قبِل عذري وولاني إمارة شِلب، لكنه في اليوم نفسه كان قد أصدر قراره بنفي صديقي إلى سرقسطة.

* * *

بعد فترة من الصمت ناولته فيها اعتماد مشروبًا ليبل ريقه، وتناولت هي عصيرًا لتستطيع أن تبلع كلامه وحزنه ودموعه المحبوسة. لكنه رفض أن يشرب وقال:

- من اليوم لن تدخل فمي خمر، ضعي لي من عصيرك.

نفذت أمره وهي تلجم ابتسامتها قدر الإمكان، فشربه للخمر كان يؤلم فيها البنت المتحفظة التي أتت من مصر، ثم سألت وهي تجلس على الفراش عند قدميه:

- وما الأمر الثاني الذي لم تسامح عليه الملك؟

استمر في الحكي...

* * *

أتعرفين الشرفة الخلفية المزروعة بالورد الجوري التي تحاوط غرف النوم الملكية في القصر؟ في طفولتي كانت مزروعة بالياسمين، وكانت مكان لعبي حيث لا يراني ولا يشعر بي أحد. هناك في الفراغ بين جدران غرف النوم والسور المغطى بالأغصان المتحاضنة، تحت النوافذ المؤصدة، حيث كل شيء له رائحة الياسمين، كنت أجلس على الأرض ألعب بالقطع الخشبية وبقايا من ورق الأشجار والغصون، وبعض النقود المعدنية وأي غرض كنت قد التقطته واحتفظت به. أصنع منها بيوتًا وأناسًا وحيوانات أيضًا، أسيّر حيوات بأكملها، أديرها كما أشاء وأجعل الأب رجلًا بسيطًا، عاديًّا، يحب عائلته ويصادق أبناءه ويقوم بمواقف بطولية من أجلهم. أحيانًا كنت أخلق أصدقاء فقط، أجعلهم لطفاء ومتمردين وباقين. كان لديَّ خيال واسع أهرب إليه كل حين.

كنت معزولًا مع خيالي، أصدقائي هم إخوتي وعدد قليل من أقاربي، لا أحد منهم على طبيعته. لذلك، ربما تجدينني الآن بين الكثير من الناس، وجودي بينهم يمنعني من أن أستعيد مشاعر العزلة في هذه الأيام البعيدة. عندما أصبحت شابًّا صغيرًا، استبدلت بلعبة صنع الحياة كتابة الشعر. الوقت الذي كنت أقضيه لأرصَّ قطعي وألعب بالشرفة قضيته وأنا شارد في السماء والشجر وزخارف الجدران وحتى طوب الأرض، أصبح الشرود ملهاتي وسعادتي لأنه تعقبه الكتابة.

كان القصر في هذه الأيام محتقنًا بالغضب الفائض عن معدله المعتاد. بدأ الأمر عندما فر أخي إسماعيل وزوجه وأبناؤه وبعض الجنود الموالين له، خوفًا من بطش الملك الذي توعده بالقتل، لأنه رفض أن يهاجم قرطبة ويستولي عليها. هرب إسماعيل واستجار بحصن ابن أبي حصاد الذي وشى به للملك، فعاد إسماعيل صاغرًا إلى قصر إشبيلية، لكنه منذ أن عاد حُبِس في جناحه، لم أرَه حتى سمعت صوته في هذا اليوم.

كنت مستندًا إلى الجدار ألتقط الشِّعر، سمعته يلهث ويتنهد ويتمتم بكلمات، انتفضت من مكاني واقتربت من نافذة في الشرفة، تجعل من السهل أن أرى من دون أن يراني أحد، رأيت إسماعيل وهو يتذلل إلى هذا الرجل الذي وقف عاقدًا ذراعيه على صدره يمشط لحيته وهو بثياب النوم، مما جعلني أكتم ضحكة. قطفت زهورًا من الياسمين، ولففت بسرعة ذاهبًا تجاه الباب لأحتضن إسماعيل وأمنحه الزهور التي يحب رائحتها، لكن شيئًا أوقفني عند عتبة الباب، شيئًا غير الهدوء الثقيل، فقد آلمني أن أرى شَعر إسماعيل الأسود الجميل وهو هائش ومبعثر، وعينيه الواسعتين وهما مريضتان وحمراوان، يبدو عليه أنه لم ينَم أيامًا. كانت قسماته وسيمة وتعِبة عندما رفع المعتضد ذراعه فجأة وغرز شيئًا في صدره، شيئًا أعرفه جيدًا لكن ذاكرتي وذهني وكل شيء غاب عني في هذه اللحظة. رأيت أخي وهو يسقط على الأرض والمعتضد يعود خطوة إلى الخلف، سمعت صوته لآخر مرة وهو يزفر آهة مزقت نياط قلبي. سقط الياسمين من يدي وأنا أركض

تجاهه، قبل أن أصل إليه أمسك الملك ذراعي، ودخل بعض الحراس وطلب منهم الملك أن يحملوا أخي. قال لي كلامًا لا أذكره لأن روحي كانت هناك تسير وراء خيط الدم الذي يُرسم على الأرض، وعينَي معلقتان بالنور الذي يخبو في عينَي إسماعيل. أسأل نفسي: «هل سيعيش؟»، «هل أنا في كابوس وعليَّ أن أتفل عن يساري ثلاث مرات وأستعيذ باللـه من الشيطان الرجيم؟»، «هل سيقتلني أبي أنا أيضًا؟».

نظرت إلى عينَي القاتل الذي أمسك بكتفَي وهو يحدثني عن المؤامرة والموالسة، وأن الخلاص من إصبع فاسدة في اليد يكون بقطعها، وأنا أنظر إليه ورائحة الياسمين المختلطة برائحة الدم تملأ أنفي وجسدي، أنظر إليه وأتمنى أن أقتله.

لسنوات وأنا أعاتب نفسي على هذا الشعور، ولم أتخلص منه بداخلي. لقد قتل أبي أخي. وإن هذه إشارة إلى أنه مستعد لقتلي أنا أيضًا. الفرار منه ليس بالحل الصائب، والبُعد عن ملكه ليس بالصواب أيضًا بما أنني أصبحت خليفته، الحل الوحيد الذي تمثل أمامي هو أن أمنحه الحنان الكاذب لأؤمن نفسي من شره، هو ملِكي وقائدي وولي الأمر، لكنه أبدًا ليس أبي.

وأول ما فعلته عندما أصبح لي شيء من السلطة هو أن أمرت البستاني بإزالة زهور الياسمين، ووضع زهور أخرى ليست لها رائحة.

١٧

خمسة عشر يومًا قضتها اعتماد في كتابة أول قصيدة عاطفية لها، نال منها التعب وتسلل إليها الفراغ، بعد أن كانت ممتلئة قبل الكتابة. عطلتها المقاطعات من نداءات الباعة وصليل النحاسين والسقايين وطلبات أمها التي لا تنتهي. وأنهكتها الإعادة وعدم الرضا والخوف كلما فكرت في أنه من الممكن أن يقرأ أحدهم كلمات لها تعبر عن الوله والعشق، وهي التي لم تكمل عامها الثالث عشر. لقد كتبت الكثير من أبيات الشعر من قبل عن الحياة والوحدة والصداقة، لكنها لأول مرة تكتب عن الحب.

أول من فكرت في أن تريه قصيدتها هو إبراهيم، ربما لأنه كان أمام عينيها وفي ذهنها وهي تكتب. تتخيل نظرة عينيه وهو يقرأ، مشدوهًا، سعيدًا. تتخيله وهو ينطق برأيه ويُطري على كلماتها، تتخيل مناقشته لها وربما محاولته لإقناعها ببعض التغييرات. تبتسم عندما تتخيل غيرته بعدها وكيف سيحاول أن يكتب قصيدة أفضل: «سيقلدني ويكتب عن الحب». هو أيضًا لا يكتب إلا عن المشاعر الأخرى الحزينة.

في اللحظة المنتظرة، عندما قرأ قصيدتها هناك في منتزه النخيل تحت نخلتهما المفضلة، أخفى عينيه عنها، ظل صامتًا لثوانٍ قبل أن يقول:

- يجب ألا تكتبي عن هذه الأشياء.

صُدِمت اعتماد من ردة فعله، ظلت تنظر إليه وهو لا يبادلها النظر. سألته متمنية أن تكون أساءت فهم جملته:

- لماذا يا إبراهيم؟

- لأن بها فجورًا!

قالت وهي تنهض:

- هذه كلمة كبيرة يا إبراهيم.

- هذا ما قرأته في قصيدتك.

- ما كتبته حب.

- ذكر الحب والشوق... أستغفر الله... فجور.

- أليس هذا جزءًا من الشعر الذي نسمعه ونقرأه؟

- أن نسمعه شيء، وأن نكتبه شيء آخر.

- أن نكتبه أم أن أكتبه؟

لم يرد إبراهيم وظل يحدق إلى الأرض. قالت اعتماد بعد أن طال صمته:

- لقد كنت تستحسن شعري وتشجعني على الكتابة.

نهض إبراهيم ليقف أمامها مباشرة الآن:

- نعم، لكن هذه القصيدة لم تعجبني.

- ليست جميلة؟

- نعم.

- لا يهمني رأيك. لأنك قلت الحقيقة في البداية.

- اسمعي يا اعتماد، أنا أخطط لشيء فلا تستعجليني لأقوله.

جعدت اعتماد قصيدتها واستدارت لتمشي بعيدًا.

- اعتماد... توقفي.

استدار ليقف أمامها مرة أخرى:

- أنا الآن في الرابعة عشرة، ولا يمكنني أن أخطبك.

صمت لثوانٍ، فعادت اعتماد تنظر إلى عينيه الخجلتين.

- أنا أخطط لأن أتزوجك عندما أبلغ السادسة عشرة وألتحق بالعمل مع أبي.

سألته وهي ساهمة:

- ولماذا تتزوجني؟

- تصرين على أن أقول؟

- أنا لا أفهمك.

- أنا أحبك.

- وأنا لا أحبك.

قالتها اعتماد بسرعة من دون تفكير، ثم سارت بعيدًا عنه. ناداها ولم تُجِبه. اتجهت إلى البيت مباشرة وهي تحمل مشاعر غريبة لم تشعر بها من قبل، ليست مشاعر حب أو خذلان، إنها تشعر بالخسارة، لقد فقدت صديقها الآن.

قابلها أبوها في ساحة البيت، حاولت تجنبه والدخول بسرعة قبل أن يلحظ الغيام على وجهها، لكنه بعدما مرت به استوقفها، استدارت لتنظر إليه فوجدته ممسكًا بقصيدتها المجعدة التي سقطت منها سهوًا. سألها:

- ماذا بكِ؟

- لا شيء.

- هل لي بقراءة هذه الورقة؟

صمتت اعتماد في حيرة من أمرها، لكنه لم يمهلها، فردَ الورقة وبدأ يقرأ قصيدتها الأولى عن الحب. أحيانًا يشعر الشخص المصدوم أنه يحلم، هذا ما شعرت به اعتماد في هذه اللحظة، شعرت بأن المكان خالٍ تمامًا من الهواء، وبدأت تلتقط الأنفاس من فمها، كان ينظر إليها مشدوهًا، ثم قال:

- هل هذه كتابتكِ؟

أومأت بتردد. تمتم وهو ينظر إلى الورقة:

- تكتبين أجمل من كل الشعراء الذين قرأت لهم.

لم تصدق اعتماد ما سمعته، نظرت إليه تبحث عن تفسير أو عن حلقة ناقصة، نظر إليها بفخر وفتح ذراعيه فدخلت بينهما من دون تفكير وبدأت في النحيب. ربَّت على كتفها وهو يقول:

- سيكون لكِ شأن، ربما أكثر من كل أولاد وبنات الحي.

نظرت إليه تسأله:

- حقًّا؟ هل كتابتي جيدة؟

قال مطمئنًا:

- حقًّا وصدقًا، عليكِ فقط ألا تصدقي من سيقول لك غير ذلك. وعليكِ أيضًا ألا تجعلي أحدًا من أهل الحارة يقرأ ما كتبتِه، لقد حاولت من قبل أن أثنيكِ عن الشعر، خوفًا عليكِ، لكنني الآن أدرك أنني لن أستطيع، فعلى الأقل انتظري حتى يكون الوقت والمكان المناسبان له.

تركته اعتماد وقد عاودها الامتلاء، تريد أن تكتب ثانية، أو أن تفكر وتنشغل بما ستكتبه، تريد أن تختار كلمات أجمل وأبياتًا أعذب، صحيح أنه طلب منها ألا تجعل أحدًا يقرأ ما تكتب، لكنها كانت قد أخذت جرعتها كاملة من الثقة.

١٨

بعد اعتراف الأمير ظلت اعتماد تسأل نفسها: «ما الذي يمكن أن يقدمه أب لابنه أسوأ من أن يجعله يمثل عليه الحب والاحترام؟».

في الصباح عاد ابن عبَّاد إلى بشاشته ولطفه وكلماته القليلة، ثم بدأ حملة ضخمة من التغيير في القصر، أول أمر فيها هو التخلص من السور المحمل بالرؤوس. أخيرًا فتحت اعتماد ستائرها، وشمت النسيم، وأملت عينيها ببديع حدائق القصر. توالت قراراته بعد ذلك، خصص أماكن أكبر للحفلات والندوات الشعرية، ونظم جدولًا أسبوعيًّا لها يدعو إليه كل الشعراء من ربوع الأندلس ومن الحجاز ومراكش أيضًا. أمر بإطلاق المعازف كل ليلة بلا انقطاع وإقامة الولائم بشكل دوري، حتى أتى اليوم الذي جمع فيه الناس ليخطب فيهم.

وقف على منبر في ساحة الجامع الكبير أمام الجموع وقال:

- إن دولة بني عبَّاد هي أمانة عندي، وإني أتعهد إليكم أمام الله تعالى وأمام نفسي أن أرفعها إلى أوج مكانة، وأزيد من عظمتها وأحكم سياستها وأحسن التدبير، وأن أقود الجيوش فأكون في أول الصفوف، وأن أحترم الجميع، لا فرق عندي بين مسلم ومسيحي ويهودي، أن أكرم الجميع، لا فرق في ذلك بين أمير أو خادم، أن أسهر على راحتكم قبل راحتي، وأن أقود بالخير وثقتي بعوائده، وبالشباب وثقتي بذكائهم، وبالقوة وثقتي باستخدامها فقط ضد الأعداء. ولن يكون بيننا أعداء.

استمر يشارك الناس في أحلامه للبلاد، ولم يكن حديثه وحده هو ما يشدهم إليه، إنما عذوبة روحه التي فاضت في كل مكان، حتى ختم كلامه بما لم يتوقعه أحد:

- ومن اليوم أصبحت كنيتي «المعتمد على الله»، المعتمد على الله بن عبَّاد.

انهال التصفيق من كل جانب ودوى ضجيج الفرحة عاليًا. لم يذكر ابن عبَّاد أنه اختار اسمًا مشتقًّا من اسم اعتماد، وإلى أن يموت لن يذكر هذا الأمر أمام الناس، لكن كل الناس عرفوه، وأولهم اعتماد التي انكمشت للحظة عندما وصلت إليها خطبته وإعلانه عن كنيته ببساطته المحببة. بمجرد أن انفردت به أحاطت جسده الكبير بذراعيها، تضمه إليها من دون كلمة وهي تضحك وتبكي، وهو يؤكد لها أنه لم يكن ليختار كنية لا تشاركه فيها.

وكان من أول القرارات التي اتخذها المعتمد هو إعادة صديقه الذي نفاه المعتضد وتقليده إدارة شِلب، ومنح أبي القاسم الهوزني وزارة القصر. بعد عدة أسابيع من توليه الحكم حضر صديقه من السفر أخيرًا، أقام له وليمة خاصة، طعمها بكل أنواع اللحم الذي يعرف شهية صديقه له، وأعد له

الشراب على الرغم من توقفه عن الشرب، حتى يسعد صديقه العائد من محبسه. وأمر بإعداد جناح له يقيم فيه إلى أن يذهب إلى قصر له في شِلب. كانت فرحته بالقادم كفرحة الأطفال عند حضور ضيف عزيز، شاركته فيها اعتماد وزينت أولادها الثلاثة لاستقباله مع أبيهم، ثم خرجت هي أيضًا برغبة من المعتمد لملاقاة الصديق الذي يسعده حضوره فيسعدها في المقابل. هذا الرجل الوحيد الذي استطاع أن يثير إعجاب المعتمد وغضب أبيه إلى هذه الدرجة. مشت تجر ثوبها الطويل الكستنائي، ودخلت عليهم مرتبكة من زوجها الذي لم يتوقف ثانية عن الترحيب بصديقه ويده فوق يده وعيناه لا تحيدان عنه. استدار إليها المعتمد قائلًا:

- ها هي ذي اعتماد حبيبتي.

ابتسمت له في اللحظة التي استدار إليها صديقه فرأت العينين اللتين تعرفهما جيدًا، عينَي أبي بكر بن عمَّار.

١٩

تستدير اعتماد وتنظر بعينيها الصغيرتين الشقيتين إلى أمها، فتمنحها الأم قُبلة سريعة، وتكمل تمشيط شعرها، وهي تغني لها أغنية من الأغاني الكثيرة التي تخترعها لتدليل أطفالها. تجمع شعر ابنتها الممشط في ضفيرتين صغيرتين متدليتين في المسافة الدقيقة بين الكتف والعنق، ثم تمنح اعتماد قبلة أخيرة على رأسها هذه المرة. تتشاركان الفطور وحدهما، لأن أباها بالدكان، وأخاها بالكُتاب، وأختها عند الجيران. لا تفطر أمها عندما تكون وحدها إلا الجبن الأبيض والجرجير، ووجود اعتماد معها يعني أنها وحدها أيضًا.

تنزلان إلى السوق بعد الفطور فتَسعد اعتماد أيما سعادة، تشاهد الناس والشوارع والدكاكين، تختلس النظر إلى السماء والشجر والقطط والكلاب، تلفتها ألوان الخضر والفاكهة، وتود أن تلعب بها مثل أقرانها من الأطفال الذين يتقاذفون التين أو يدحرجون البرتقال، لكنها ممنوعة من الشقاوة وإلا ستبقى في البيت. تجذبها رائحة الكنافة ورائحة الفطائر بالعسل. تتوقف حينًا عند باعة الحلوى فتخيرها أمها لأن لها طلبًا واحدًا فقط مجابًا، تضطر إلى اختيار البليلة لأنها لن تلزق بيديها. لكن في هذا اليوم كانت الألوان والأصوات أكثر من باقي الأيام، هناك صوت مزمار عالٍ، وحول مصدره يقف العديد من الأطفال، بعضهم مع أهاليهم. هي لا تذكر تمامًا ما حدث وكيف حدث، لكنها وجدت نفسها هناك بينهم من دون أمها.

الساحر أفزعها، يضع كحلًا في عينيه مثل النساء، ويرتدي أسمالًا سودًا، وله أسنان متآكلة غير

متساوية، وبينها فراغات مخيفة، لكنه مع ذلك لا يتوقف عن الابتسام للجميع. ابتسم لها وهو يخرج حمامة من عباءته المهترئة فشهقت، ثم ضحكت مع الناس وهم يضحكون. لقد نسيت أمها تمامًا الآن. مد لها يده وقال:

- تعالي... ما رأيك أن تدخلي عباءتي لتري بقية الحمامات؟

أومأت، وشعرت بأنها مسيَّرة إلى فعل ذلك وعليها ألا ترفض حتى لا تفسد متعة المشاهدين، ولسبب آخر، أنها أرادت أن ترى الحمامات فعلًا.

أدخلها عباءته فشمت رائحة كريهة للغاية، تشمها عندما تسير مع أمها بمحاذاة جبل القمامة الكبير بعد السوق، أو التي تشمها وهي تنتظر مع أهلها الجزار أمام حظائر البهائم. أمسكت أنفها الصغير وحاولت أن تغمض عينيها قبل أن تشعر بيد صغيرة مُشعرة تمسك وجهها وتكتم أنفاسها، لم تستطع الصراخ لكنها بدأت تبكي من فكرة أنها لن ترى الحمامات، ولن ترى أمها ثانية، وستبقى محبوسة ملتصقة بجسد مثل حظيرة البهائم لبقية حياتها. رأت قبسًا من النور لثانية وسمعت صوته وهو يقول:

- ها هي ذي الفتاة أصبحت أرنبًا.

سمعت ضحك الناس الشديد، ثم صوته مرة أخرى يقول:

- هل تريدون أن تعود الفتاة؟

صرخوا بـ: «نعم». قال:

- حسنًا ادعوا للعبد الفقير، وأنقذوه المال الوفير.

سمعَت بعض الزمر ورنين نقود تلقى على الأرض ودعوات من هنا وهناك، حتى صمت الجميع. وفي لحظة تركتها اليد الصغيرة ونظرت إلى عينَي القرد الذي كان يمسكها قبل أن يفتح الساحر عباءته وترى النور مرة أخرى. همس إليها:

- إذا نطقتِ سأضعك في قِدر وأشرب حساءك.

صفق الناس لكنها تخللتهم وركضت بسرعة تجاه السوق، رآها بائع الخضر فنادى بصوت عالٍ:

- يا أم حسين، يا أم حسين، البنت عادت.

رأت أمها تهرول تجاهها وتوقعت أن تضربها مثلما ضربت أم محمد ابنتها خديجة عندما تاهت، لكنها ضمتها إليها بقوة وحملتها والدموع تغطي وجهيهما. في الطريق إلى البيت حكت لأمها أنها سرحت مع صوت جلبة الأطفال حول الساحر ولم تحكِ بقية الحكاية. سألتها:

- هل أنتِ غاضبة مني يا أمي؟

ردت:

- في حياتي كلها لن أغضب منك أبدًا، أسامحك مقدمًا حتى على الأشياء التي لم ترتكبيها بعد.

تنهدت اعتماد باطمئنان، وهي لا تعرف أنها لسنين طويلة ستظل تتردد في خيالها صورتها في قِدر والساحر يشرب من حسائها.

٢٠

٤٦٦ هجريًّا

كل الأشياء تمر من عقل اعتماد وقلبها إلى المعتمد، بسهولة وبساطة يمتزجان فتمتزج كل الأمور بينهما، إلا أمر واحد يظل عائمًا على سطح تفاهمها الكبير كبقعة زيت لا تذوب، أمر حدث في الماضي ولا تستطيع مصارحته به ولا تملك كتمانه. يؤرقها كل حين لعدة أعوام، وهي تحمله بين جنباتها كأنها تحمل شوكة ضخمة، تجرحها مع كل حركة صغيرة، لكنها لا تفكر في نزعها حتى لا ينفتح الجرح عن آخره.

السماء ملبدة بغيوم ليلية، كأنها تلبس عباءة صوفية لها زرقة داكنة، لا هواء يمر منها ولا عتمة تنقصها. اعتماد تجلس على أرجوحتها كعادتها كل مساء وأمامها المعتمد في الفراش، تحكي له حكايات من الماضي والحاضر والشرق والغرب، وهو لا يتوقف عن النظر إليها، ثم في لحظة معينة يشير إليها لتكمل حديثها إلى جواره. عشرة أعوام الآن وخمسة أولاد ولم يمَلَّ المعتمد من طقوس الحب معها، بل إن كل أهل القصر كانوا يتناقلون الحديث عن السحر الذي تصنعه اعتماد للمعتمد، عن سر لياليهما الطويلة معًا التي لا تنتهي، حتى على الرغم من زوجتيه الأخريين، وعلى الرغم من سهراته وجولاته في إشبيلية، حتى أسفاره كانت أقل من أي ملك آخر، كأنه يكره أن يترك القصر ويترك معه اعتماد.

في سنوات حكمه زادت رقعة ملكه من دون الكثير من الحروب، كان يأخذ المدن التي مات وضعف ملكها، وأصبحت عرضة للضياع أو لسطو الإسبان. يحاول أن يدير كل الأمور بسياسته وحكمته، آخر ما يريده المعتمد هو أن يهاجم أندلسي أندلسيًّا آخر، لذلك آثر أن يوسع على الناس في أمورهم المادية حتى تهدأ النفوس وتقل الشرور. فعاشت طبقة التجار والخدميين في رخاء، لكنه غفل في ذلك عن العامة الذين ثقلت عليهم الديون والضرائب، وهذا ما حاول طاهر مرارًا أن ينقله إلى اعتماد المشغولة بأمور عدة، آخرها العامة.

تحدث دائمًا مناوشات هنا وهناك بسبب اعتراض المدن الأخرى التي تحت ولايته على توزيعه للأموال، لذلك كان عليه كل حين أن يقوم بزيارة للمدينة التي تقوم فيها الفتن قبل أن تصل الأمور إلى الغليان، وبخاصة شِلب ليقابل صديقه الأقرب. لكن بعد سنوات قليلة من حكمه اختار ابن عمَّار

أن يترك إمارة شِلب لوزير آخر، وأن يعود إلى إشبيلية، فما كان يطيق مفارقة المعتمد ولا المعتمد كذلك. ولسبب آخر لم يُبح به ابن عمَّار، وهو أن شِلب كانت مدينة فقيرة، وقصرها متواضعًا، وأموالها قليلة وبعيدة عن مركز الحكم، فقرر أن يقيم في قصر المعتمد إلى أن يعد له قصره الخاص في الجوار.

تضيق أنفاس اعتماد، وتجد الهواء بصعوبة عند وجود أبي بكر في القصر، تتجنبه بالانشغال بالأطفال والمطبخ مع الجواري، لكن يظل شيئًا بداخلها ينغزها. ثم تعود لتؤنب نفسها أن لديها أي نوع من الشعور حتى إذا كان الكره تجاه هذا الرجل. إن ما لديها قلق ممتزج بالفضول، قلق من أن تظهر الحكاية القديمة على السطح وتعكر حياتها، وفضول لمعرفة كيف أصبح هذا الرجل بعد كل ما مر به وبعد أن صار وزيرًا. في السنوات الأولى لمعاودته الظهور في حياتها كانت تحتقره وتظهر له القرف والكره، ثم توقفت عن ذلك من أجل المعتمد الذي لاحظ، وطلب منها أن تكون لطيفة كعهدها حتى إذا لم ترتَح لصديقه، فأصبحت تعامله كأنه غير موجود، لكنه لم يتوقف عن إلقاء السلام عليها ومحاولة الكلام معها، خصوصًا في غياب المعتمد.

ثم اختفى بين السفر والسهر ولم تعد تراه إلا نادرًا، وإن كانت تسمع عنه بين الحين والحين، هي أيضًا انشغلت بالحمل والأطفال. ثم عاد ليظهر بعد أن جعله المعتمد وزيره ومستشاره الخاص، لكنه أصبح يتحاشاها ويتجاهلها بعكس محاولاته السابقة. ثم كانت ليلة بينما تستعد اعتماد إلى الذهاب إلى ندوة شعرية في بيت جليلة بنت الوقاد، والمعتمد مع إحدى زوجتيه، وجدت أبا بكر يقف أمام الباب كأنه سيمنعها من الخروج، أشارت إليه بيدها أن اذهب جانبًا، لكنه لم يتحرك، قالت:

- ابعد.

فلم يبتعد، اضطرت إلى النظر إليه، ثم قالت:

- ألا تفهم؟ أريد أن أخرج.

- لماذا تكلمينني بهذه الطريقة؟

تأففت، ثم قالت وهي تشير إليه ثانية ليبتعد:

- الباب!

ابتعد هذه المرة لكنه خرج من العتبة بعدها وسار إلى جوارها تجاه العربة. التفتت إليه ثم قالت:

- ماذا تفعل؟

- أصاحبك إلى الندوة.

- هل جُننت؟ أين الحراس؟

- صرفتهم وسأذهب معكِ إلى الندوة.

قالت مبتسمة بسخرية:

- هل أخذت موافقة المعتمد؟

نظر إليها بغلٍّ واضح وأومأ برأسه. قالت:

- حسنًا، لكنك لم تأخذ موافقتي.

- لستِ بملكة البلاد.

قالت وهي ما زالت مبتسمة:

- بل أنا أهم من ذلك.

قال بنفاد صبر وهو يتابع السير:

- حسنًا، هيَّا أيتها المهمة لا تؤخرينا عن الندوة.

أزعجها أنها كتمت ضحكة، وأزعجها أكثر أن المعتمد وافق، تعرفه جيدًا وتعرف أنه لا يضع نفسه في ميزان أمام رجل آخر، ولا يمر في فكره مجرد احتمال الغيرة، المعتمد لا يغار وهذه حقيقة عرفتها عنه منذ زمن، أغضبتها حينًا حتى اعتادتها وفهمتها، فهو لا يغار لأنه لا يقيس الناس ولا المشاعر، يثق بنفسه ثقة الليل بطلوع النهار، والأهم من ذلك أنه حسن السريرة.

جلس أبو بكر قبالتها في العربة وبدأ يشرب من قِربة أخرجها من ثيابه.

قال:

- لماذا تتجهمين في وجهي مثل ثعالب الماء؟

قالت وهي تنظر إليه:

- تأدب وأنت تتحدث معي.

تمتم:

- تغيرتِ.

كادت تضحك بصوت عالٍ، ولم يمنحها الفرصة لترد. طوال الطريق يحدثها عن كتاباته التي وصلت إلى كل ربوع الأندلس، أشعاره التي يتناقلها الناس كما يتناقلون تحيات الصباح، الندوات التي يُدعى إليها، المكانة التي وصل إليها، حتى انتبه إلى أنها لا ترد فسألها مباشرة:

- هل سمعتِ قصيدتي الأخيرة؟

قالت ببساطة:

- لا.

قال بانفعال غير ملحوظ:

- كاذبة! بل قرأتِها، أنتِ تقرئين وتسمعين كل ما أكتبه.

نظرت إليه باستخفاف وقالت:

- لا، لم أسمع ولم أقرأ أي قصيدة لك.

- كاذبة.

- أقسم لك لم أقرأ لك.

صمت حتى وصلا إلى الندوة، هناك وقفت جليلة بين الحضور كنجمة. كان لها حضور طاغٍ بسبب عطائها الدائم للجميع وبيتها المفتوح دائمًا، وأخيرًا لأشعارها، بجوار جليلة زوجها الشاعر أيضًا. وعندما بدأت جليلة الندوة وألقت أبياتها، تحدث عنها ابن عمَّار لعشر دقائق يطري على كل حرف، ثم ينظر كل حين إلى اعتماد محاولًا أن يقبض عليها وهي تضحك أو أن يحثها على الضحك. عندما ألقى هو أشعاره ماجت القاعة بالهتاف والاستحسان، واقتربت منه الشاعرات والجواري معجبات مصغيات، وقد رأت اعتماد هذا المنظر كثيرًا مع الشعراء بل وأحيانًا مع المعتمد نفسه، غير أنه لا يلقي الشعر بنفس طريقة أبي بكر الاستعراضية الباهرة، ولا يتجاوب مع النساء مثله بإعجاب مغطى بالصلف. بدأ عقلها من هذه اللحظة يقارن وبدأت تتعذب.

في طريق العودة حاول أن يفتح معها حديثًا عما قيل في الندوة، ينقد الشعر ويشير إلى الجميل منه، لكنها لم تتجاوب معه، بل تعمدت النظر إلى الطريق وعدم الرد عليه إلى أن وصلت إلى القصر وأسرعت إلى غرفتها. أمسكت ثياب المعتمد فورًا تشمها لتستعيد أنفاسها، لتستعيد الشعور بالأمان والثبات. لم تنَم ليلتها من الشعور بالقلق والقهر. ها هو ذا حبيبها في حضن امرأة أخرى، والآخر يريد منها شيئًا تعرفه. إنه يسبها، يقول كاذبة، يناكفها وينظر إليها بغلٍّ، إنه لا يشبه المعتمد اللطيف وابتسامته المطمئنة، ومع ذلك هناك شيء يجعلها تفكر فيه! هل لأنه كثير الحديث بعكس المعتمد الصامت أغلب الوقت، أم لأنه غليظ وقاسٍ والنفس تتوق إلى هذه السوقية أحيانًا؟ المقارنات مرة أخرى ومعها العذاب.

مرت عدة أيام لم تغادر فيها جناحها إلا قليلًا، تكتب وتصلي وتدعو الله كثيرًا أن يحميها من فتنة كبيرة تؤرقها وتخيفها. تقضي الوقت مع الأولاد محاوِلة التشويش على جزء منها يتوق إلى مغامرة أو إلى هروب آخر، لكن هروب ممَّن هذه المرة؟ من السبب الوحيد في شعورها بالأمان منذ أن أتت إلى الأندلس؟ من الأمير الوسيم النبيل الذي حقق لها نبوءة الحكايات؟ إن هذا الشعور بالرغبة في الهروب الذي يلازمها لا يعني إلا أنها ينقصها شيء جوهري في حياتها، كزرعة بلا جذور تميل كلما هبت ريح وتشتاق إلى أن تغرس بأرضها. لسنوات والمعتمد يتجاهل اتفاقهما ولا يساعدها على أن تصل إلى أهلها، ربما خائف من أن تصل إليهم.

دخل عليها وفي يده طبق كبير من البالوظة وملعقتان. لحظة أن رأته تطايرت كل أفكارها وذهبت إلى حيث لا تهتم، لحظة أن رأته نسيت أنها كانت تعبة وأرقة ومهمومة، تذكرت فقط أنها

تحب هذا الرجل.

في نهاية الليل بعد أن شبعا من الحب ولم يشبعا، قالت:

- ألا تفكر في أن تعيدني إلى الجواري؟

قال مداعبًا:

- لماذا؟ أنتِ جارية هنا فقط على هذا الفراش.

قالت بوجه جاد:

- أنا لا أمزح.

قال وهو يقلدها:

- وأنا أيضًا.

قالت متصنعة الغضب:

- ما الفرق بيني وبين الجواري؟

قال:

- أنتِ زوجة الملك.

ردت متهكمة ضاحكة:

- الملك له ثلاث زوجات.

قال مبتسمًا:

- وله حبيبة واحدة.

سألت بغنج:

- هذا يكفي ويزيد... لكن من هي؟ أنت دائمًا لست صريحًا يا مولاي.

- لأنني أحب أسئلتك.

- حسنًا، من هي؟ ولماذا هي؟

- لأنها الأجمل والأذكى والألطف، ولأنها أفضل شاعرة في العالم ولأنها إنسانة. أما من هي فستعرفين غدًا.

ثم أنشد:

حُبُّ اعتِمادٍ في الجَوانحِ ساكِنٌ

لا القَلبُ ضاقَ بهِ ولا هُوَ راحِلُ

يا ظَبيَةً سَلَبَت فُؤادَ مُحَمَّدٍ

أوَلَم يُروِّعكِ الهزَبرُ الباسِلُ

مَن شَكَّ أنّي هائِمٌ بكِ مُغرَمٌ

٢١

القصر مظلم، لا هواء فيه، على الرغم من أن الربيع والزهور بألوانها في كل ركن، والنوافذ مشرعة عن آخرها حسب نظام اعتماد منذ أن ماتت أم المعتمد من ثلاثة أعوام. لكن الهواء الذي يلف كل شيء يتوقف أمام اعتماد، كأنها محاطة بدائرة من الفراغ. المعتمد مسافر، وهي تشعر بالمرض يداهمها، وبالفراغ يتسلل إلى روحها. تتشبث به هذه المرة، لكنه يرفض، ويقرر وجود أبي بكر في القصر مجددًا، وهي لا تملك إلا الإذعان والتخطيط لهروب آخر من نفسها.

على مائدة الطعام وكل العائلة حاضرة، كذلك الأصدقاء والخدم والجواري، لتوديع الملك والبقاء في خدمته إلى آخر لحظة، قال المعتمد خطبة قصيرة:

- أريد فقط أن أقول إن هذا السفر قد يمتد، إن طال فهو أمر الله، وإن قصر فسأعود لأبدأ عهدًا جديدًا يكون فيه الشباب هم العماد، والمال هو السند، ودولتنا العظيمة هي الأمل. وإلى أن أعود سيكون مكاني في القصر الآمر والناهي في شؤونه بعد استشارة الوزراء، السيدة الكبرى.

نظر إليه الجميع في تعجب، فأشار إلى اعتماد التي تحركت في مكانها كأنها تهم بالوقوف من دون أن تقف، متفاجئة وموهومة، لا تعرف كيف تتصرف. عشر سنوات وما زالت لا تعرف كيف تكبح جماح مشاعرها وتتعامل بروية الملكات. إنه يعلنها الآن أهم سيدة بالقصر وليس فقط زوجته. ابتسمت وأومأت بالشكر، لكن في خيالها كانت هناك مائة قُبلة وحضن. لقد أتاها رده بأسرع مما توقعت، من هي؟ هي السيدة الكبرى.

بمجرد أن غادر المعتمد القصر توشوش الجميع، وبدأ الخدم والحريم في مناداتها بسعادة «سيدتي الكبرى»، أما زوجتاه الأخريان فانصرفتا إلى غرفهما من دون كلمة. نظر إليها أبو بكر باستخفاف فتجاهلته وتركته مع حاشية المعتمد. قضت الأيام الأولى تتنقل كنحلة بين الأطفال والزيارات والندوات الشعرية والأخرى عن العلوم المتنوعة. لم تعد تنجذب إلى الفلك، مالت أكثر إلى علوم الدنيا المعنية بالإنسان، لكن عاد أبو بكر يحاصرها ويحضر معها الندوات، محاولًا أن يبهرها بشِعره وحضوره، وعاد إليها عدم الاتزان والآلام والحيرة التي لم تفهمها. كأن الاستقرار في حياتها دائمًا مؤقت.

تزداد نوبات التعب في المساء، ليلتها راحت تتمشَّى في القصر لتهدئ من تفكيرها وتشتته، تحب هذا الضوء البسيط المنعكس على الطرقات والتحف والزخارف، الذي يجعل فورانها يهدأ وأفكارها تنام. وبينما هي في سيرها سمعت صوته المبحوح ينادي اسمها، هذا الصوت الذي يصدره عندما يكون في مزاج جيد. توقفت لثانية ثم تابعت السير، لكنه لم يتوقف عن ندائها فاضطرت إلى

الوقوف قبل أن يستيقظ أحد. إنه الآن يقف على عتبة غرفته وهو يرتدي عباءة تكشف صدره، الضوء الشحيح لا يخفي ضياء عينيه وسمرته وذقنه المطعم بالبياض. ترددت اعتماد قبل أن ترد:

- ماذا تريد؟

- تعالي.

يا لنداء الشيطان المغوي!

- تعالي... نتحدث بالداخل حتى لا نوقظ أهل البيت.

«أهل البيت!»، رددت في نفسها ساخرة. ومع ذلك ذهبت إليه ودخلت غرفته وهي تكتم كل مشاعرها ولا تسمح إلا للغضب بالظهور.

- ماذا تريد؟

أغلق الباب. الضوء وفير الآن، تراه بكل وساخته وجاذبيته، قال:

- توحشتك.

صمت حتى يرى ردة فعل كلمته على وجهها، ثم عاد يقول:

- ألم تتوحشيني؟

قالت من دون تردد:

- نعم.

- أنتِ خائفة؟

- كيف تقول هذا القرف لزوجة الملك؟

- لأنها جميلة وتقف الآن في غرفتي.

- كيف تقول هذا لزوجة صديقك؟

- لأنني أعرفها وأحبها من قبله.

اقترب منها، وفي غفلة من الحب وسطوة من الشيطان حاولت الشفتان المشققتان الغليظتان أن تقتنصا قُبلة من الشفتين البارزتين الممتلئتين مثل المشمش المجفف، لم تُقبل ولم تغمض عينيها مثله، ابتعدت وصرخت بصوت منخفض:

- كيف تجرؤ؟

قال وهو نشوان وسكران:

- ماذا؟ لست في حاجة لتطالبيني بالزواج الآن... ألست أنا أفضل من زوجكِ الغر؟

- صَه يا قذر.

- أطفئي ما هو مشتعل داخلنا منذ سنوات.

- أنت تستحق قطع رأسك.

قال وهو يحاول الاقتراب منها:

- عاهرة... العاهرة الكبرى.

لطمته على وجهه بقوة. ضحك وقال:

- أنتِ غاضبة لأنكِ تريدينني.

- أنا غاضبة من نفسي.

- لن يعرف أحد.

- لكن أنا أعرف.

تركته وهمت بالخروج فأمسك ذراعيها ودفعها إلى الفراش، سكنت ونظرت حولها وهو واقف أمامها كالحيوان المفترس الذي يراقب فريسته وهي تحته. اعتماد جسدها فتيٌّ وقوتها لم تختبرها بعد، شدت عمود الناموسية النحاسي من الفراش فنزعته من مكمنه، وفي أقل من ثانية رفعته وهوت به بكل قوتها على ساق أبي بكر التي كانت في طريقها لتحاوطها. سمعت صرخته فهمست:

- أما هذه فمن أجل المعتمد.

أسرعت إلى جناحها ترتجف من الغضب والقرف، شعرت بالسكاكين تمزقها من الداخل، تقتلها لحظة الضعف هذه، حتى وإن كانت مجرد دخول إلى غرفة. حتى وإن كانت صمتًا وجمودًا، ستكره أنها سمعت هذا الكلام ورأت هذا الوجه الخائن، لكن ما حدث في اليوم التالي سيغضبها أكثر من لحظة دخول الغرفة.

كانت تنوي طرده من القصر في الصباح، وعندما اقتربت من غرفته سمعت حديثه مع أبي القاسم الهوزني. الصباح باكر والخدم قليلون والطرقة خالية. كان حديثًا مبتورًا يفوح منه غلٌّ على المعتمد وتخطيط لقلب الناس عليه. عندما اقترب صوت الهوزني من الباب تحركت بسرعة تجاه أقرب غرفة، واختفت بداخلها تشعر بالمغص يزيد. إنها خيانة مزدوجة، وكانت على وشك أن تصبح طرفًا أصيلًا فيها، فكرت كرد فعل مبدئي في أن تقتحم عليهما الغرفة وتواجههما، لكنها خشيت أن ينقلب الأمر عليها، فكلاهما ليس سهلًا، وكلاهما له مكانة وثقة عند المعتمد. فكرت في أن تخبره لكنها خافت عليه من ألم المعرفة ومن تبعات ما سيحدث إن واجه أبا بكر بالذات. لم يبقَ أمامها إلا الصمت والمزيد من التفكير.

لعدة أيام لم تغادر غرفتها، تصحو لتتقيأ، وتتقيأ لتفكر، ويجهدها التفكير والألم، فيسلم الجسد نفسه للنوم مرة أخرى. أصابتها حُمَّى منعتها من الحركة والكلام. قلقت عليها قرة العين، وبطريقة ما جعلت طاهرًا يرسل الخبر إلى المعتمد الذي لم ينتهِ الأسبوع إلا وقطع سفره. ووجدته اعتماد يفتح الباب عليها ويجلس أمام الفراش يُقبِّل رأسها، وفي يده علبة، فتحها لها وهو يضحك لأنه يعرف كم تحب حلوى آذان القاضي! وكم يصعب جلبها في القصر، وهي لا تباع إلا في الأحياء الفقيرة.

امتص بلطفه كل الحزن والقلق والغضب، فطاب الجسد فورًا.

طاب مؤقتًا، إلى أن دخل الخادم بعد وقت قليل وقال للمعتمد:

- سيدي ابن عمَّار في غرفته ويريد مقابلتك.

٢٢

قال أبوها إن اللعب بالطين يجلو الحزن فيظهر من خلفه فرح.

وقالت أمها إن اللعب بالطين يلطخ المكان فيظهر من خلفه دنَس.

صبية على مشارف الثانية عشرة، أصابتها ضربة حزن فجأة، فأصبحت لا تلعب مع رفيقاتها، ولا تأكل الحلوى، ولا تشارك أهلها في الحديث. لا أحد يعرف أن روحها الغضة تائهة، لأنها تشعر بعدم الانتماء. كل أحلامها تتوقف على كونها بنتًا، ولو كانت ولدًا لاستطاعت أن تخرج للصيد والنزهات البعيدة، وأن تعمل في مهنة تُدر عليها المال، وأن تستمر في التعليم وحضور الحلقات والندوات، لاستطاعت أن تقرأ أشعارها أمام الناس. لكنها بنت فقيرة أقصى آمالها أن تتزوج مثل كل رفيقاتها الأكبر منها بأعوام قليلة، أو أن تظل في البيت تخدم أهلها إلى أن يموتوا وتموت. الغريب أن الحزن الذي داهمها كان سببه غير معروف لها أيضًا، مجرد أفكار هائمة تغرق فيها. تعرف أن الفقر وتعب أهلها من الكد الذي لا يقابله شيء أسباب أعظم للحزن، لكنها غيرهم أو تريد أن تكون غيرهم، وهذا سبب آخر للحزن.

انشرح قلبها قليلًا لسقوط المطر، ورمقت من النافذة الأطفال، ومنهم رفيقاتها يخرجن من بيوتهن لينهال المطر على رؤوسهن ويُرحبن به بالأغاني والضحك. ظلت تنظر إليهن وهي تريد مشاركتهن، لكن شيئًا بداخلها يكبلها، هواجسها وأحلامها ومخاوفها من الغد، تمسك قدميها مثل الأغلال، فلا تقوى إلا على المشاهدة من وراء النافذة. لكن هناك الأب والأم يدركان الحزن وهذه النظرات المضطربة التي اختلفت عندما بدأ المطر، يفكران في طرق لتتعافى ابنتهما مما أصابها، وكان الطين طريقة.

بدأ المطر يخف منذرًا بالوقوف، فأمرها أبوها أن تنزل للعب كعهدها، تململت، فلم يصر، لكنه طلب منها أن تحضر لهم دواءً من العطار القريب، وافقت اعتماد وهي تعرف نية أبيها. وافقت لأنها تتوق إلى أن تشم الهواء بعد المطر، ربما يزيح شيئًا من الثقل الذي ألمَّ بروحها، ووافقت لأنها يابسة وجافة وتحتاج إلى الطين لتعيد تشكيل همومها. خرجت حافية، كان المطر قد توقف، وما إن لمست الأرض الزلقة بالطين، حتى شعرت بأنها تنجو، وأن هذه الطراوة تحت قدميها هي كل ما تحتاج إليه.

هللت لها الفتيات بل وصرخت قمر ساخرة، أقبلن عليها ورُحن جميعًا يركضن على الطين ويتزحلقن ويسقطن ويملأن السماء بضحكاتهن، الفرح الآن يتسلل إليها. مطر خفيف عاد لينزل فأغمضت اعتماد عينيها وهي رافعة وجهها إلى السماء، وشعرت في هذه اللحظة بأن الكون كله مسخر لها، لهلاكها أو لنجاتها. هناك شيء كبير ينتظرها، لا يهم كيف تستعد له، لكنها الآن راضية وهادئة ومنتمية إلى هذه البقعة التي تقف فوقها، وهذه الضحكات التي تحاوطها، وهذا البيت الصغير الدافئ خلفها.

دخلت البيت والطين في قدميها والراحة في قلبها، فشهقت الأم وقالت:

- ألم أقل لك إنه يوسخ المكان.

٢٣

كيف تحكي اعتماد كل ليلة حكاية للمعتمد؟ من أين تأتي بكل هذه الحكايات؟ وما الذي لا يجعله يمل؟ وكيف تستمر في هذا طوال هذه السنوات؟

الإجابة: اعتماد تخرج كثيرًا، وتقابل الباعة والمشردين، وتحضر الندوات، وتسمع أحاديث البسطاء والملوك في آنٍ.

اعتماد لديها خيال حتى لو لم تخرج من القصر.

اعتماد لديها ذكريات في بلد بعيد لا تنساها، وماضٍ أندلسي من الأحزان والأفراح والمشاعر والطبقات الاجتماعية المختلفة.

المعتمد دائمًا يمنحها خيط البداية. وإذا رأى منها الأفول يسألها أسئلة تعيد شروق روحها.

كل الحكايات تفضي إلى الحب.

في تلك الليالي توقفت عن الحكي، وتوقف هو عن جرها إليه، أهمل هذا الطقس الحميمي بينهما، لم يبدُ عليه الهم على الرغم من ذلك، لكن هي من كانت مكسورة وعاجزة. تصمت أغلب الوقت وتعاف الطعام بل وتتقيأ بين الحين والحين سرًّا. لأول مرة تفشل في اتخاذ قرار ولا يساعدها حب المعتمد ولا كره أبي بكر على اتخاذه. لا تعرف حتى ما يدور في عقل المعتمد وما قاله له أبو بكر في تلك الليلة، تخشى أن تسأله حتى لا يتبدى عليها الاهتمام المفاجئ أو القلق المفاجئ. كل ما تفعله هو أن تنتظر أن يحدث شيء، علامة إلهية أصبحت كل ما ترجوه.

وقفت في نافذتها العريضة تراقب هطول المطر بعد شهر من الجفاف، يصبح العالم مستكينًا وقت نزول المطر. الألوان تبهت، الضوء يخفت، الحيوانات تختفي في جحورها، العصافير تحتمي بالشجر، الشجر يرق بالماء، الماء يجري على الطرقات، الطرقات تحمل كل أوساخ العالم الذي

يستحم الآن، الأوساخ تحمل بهجة الخطأ والحياد عن المفروض. على أطراف الحديقة التي تحيط بالقصر من الخارج تلعب فتيات قرويات يبعن اللبن تحت المطر، يرفعن أذرعهن النحيلة إلى السماء، يضحكن ويتزحلقن بمرح. عادت اعتماد بذاكرتها إلى البنت الصغيرة المهمومة التي كانت هي. إن كل ما تملكه عندما تنغلق الحياة في وجهها هو الحنين إلى حياتها القديمة. همست:

- يا ليتني معهن.

سمعها المعتمد وسألها:

- مع من؟

أشارت إلى الفتيات وهن يخلعن أغطية رؤوسهن ويرفعن جلابيبهن ويركضن في الوحل متسخات سعيدات. تبادلا نظرة عرفت فيها اعتماد أنه فهم ما تصبو إليه من حنين ولوعة. إنه يفهمها من دون حديث، وهذا سبب آخر لحبه، لا يطلب منها اعتذارًا أو تفسيرًا، ولا يعاتب ولا يغضب، وهذا سبب آخر للقلق، الخوف من كتمانه.

حركة غريبة حدثت في القصر في الساعات التالية، لم تفهم اعتماد سر أحاديث الخدم الجانبية ونظرات الجواري إليها، حتى قرة العين لم تفِدها بجواب، هي نفسها اعتماد لم تكن مهتمة كثيرًا، وتوقف الفضول عن إثارتها. حتى إذا فتحت عينيها على زخرفات ضوء الصباح التي تتلاعب أمامها على الجدار، شمت رائحة حلوة، كأنها لزرع مغسول بالمسك أو لأرض مروية بماء الورد. همست لنفسها: «ربما المطر». لكنها عندما نهضت بتثاقل والرائحة الحلوة تلعب برأسها، فتحت الستائر المزخرفة ثم النافذة، رأت منظرًا لن تنساه إلى الأبد.

بحديقة القصر بِركة من الطين، المطر أصبح ذرات صغيرة والسماء غائمة إلا من ضوء خجول متوارٍ، والطين يلمع، تجعله النقاط التي يخلفها المطر أشبه بعجينة الكعك بعد رش السكر. نظرت إلى البركة وهي تشعر بالفضول يعاودها مرة أخرى، لكن معه هذه المرة حرقة الرغبة. اتجهت مباشرة إلى باب جناحها فتصادمت بالمعتمد الذي نظر إليها وهو يبتسم، سألته:

- ما الذي يحدث في الحديقة؟

- أظن أن المطر خلَّف بعض الطين.

- لا، كانت بهذا المكان حشائش، والحشائش لا تتحول إلى طين.

- هل تريدين أن تعرفي كيف تحولت إلى طين، أم تريدين أن تذهبي؟

- الأمرين.

- مسموح لكِ بأمر واحد.

ضمته إليها قبل أن تغادر الغرفة حافية. عشرة أعوام الآن وما زالت تراه أباها في بعض المواقف، من دون أن تعترف إليه بهذا الشعور حتى لا تطفئ الرغبة من غير قصد.

وجدت اعتماد الجواري يقفن في انتظارها وعلى وجوههن ضحك لئيم، قالت:

- هيَّا.

فأعطتهن إشارة البدء. نزلن جميعًا إلى الطين حافيات، وعندما مست قدما اعتماد زلاقة الطين شعرت بأنها انفصلت عن حياتها الحالية وتعيش الآن حياة أخرى. بنت صغيرة تلهو، ليست لها هموم ولا لها حبيب ولا أطفال، لا تخامرها الغيرة، ولا يضربها تأنيب الضمير، ولا يكسوها القلق والخوف، ولا تتمزق بين المحبة والكره، والاستقرار والتوهان. شعرت بأنها هذه اللحظة بكل ما فيها من بهجة وانفصال عن العالم.

ظلت تلعب بالطين الذي لم يكن طينًا، عرفت من رائحته العطرية وقوامه اللدن أنه شبيه له. أسعدها هذا الخاطر أكثر. لقد صُنعت هذه البركة من أجلها، من أجل سعادة هذا القلب وجلجلة هذه الضحكة. صُنعت لتجعلها تتعافى وتعود إلى الحياة، صُنعت بالطيب والزهور والحناء والكافور والمسك، والحب. رفعت بصرها لترى المعتمد خلف النافذة يشاهدها من وراء الستائر، يأسرها حتى ظله ودفء وجوده وحرارة ما في قلبه. شعرت كم هو كثير عليها، وكم هي ممتنة لأنها ضاعت حتى يجدها، ما عادت اعتماد تعرف ما يبلل وجهها، المطر أم الدموع.

ظلت تلهو بالطين مع الجواري حتى انتصف النهار، فتركن البركة للأطفال الذين بقوا فيها حتى الليل. ودخلت اعتماد القصر حافية القدمين فلوثت الأرض بالطين المعطر. ابتسم خاطرها عندما تذكرت أمها، ردت عليها في خيالها: «ليس كل الطين قذارة».

باغتها المعتمد قبل أن تذهب مع الجواري للاستحمام:

- بل أريدك بالطين.

وكان هذا سببًا آخر لحبه.

٢٤

كان صباحًا رائقًا نزلت فيه اعتماد إلى المدينة بصحبة قرة العين، تتجول كلما سنحت لها الفرصة مع دكنة الفجر، فلا تصادف في الطرقات إلا من يركبون دوابهم ويترجلون قاصدين أعمالهم. أصبحت منذ سنوات تبحث عن فقيدين وليس فقيدًا واحدًا، الأهل وابن الحسن. آخر رسالة منه كانت منذ زمن بعيد يطمئن على أحوالها بعد ولادة الرشيد. سألت عنه الخوذي الذي كان ينقل بينهما الرسائل فلم تجد منه ردًّا شافيًا. فكرت في أن تسأل جارية جديدة في بيت الرميكي عرفت أنها أتت من قرطبة حيث يعيش ابن الحسن، طلبت من قرة العين أن تدبر لها هذا الموعد مع

الجارية حسناء.

على النهر قابلت الجارية التي لم تعرف عن ابن الحسن إلا اسمه بوصفه ساكنًا قديمًا حسن السمعة لمنزل أصبح مهجورًا. تركتها اعتماد بخيبة أمل، وذهبت إلى بقعتها المحببة تحت شجرة البرتقال، تستجم في صمت وهي ترخي ذراعيها وتطوي ساقيها تحتها وتغمض عينيها. طقس حافظت عليه من سنوات يعيد إليها بعض السلام والرضا من خلال تأمل الهدوء وفصل الذهن عن كل الموجودات. تخرج عن نفسها وتسبح في فراغ من الصمت، تتنفس بانتظام وتشعر بالنفَس في بطنها، تسكت عقلها عمدًا حتى تستعيد روحها. انتهت من طقسها الذي لم يساعدها هذه المرة، فتحت عينيها فوجدت أمامها أبا بكر.

- هل تتعقبني؟

قال بفراغ صبر:

- ولماذا أتعقبك؟ كنت في طريقي إلى النهر فوجدتك.

سألته بعصبية:

- ولماذا تذهب إلى النهر؟

- لأنني حر، وربما لأنني شاعر!

- ابقَ مع شعرك إذن!

قالتها ومشت لكنه أوقفها بندائه عليها، رأت قرة العين تقترب فأشارت إليها أن تبقى بعيدًا.

سألته:

- ماذا تريد مني؟

- أريد أن أعرف لماذا تعاملينني بفظاظة! لقد كدتِ تكسرين ساقي! ما عدت أعرفك.

قالت:

- هل نسيت ما فعلته؟ ثم أنت بالفعل لا تعرفني، أنا لست هي.

- لم أكن في حال طبيعتي، ثم لا أحد يتغير يا اعتماد.

ردت:

- من لا يتغير لا يفهم الحياة. الآن مثلًا أراك بيتًا لم أعد أسكنه، ولا أبحث عنه ولا يسعدني أن أراه مصادفة. أنت مثل الماضي الذي يذكر بعضهم اسمه أمامي ليروا على وجهي ما يعنيه لي، فلا يجدون إلا النسيان المحض، وأحيانًا الشعور بالقيء الذي أجيد إخفاءه. ماضٍ لم يستطع أن يبقى ذكرى ولا أن يموت إلى الأبد، كأنه هذا البيت السخيف الذي تتجنب المرور به، حتى لا تتذكر براءتك فتتقيأ في الشارع.

ظل ناظرًا إليها لثوانٍ ثم قال:

- تتقيئين من رؤيتي؟

قالت وهي تهم بالرحيل:

- من مجرد فكرة وجودك.

صرخ:

- كل مرة تهربين!

ثم قال بصوت هادئ:

- عاتبيني.

- أنا أعاتب من أخاف عليه من غضبي. ثم إنني لا أذكر ماذا فعلت، كل هذه الفترة ماتت بالنسبة إليَّ.

قال بتحدٍّ:

- كاذبة.

رفعت كتفيها كأنها تقول لا يوجد لديَّ المزيد لأقوله. صمتا، فعاد يقول:

- أنا أيضًا محوت الماضي من تاريخي. وما أريدك أن تعرفيه أنني كنت مخمورًا يومها وتصرفت بحماقة، لكنني أحب زوجك ولا أخونه، ولا أحترم نفسي إن فعلت، مملكته هي مملكتي، وعظمتي من عظمته، وهلاكي من هلاكه، أقدارنا مرتبطة ببعض، هو في أمان معي وأنا كذلك. كل ما في الأمر أنك فجَّرتِ داخلي هذا الينبوع من الحزن، لقد وخزني كثيرًا بعد رحيلك، شعرت بأنني فقدت روحًا طيبة، هذا ما لم تملكه أي فتاة عرفتها. لا أريد أن أستعيدكِ الآن، ولو أني أعرف أنه ليس صعبًا عليَّ، كل ما أريده أن تتوقفي عن نبذي.

ردت:

- أنا لا أنبذك، أنا فقط لا أراك.

تركته هذه المرة من دون أن تلتفت إلى ندائه. بعد تمشية طويلة عادت اعتماد تجر اليأس من العثور على الأحبة بعد أن تبددت بهجة الصباح في قلبها بهذه المصادفة السيئة. رأت أبواب القصر من بعيد مفتوحة على مصاريعها، وهناك فوج من الضيوف. أسرعت مع جاريتها ودخلتا من الباب الخلفي، همست قرة العين:

- إنه سيدي أحمد البشير ومعه مجموعة من الجواري الجديدات اللاتي أتين مع حسناء.

نزلت اعتماد إلى البهو بعد أن انفض الجمع وغادر الضيف، سمعت موسيقى آتية من جناح جبل النرجس الذي يخصصه المعتمد للتجمعات الصغيرة المفضلة عنده. اقتربت أكثر وبدأ صوت الضحكات النسائية يعلو. لمرات كثيرة ضبطته وهو يشاهد رقص الجواري وينسجم مع غنائهن، وكانت تكتم غضبًا عابرًا وتقول لنفسها: «هو رجل يحب اللهو، يتعافى باللهو، يتقوت باللهو، ثم يعود إلى نفسه وإليَّ». «اصبري هذه الدقائق والساعات، لأن كل شيء يمر إلا حب هذا الرجل». لكن هذه المرة نغزة داهمتها أسفل خصرها، دخلت الجناح ببطء على الرغم من ذلك، لا تحاول إلا النظر إليه، كأن كل ما حوله ضباب. رأته ولم يرَها، عيناه مركزتان الآن على فتاة أمامه، لا ترقص بالضبط، لكن تتمايل مع صوت الموسيقى، وترتدي ثوبًا أحمر قانيًا يكشف ذراعين بضَّتين وفخذين مستديرتين ونهدين استويا. سمعته بينما تتفرس في الجارية وهو يناديها:

- تعالي.

أمسكت يده الممدودة تستعيد بعض عقلها، جلست بجواره، ودت أن تجلس في حضنه، لكنها تعرف أنه لا يحبذ هذا الشكل من القرب في العلن. بادلها ابتسامة مطمئنة، تبعها بإيماءة تجاه ساحة الرقص وهو يقول:

- ظريفة...

نظرت إلى الظريفة فجفت دماؤها فجأة، عادت إلى الخلف، وبعدت من دون قصد عن المعتمد. لم تكن المرأة التي ترقص أمامها إلا قمر.

٢٥

لم تكن السماء تمطر. كانت قطرات من ماء الغسيل تسقط فوق رأسيهما، وهما جالستان على عتبة بيت اعتماد. كان يمكن أن تتحاشا قطرات الماء، لكنهما أغمضتا أعينهما وتخيَّلتا أنها المطر وضحكتا. تعطي قمر لها حبات من التين كهدية عيد ميلاد. باقي الأطفال أيضًا أعطوها التين واللوز والجوز. تمنت لو أن قمر أهدتها شيئًا مختلفًا، لأنها فتاة مختلفة، ولأن اعتماد تحبها بشكل مختلف.

في المساء اجتمعت الفتيات في ساحة بيت اعتماد، يصفقن ويرقصن، وأخوها يعزف على القصبة في غرفته. تصل أنغامه إليهن فيتمايلن عليها. اعتماد تصفق فرحة برقص الفتيات الذي لا تشاركهن فيه، جربت عدة مرات، وكانت أضحوكة بحركاتها البهلوانية التي تفتقد الهز والرعش. أبدعهن كانت قمر التي توسطت الدائرة، وأشعلت فتيل الرقص في المكان، تدريجيًّا وجدت اعتماد نفسها خارج الدائرة.

بعد أن غادرت الفتيات، بقيت قمر وهمست إلى اعتماد:

- اسمعي، أنا سأعلمك الرقص.

كانت هذه بداية لأمر لم ينتهِ، لأن بعدها مات أبو قمر، والتزمت البيت حتى تزوجت وهي في سن الرابعة عشرة، أما اعتماد فلم تنسَ قَطُّ الليلة التي حاولت فيها قمر أن تجعلها مثلها، امرأة مِغناجًا.

٢٦

تتمايل قمر وحدها في غنج بين الحضور وهي تنشد من أبيات المعتمد بصوت رقراق وغمزات وتنهيدات، لم تنتبه لوجود اعتماد، لا تنظر إلا إلى المعتمد، حتى عندما تقاطعت عيناها مع عينَي اعتماد لم تجفل، بادلتها ابتسامة وغمزة، كأنها كانت تعرف أو أنها بالفعل تعرف.

صفق لها الجميع، واقتربت من المعتمد تحاول تقبيل يده، لكنه سحب يده، واكتفى بأن أثنى على غنائها ورقصها، ثم نظرت إلى اعتماد بفرحة صبية وهي تمد ذراعيها، لكن اعتماد أجفلت، إنها صديقتها وإنها حقًّا تتوحشها، وتعرف أنها تحبها فما الذي يلجمها!

تعجب المعتمد، وقال:

- هل تعرفان بعضكما؟

قالت قمر:

- طبعًا. صديقتان منذ الطفولة.

نظر المعتمد إلى اعتماد التي احمرَّ وجهها، قالت مؤكدة وهي تهم بالوقوف محاوِلة الترحيب:

- نعم.

تعانقتا، فذاب الثلج حول اعتماد واستعادت البنت الصغيرة في مصر، وهي تحاول أن تهز نهديها البارزين بالكاد لتقلد صديقتها. تفاجأت بعد العناق بدموع في عينَي قمر فرَقَّ قلبها، شعرت بأنها أخيرًا وجدت صديقة في هذا القصر، وأن الأيام المقبلة ربما ستكون أكثر سعادة.

أثبتت الأيام التالية صدق شعورها، فأصبحت تقضي أغلب الوقت الذي يغيب فيه المعتمد مع قمر، تتحدثان في كل شيء كأن لم يمر عليهما زمن. تستعيدان الماضي البعيد والقريب. منحتها اعتماد مشبك الشعر العاجي على شكل فراشة الذي احتفظت به، فبكت قمر التي تغيرت كثيرًا، أصبحت تبكي مثل النساء. لم تبقَ قمر في منزلة الجارية إنما أصبحت وصيفة اعتماد بعد أسبوع من لقائهما. أصبحت أيضًا صديقة كل من بالقصر، يشيدون بلطفها وخفتها وإقدامها على المساعدة. حضورها الطاغي الذي كان يأسر اعتماد نفسها في أيامهما القديمة بمصر. راحت تصطحبها معها في الندوات والنزهات، وتعرفها على مجتمع الشعراء والعلماء، حتى في مجالس الرقص والغناء تجلسها إلى جوارها عندما يكون المعتمد بين حاشيته.

في إحدى الندوات عرفتها على أبي بكر، ولاحظت نظراته المسلطة على قمر، جعلها هذا تشعر بشيء من الغضب، ثم الغضب من الغضب، وتكررت المقابلات وتكرر الغضب، حتى باتت تتحاشى رفقة قمر في السهرات والندوات التي تجمعها مع أبي بكر. صارحت المعتمد بخوفها من

هذه العلاقة، وعندما سألها عما يخيفها، قالت:

- لا يليقان ببعضهما.

قاومت كثيرًا أن تخبر المعتمد بما يفعله أبو بكر من تعرض لها، إنه صديقه وهي لا تريد أن تؤذيه في شعوره تجاه شخص يحبه. إن له قلب طفل تخشى عليه حتى من نفسها.

لكن سرعان ما غادرتها هذه الأفكار، لسببين: الأول أن أبا بكر في إحدى المرات التي تعرض لها فيها قالت له: «دعك مني والتهِ بنسائك!»، فرد عليها: «وهل تقارَن النخلة السامقة بعشب الأرض؟». والثاني أنها بدافع الرغبة في أن تأمن الشر، حكت لقمر عن أبي بكر منذ اللحظة التي أنقذها فيها من الحفرة وحتى اللحظة التي شبهها فيها بالنخلة، لكنها احتفظت لنفسها بالأمور الحميمية البسيطة بينهما، وبواقعة دخولها غرفته في القصر. وكانت قمر تقاطعها مع كل حكاية لتسبه، وتحكم عليه بعدم الرجولة، والنطاعة، وتحكم عليها بالغباء والرهافة الفارغة. أحبت اعتماد ردود قمر وكانت ترضيها، لأنها أخيرًا وجدت من سيشاركها احتقار أبي بكر الذي تخشى الإعلان عنه.

لكن لم يدُم نعيم الصداقة طويلًا، فهناك أيضًا عذابها.

لاحظت أن قمر أصبحت أكثر جرأة عليها، توبخها وترفع صوتها عليها أمام الخدم من دون الانتباه لقدرها، تزامن هذا مع علاقتها القوية مع كل سكان القصر والمزاح والضحك والغناء، وهي أمور لا تفعلها اعتماد، وإن كانت كثيرة المزاح مع المعتمد فقط. ثم بدأت قمر تتجاهل اعتماد وتقلل حديثها معها. شعور غريب غزا اعتماد بعدم الراحة، بأنها لم تَعُد «السيدة الكبرى». لم تستطع تخطِّيه ولا تخطي أنها تكاد تفقد صديقتها الوحيدة، حتى قررت أن تبدد هذا الشعور المؤلم وتتحدث إليها.

بعد إحدى جلسات اللهو وانشغال المعتمد مع حاشيته، انتهزت اعتماد فرصة لقائها مع قمر في الممر المفضي إلى البهو وسألتها:

- لماذا تتحاشينني؟

ردت قمر من دون أن تنظر إليها:

- أحقًّا لا تعرفين؟

ثم أكملت بصوت مرتفع وهي تنظر إليها:

- الآن فقط أقول لكِ، لأنك تركتني وهربت إلى الرميكي.

وجدت اعتماد نفسها في موقف دفاعي:

- لم يحدث أن...

باغتتها قمر بصوت أعلى:

- أتتكرين يا اعتماد؟ ألم تهربي؟ ألم تخدعيني وتتركيني وحدي؟ أنا صديقة عمرك.

اقتربت منهما بعض الجواري.

قالت اعتماد بعصبية:

- ماذا تقولين؟ أنتِ...

قاطعتها قمر:

- لا تحاولي التبرير، فقد مرَّ زمن طويل، لم أنسَ فيه ما بدر منكِ ولا أنتظر تبريره.

عادت اعتماد تقول:

- أنا لا أبرر، أنتِ فقط...

قاطعتها ثانية:

- لا تبرري يا اعتماد، فهذا ليس جديدًا عليكِ، وأنا لا أنتظر منكِ شيئًا.

صرخت اعتماد:

- كاذبة!

اقتربت منهما الكثير من الجواري، بل وخرج المعتمد من مجلسه في كنف بعض حاشيته.

أكملت اعتماد:

- طوال عمرك تكذبين.

ردت قمر بهمس:

- طوال عمرك تغارين.

ثم عندما اقترب المعتمد قالت بصوت أعلى:

- وأنا أسامحك لأنك صديقتي.

قالت اعتماد من دون أن تفكر مرتين:

- لأنني سيدتك.

نظر إليها المعتمد متعجبًا، همس باسمها:

- اعتماد!

فاجأتها قمر بأن بكت، اجتمعت حولها الجواري يهدئنها ويعانقنها. شعرت اعتماد بأنها تكاد تغرق في ماء الخزي، هذه صديقتها التي لطالما أحبتها، فلماذا تهينها الآن؟ هل حقًّا تغار منها؟

غادرت المكان مع قرة العين التي أكدت لها أنها أيضًا لا ترتاح لقمر، وأنه من الجيد ألا ترد

عليها، وقالت لاعتماد وهي تلوي شفتيها:

- إيش تربح في سلخ الكلاب؟ قال الموت وتمزيق الثياب.

اعتماد تكره شعور أنها بعد كل هذه السنوات، بعد أن أصبحت السيدة الكبرى، بعد خمسة أولاد ومئات الليالي من البوح والعشق، ما زالت لا تثق بنفسها كفاية حتى إنها تخشى امرأة أخرى. ثم أين الدموع؟ دموعها السهلة التي تغلبها دائمًا، الآن أصبحت عصية أمام دموع أخرى، من يرغب في البكاء في وجود كثير من الدموع؟

تمر الأيام وتزداد شعبية قمر في القصر، الفتاة التي تجيد الغناء والرقص والمغازلة، بينما يخبو حماس اعتماد وتتوقف عن الخروج في نزهاتها وندواتها اليومية وعن مشاركة المعتمد السهر. أبو بكر أيضًا يتوقف عن محاولة التعرض لها، ويزداد قربًا من المعتمد، جعلها هذا تعود إلى الشعور بالارتباك من وجوده. كان عندما يحاول التقرب إليها تجد من السهل عليها أن تنبذه، لكن شعورها بتجاهله لها يربكها، يمرضها. إنها تحب حتى خيال زوجها فلماذا يشغلها التفكير بالآخر الذي تكره وجوده؟ إن الكره عاطفة قوية مثل الحب ومثل التعلق لكنه أيضًا عاطفة خبيثة. إلى أن حدث ما أخرج اعتماد أخيرًا من عزلتها، حادثة الزقاق الأحمر.

٢٧

- ماذا سنفعل الآن؟

قالتها اعتماد لأخيها حسين، وهما جالسان على أطراف أصابع أقدامهما في عتمة قبو بيت الحناوي. قبلها بقليل كانا يلعبان الغميضة مع أطفال الحارة، وقرر حسين الاختباء في هذا المكان واعتماد معه كتابعه الأمين، لكن ما حدث أنهما سمعا من مكانهما هذا رجلين يتفقان على سرقة دكان الذهب الكائن على ناصية الشارع الرئيسي المفضي إلى الصاغة. أشار إليها حسين أن تكتم أنفاسها، فعلت وهي أقل رعبًا منه، لكنها لم تستطع أن تتمالك نفسها وطرحت سؤالها عليه بمجرد أن غادرا:

- ماذا سنفعل الآن؟

قال لها هامسًا:

- سننتظر قليلًا وأخرج أولًا، إذا أشرت إليكِ تأتي فورًا، وإذا لم تسمعيني فابقي مكانكِ حتى آتيك.

أومأت، لكنها بدأت تخاف عندما عرفت أن عليها أن تمكث في هذا المكان وحدها لبعض الوقت. بعد دقائق تركها حسين ورأته وهو يخرج إلى الشارع، ثم ما لبث أن صفر لها فخرجت بسرعة

البرق. لكن ما إن خرجت حتى سمعا وقع أقدام خلفهما، التفتا إلى الخلف فلقيا لصَّي القبو يهجمان عليهما، فركضا، اعتماد أسرع فاستطاعت أن تسبق حسينًا بقليل، لكن سرعتها لم تمنعها من سماعه عندما تعثر وسقط.

وقفت واستدارت إليه، لكنه أشار إليها أن تعود إلى البيت. اقتربت منه فابتسم وهو ينهض قائلًا:

- ضحكنا عليكِ، هذا مقلب وهذان معرفة، لا خطر منهما، إنها لعبة، اذهبي حالًا وإلا كشفتِها.

لم تفهم اعتماد تمامًا ما يقصده لكنها امتثلت للأمر، أخذت نفَسها وركضت بأسرع ما فيها إلى البيت، وانتظرته هناك انتظارًا ثقيلًا، تفكر إن كان قال لها الحق أم أراد أن يقول شيئًا آخر لم تفهمه. حتى أتى بعدها بنحو ساعة، كان المغرب قد هلَّ والشوارع سكنت كعادتها في هذا الوقت. كان وجهه محمرًّا، وعيناه غائرتين وعلى طرف شفته آثار دماء، أما شفته نفسها فمشقوقة، لكن من الواضح أنه مسح دماءه قبل العودة. صرخت الأم وبلعت اعتماد صرختها، شعرت في داخلها بأنها السبب، وأنها ما كان يجب أن تتركه، ربما وجودها كان سينقذه، كان يمكن أن تصرخ أو تضرب أو حتى تحمله بعيدًا، لكنها تخلت عنه.

آلمتها هذه الفكرة كثيرًا، وعندما عاد الأب مساءً من دكانه ووجد حال ولده لم يصرخ مثل الأم، لكنه تحدث معه وعرف القصة التي حكاها حسين من دون أن يذكر أخته، ثم أخذ الأب ابنه وخرجا إلى دكان الذهب وحكى لصاحبه يعقوب الصائغ ما عرفاه عن مخطط السرقة. عند عودتهما عاقب الأب حسينًا بالحبس في مخزن البيت الذي وجدوا فيه فئرانًا من قبل، حاولت اعتماد أن تخبره بأنها كانت مع أخيها، لكن حسينًا أصر على أنه كان وحده، وأنها تقول ذلك تعاطفًا معه.

في محبسه في المخزن دخلت عليه اعتماد ومعها قطع من القطائف بالمهلبية كانت لها، قدمتها له، ثم سألته وهي تجلس إلى جواره في العتمة:

- ماذا سنفعل الآن؟

٢٨

الزقاق الذي كان لبيوته لون أزرق، غدا أحمر مع مرور الزمن واختلاف ساكنيه، وهو شارع ضيق يسكنه من بقي على دينه المسيحي من العامة البسطاء. وهو على الرغم من معالم الفقر فيه فإنه يسحر الناس بألوان بيوته المتداخلة، ويثير فيهم روح الفن والجمال. وقد تبارى رسَّامو الأندلس في نقش الآيات القرآنية والأشعار والأقوال بالخط الكوفي على جدران البيوت ورسم المضلعات والأشكال الهندسية القائمة على الخطوط المتشابكة ذات الزوايا المتعددة، فأصبح محطًّا

للزوَّار من أهالي إشبيلية، وتقام في حاناته باستمرار حفلات الغناء والموشحات الأندلسية.
في أثناء تناولها الغداء سمعت اعتماد صريخًا هائلًا آتيًا من داخل القصر، عرفت الحِس فورًا، قرة العين هي من تصرخ، أسرعت إليها فوجدتها مكومة على الأرض وحولها الجواري، دفعتهن لتصل إليها وهي تسأل:

- ماذا حدث؟

ردت إحدى الجواري:

- لقد قُتِل أخوها في عراك بين الشباب في الزقاق الأحمر.

جلست اعتماد إلى جوارها على الأرض، وضمتها إليها وبكت على بكائها، لكنها كانت تبكي أخًا آخر في مكان آخر، لا تعرف إن كان حيًّا أم ميتًا، ثم طلبت اعتماد منها أن ترافقها في وداع أخيها. في البداية رفضت قرة العين، لكن اعتماد أصرت عليها قائلة:

- ألم تطلبي مني كل يوم أن أخرج؟ هأنذا سأخرج معكِ إلى جنازته ودفنه.

خرجتا معًا وركبتا العربة، واعتماد تسند قرة العين التي لم تتوقف عن البكاء، حتى اقتربتا من الزقاق الأحمر الذي انتصب حول مدخله الجنود في دائرة هائلة يمنعون الناس من الاقتراب. المكان مغبر وبعض الجدران الملونة والمنقوشة مهدمة، على جانبَي المدخل اصطف العديد من البشر، وأمامه اصطفت بعض لفافات الموتى بوجوه مكشوفة، انهارت قرة العين عندما رأتها وهي تعرف ما تحتويه إحداها.
عندما اقتربتا من اللفافات بعد أن سمح لهما الجنود بالمرور، حين تعرفوا على اعتماد. انهارت قرة العين أمام ميت ملفوف بثوب من القطن وسقطت فوقه باكية. بعد وقت قليل لقيتا امرأة عجوزًا بشعر أبيض غطت نصفه بطرحة خفيفة، لها هامة منحنية وجسد أكله الزمن. التقت أعينهما فانتصبت قرة العين، ونظرت إلى المرأة لثوانٍ قبل أن تتعانقا عناقًا طويلًا تقطر منه الأنات والتنهيدات ولوعة الحزن، عناقًا جعل اعتماد تبكي في صمت على عناقٍ مثله لن تحصل عليه أبدًا.
بعد دقائق من الأحاديث الجانبية بينهما، اقتربتا من اعتماد وقالت قرة العين مشيرة إلى المرأة:

- أمي، فيرا.

صافحتها اعتماد وهي مستغربة بين اختلاف هيئتها عن هيئة ابنتها، ثم بدأ الناس في الاستعداد للصلاة على الموتى، فأخذوا بعض الموتى ووضعوهم أمام المسجد استعدادًا للصلاة. اصطف الجميع؛ الرجال في الأمام والنساء في الخلف، إلا أم قرة العين فقد وقفت جانبًا.
سألت اعتماد:

- ألن تُصلي على أخيكِ؟

ردت قرة العين:

- أمي مسيحية.

اتسعت عينا اعتماد قبل أن تكمل قرة العين:

- أمي جارية مسيحية وأبي خولي مسلم، وأنا وأخي مسلمان.

تعرف اعتماد مدى تصالح أهل الأندلس مع اختلاف الملات، ولم تفهم قَطُّ كيف يعيشون بهذه البساطة معًا على اختلاف ليس فقط دياناتهم لكن أصولهم وألسنتهم وانتماءاتهم، ولم تفهم لماذا كانت قرة العين تخفي هذا الأمر. في طريق العودة حكت قرة العين لاعتماد عن حياتها الصعبة بين أب متعصب وأم متعصبة وكيف أنهما تطلَّقا بعد قصة حب قوية، قالت:

- كنا نعرف لكن ننكر، ربما تمنى أبي أن تغير دينها، لكنه لم يستطع أن يثنيها عن التمسك به، إلى أن مات أبي وبقي أخي هنا يعيش مع أمي.

بعد هذه الحادثة بوقت قليل ستتكشف حقيقة أن من تسبب في هذا النزاع الذي أدى إلى الدمار والموت لم يكن إلا بعض اليهود من الموالين لألفونسو، الذين أوقعوا الشباب ببعضهم ليزلزلوا الأمان الذي يباهي به المعتمد.

اطمأنت اعتماد بعد أن أودعت قرة العين في بيتها، وكان زوجها طاهر ينتظرها هناك بعد أن وصل إليه الخبر. عادت إلى القصر الذي كانت لأسابيع لم تنزل حديقته وتتجول في ساحاته. تتذكر رائحة بِركة الحناء والكافور فتبتسم، وتتذكر أبا بكر وهو يحاول الاقتراب منها فتتجهم. شهور من التعب، ضاق بها الأطباء وحتى المعتمد الذي يريد طفلًا كل تسعة أشهر أصبح قلقًا، لأنها لم تحمل منذ ثلاثة أعوام الآن. شعرت بالألم يعتصر بطنها من جديد فاتجهت إلى جناحها، لكنها في الطريق سمعت ضحكة قصيرة عالية، تعرف لحنها جيدًا وتعرف عازفتها، تكرر همس الصوت نفسه ومعه همهمة أخرى. اقتربت اعتماد من الباب الذي يخفي هذه الأصوات المتشابكة، اقتربت حتى لامست كتفها الباب، توقف الصوت، وقبل أن يكتشفاها اكتشفتهما، فتحت الباب فوجدت قمر عارية في حضن أبي بكر العاري.

أغلقت الباب على نظرته اللائمة إليها وصوت قمر وهي تقول:

- لماذا تفتح السيدة الكبرى باب جناح أبي بكر؟

«لماذا فتحتِ الباب؟». ولأيام طويلة ستظل اعتماد تسأل نفسها: «لماذا فتحت الباب؟». بعض الأشياء أفضل وهي مغلقة وبعيدة ومهملة، بعض الأمور لا يجب اكتشافها لأنها تزداد قبحًا مع الظهور. ما الذي يدفع الإنسان إلى البحث عن الحقيقة أو التعثر بها، إذا كانت ستعذبه وهو يعرف هذا سابقًا؟!

لم يعذبها أنها رأت قمر بالذات معه، لكنه الشعور الغامض الذي صدَّره لها، أنها عزيزة وغالية

وعالية مثل نخلة، محاولاته أن يثبت أن مشاعره القديمة حقيقية. لماذا يفكر الإنسان بالمشاعر القديمة؟ هل يريد أن يثبت أنه لم يُخدع، أم يريد أن يستعيد شيئًا من غبائه؟ إن ما مضى قد مات ودُفن في قبر لا شاهد له، وأي محاولة لاستدعائه هي محاولة لدفن نفسك معه. إنها تتهم نفسها بالغباء لأنها لا تعرف بالضبط ما يغضبها، لكن بالتأكيد لا يغضبها أنها ليست في مكان قمر. في هذه الليلة سقطت اعتماد مريضة، وأحضروا لها الطبيب الذي أكد أنها أخيرًا وبعد ثلاث سنوات أصبحت حبلى، بي أنا، بثينة.

٢٩

وحدها اعتماد في الفراش تحاول أن تهون على نفسها، لقد أرجعت كل رغبتها في التقيؤ ووجع بطنها والشعور بالتعب إلى الحمل الذي وقع منذ شهرين من دون أن تنتبه، لكن ماذا عن وجع القلب؟ عشر سنوات وما زالت تشعر بأنها أسيرة، مخطوفة. أحيانًا أخرى تشعر بأنها جارية مملوكة، خمسة أبناء وحب المعتمد لم يمنعوا روحها المعذبة من التفكير في الهروب والحنين إلى أناس يشبهونها. لقد تعبت من محاولة منع المعتمد من أن يتحول إلى وحش مثل أبيه، وتعبت من مشاعرها التواقة إلى الجموح وافتقادها الصداقة والأهل.

أصبحت علاقة أبي بكر وقمر في وضوح عذابها، على الرغم من محاولاتهما لصبغها بالسرية، أو محاولة أبي بكر فقط الذي كان يتجاهل قمر طوال النهار. أما قمر فكانت تتعمد أن تظهر كدمات جسدها وعضات عنقها وشعرها الندي لاعتماد. تتعمد أن تأتي باسمه أمامها، وأحيانًا تصارحها كصديقة قديمة بأنه وقع في حبها، وأنها لا تبادله المشاعر نفسها إنما أقل، وكانت اعتماد تستقبل هذه التلميحات والمصارحات بفتور، وتكتم ألم البطن والروح الذي يزداد كل يوم. إلى أن عاد المعتمد فعادت اعتماد بين ذراعيه إلى نفسها، لم يظهر فرحة مبالغًا فيها بالحمل حتى لا تشعر بأنه كان ينقصه شيء في الأعوام الماضية، اكتفى بإظهار فرحته بها هي.

اختفى ابن عمَّار وعرفت من المعتمد أنه أرسله ليأخذ مرسية بعد أن ضعف سلطانها. بعد سفره انقلبت أجواء القصر إلى سهرات متتالية ومسابقات للشعر لها جوائز ضخمة. يبالغ المعتمد في محبته للشعر، حتى إن حديثه القليل أصبح أبياتًا منثورة ومحاولات وتدريبًا، وقد سمعت كلامًا يدور حول أن الملوك يسخرون لأنه يراسلهم شِعرًا وليس نثرًا. حتى زمن قريب كانت تهوى هذه الخصلة فيه وتتحداه تارة وتتجاوب معه أخرى، لكن في هذا الوقت ربما بسبب أثر الحمل لم تكن تحتمل سماع الشعر، وتزامنًا مع نفورها من شعر المعتمد ومن حفلاته، كانت تكتب كل يوم شعرًا

من نوع آخر، هذا الذي يشبه حوارك الداخلي لذاتك تناقشها في كل مخاوفك وشعورك وتلقي بها ظلامك.

هدأت الحياة حولها نسبيًّا بغياب أبي بكر، وما عادت تحمل هم التعثر به، بأدائه المدعى في إلقاء الشعر وتهليل الناس له، وبمشاهد غرامه بصديقتها. لكن الهدوء لم يستمر طويلًا، إذ كانت تقف في شرفتها قبل الغروب وهي تراقب صغارها وهم يلعبون مع الجواري في الحديقة. تداعب شعرها وتستجمع كلمات لتكتبها في المساء، رأته وهو يدخل من بوابة القصر بصحبة أحد الجنود، شاب مشدود الهامة له كتفان عريضتان وشعر قصير فاحم، لا يشبه شعور رجال الأندلس الكستنائية الطويلة، وله عينان تعرفهما جيدًا، لكن لسبب ما لا تتذكر.

تركت الشرفة والشعر وغادرت غرفتها مسرعة تجاه السلم تراقب الضيف وهو في طريقه إلى جناح الضيوف، تحاول أن تسترجع كل فصول حياتها لتتذكر في أي فصل قابلت هذا الشاب. استدار بعفوية عندما سمع خطواتها ثم لمحها على السلم، وبمجرد أن التقت أعينهما ابتسم ونادى اسمها مجردًا:

- اعتماد!

لقد رأت هاتين العينين الضاحكتين في صحراء والجو بارد والحصان صلب أسفل منها، يركض فتطير معه روحها وتتحرر من أشياء ومخاوف، إنه يوم ظنت أنها نسيته.

وجدت اسمه على لسانها:

- عمر!

وقف الحراس يشاهدون اعتماد وعمر وهما يقتربان، وعلى وجه كلٍّ منهما فرحة ودهشة. توقفا على مسافة، وقال:

- لم أتخيل أن تتذكريني.

- كيف أنسى من علمني ركوب الخيل؟!

أشارت إليه بأن يدخل جناح الضيوف وصرفت الحراس. هناك انتبهت للسنوات التي جعلته شابًّا فتيًّا غزا الشعر وجهه والخشونة صوته ومظهره. كان بطرف خفي أيضًا ينظر إلى الفتاة الضائعة التي أصبحت سيدة كبرى. كلٌّ منهما أراد أن يقول للآخر كم تغير لكنهما صمتا قليلًا، حتى قالت:

- أما زلت تسكن الصحراء؟

- دائمًا.

- هل كنت تعرف أنني أسكن هنا؟

- أعرف، كنت أتابع كل أخبارك.

ابتسمت اعتماد ودبت فرحة بها. قالت:

- أتيت من أجل الملك أم من أجل ماذا؟

- لقد عرفت خبرًا عن أهلك من مصر.

دوى قلب اعتماد، وعادت بالزمن في ثانية إلى رائحة فطيرة السكر والياسمين والبرتقال اللاذع. سألته:

- ماذا عرفت؟

في اللحظة التي دخل فيها المعتمد باشًّا مرحبًا كعادته، قالت باندفاع طفولي:

- هذا عمر الفتى البدوي الذي علمني ركوب الخيل.

ربت المعتمد على كتفه وهو يطلب منهما الجلوس، ويطلب من الحراس تقديم الشراب وتحضير الطعام للزائر العزيز، لكن سرعان ما قالت اعتماد موجهة حديثها إلى المعتمد:

- لديه خبر عن أهلي.

سادت لحظة صمت وكسا وجه المعتمد ارتباك حافظ على ألا يطغى على الاتزان، ثم فاجأها بأنْ أمرها بأن تتركهما وحدهما. رفضت اعتماد من دون أن تنطق، لكنه نظر إليها بجدية، وأسدل جفنيه لثانية مطمئنًا. خرجت اعتماد مبهورة الأنفاس تفكر في سبب هذا الأمر من المعتمد الذي نادرًا ما يأمرها بشيء. تسترجع كل ما بينهما من حب وثقة، لتطمئن أن هذا الرجل كعهدها به لن يؤذيها مهما كانت الأسباب. طالت الجلسة، وهي تقف بقرب الباب لا تريد أن تغادر، حتى خرج إليها أحد الحراس يبلغها بأن المعتمد يأمرها بالتزام جناحها، ويخبرها بأن كل شيء بخير.

آه من كلماته التي تصدقها اعتماد، كيف تصدقه؟ لو كان شخصًا آخر كانت ستكسر الباب لتدخل ولن يهمها أوامره، لكنها تصدقه، ربما لأنه لم يكذب عليها قَطُّ، وربما لأن كل إنسان يحتاج إلى أن يصدق على الأقل إنسانًا واحدًا في هذا العالم.

تسمرت أمام النافذة إلى أن غلبها التعب فجلست، وغفت على صوت الهواء البسيط، ثم أفاقت على المعتمد الذي دخل عليها بهدوئه وعذوبة نظرته، شعرت بأنه هذه المرة يظهر مزيدًا من الود، سألته ألف سؤال:

- ماذا حدث؟ ماذا قال لك؟ لماذا صرفتني؟ ماذا أخبرك عن أهلي؟ هل هو خير؟ هل هو شر؟ أين هم الآن؟ أين هو الآن؟ هل سيتناول معنا الغداء؟

رد المعتمد بجملة واحدة:

- لا يعرف شيئًا، وطلب أن يرحل ووافقت.

سألته اعتماد وهي على مشارف بكاء آخر:

- هل رحل؟

أومأ، وبدأت تبكي وهو يضمها، تسأله:

- لماذا؟

ويضيع السؤال بين صدره ودموعها، لا ينطق ولا يبرر ولا يحكي، تعرفه قليل الحديث، لكن هذه المرة يجب أن يتكلم. بعدت عنه وصرخت فيه:

- تكلم.

في هذه الغرفة فقط مسموح لها بأن تفعل أي شيء معه، مسموح لها بأن تتجاوز كل حدود الأدب واللياقة والمنطق. دفعته فلم يتزحزح، استمرت في الصراخ فيه والبكاء بين ذراعيه وهو يضمها أكثر ويهمس إليها:

- لا يعرف شيئًا، لا يعرف شيئًا.

- إذن لماذا رحل؟

- لأنه أراد ذلك.

لم تخرج بقية اليوم من غرفتها، تفكر في كل ما كان يمكن أن يقوله عمر، فيما أتى به معفرًا بتراب السفر وأدخله قصرًا لا يعرف صاحبه، ولا يعرف تباعات زيارته. ما الذي يمكن أن يجعله يقطع كل هذه المسافة ويغامر حتى يخبرها بأنه عرف شيئًا عن أهلها إلا إذا كان شيئًا يمكن أن يغير مجرى حياتها؟ دخل عليها المعتمد وجلس إلى جوارها في حنان، مشيرًا إلى الطعام أمامها، قال:

- ليس من أجلي ولا من أجل طفلنا، لكن من أجلك.

ردت:

- أنت لا تخاف عليَّ، ولا يهمك أمري، أنا بالنسبة إليك مجرد محظية تريد منها المتعة والحب، المتعة التي لم تجدها عند غيري، والحب الذي لم تحصل عليه من عائلتك. وعدتني من اليوم الأول بأن تجد لي أهلي، لكنك تمنع حدوث هذا بكل طاقتك، لأنك تخاف أن يكون لي أهل أحبهم أكثر منك، تخاف أن أتركك لأجلهم، وهذا لم يكن صحيحًا، لم أكن لأتركك من أجلهم، لكن بسبب أفعالك سأفعل. يوم أن أجدهم سيكون آخر يوم تراني فيه.

- لماذا تفعلين هذا يا اعتماد؟

- لأنني والله ما رأيت منك خيرًا قَطُّ.

صمت المعتمد، وعندما طال صمته نظرت إليه اعتماد فوجدته سارحًا في الفراغ، ثم نظر إليها معاتبًا وقال:

- ولا حتى يوم الطين؟

كانت تعرف أنه هو من أمر بصنع بِركة الطين من الطيب في هذا اليوم، ومع ذلك شهق قلبها لاعترافه، ولسنوات حياتها كلها لن تتوقف اعتماد عن تذكر يوم الطين، ولن تكرر ما فعلته بإنكارها لعشقه ونبله ونعيم عطائه. قالت وقد رأت الدمع يتلألأ في عينيه الرماديتين الجميلتين:

- أنا آسفة.

٣٠

هذا الفصل من حياة اعتماد قصير وعميق، ستحاول أن تمحوه كثيرًا من ذاكرتها لكنها لن تنجح أبدًا.

إنه يوم الجمعة، اليوم الذي يتحول فيه المعتمد الذي يدوي اسمه في الأندلس مقرونًا بالعظمة والإكبار إلى المعتمد البستاني، الذي يروي النباتات، ويخصب التربة بالسماد، وينزع الأعشاب الضارة، ويجرف الأوراق الميتة. يخطط المساحات الخضراء، ويعتني بالنباتات الضعيفة، ويغير أماكن الأحواض حسب اتجاه الشمس. وكانت اعتماد تعشق أن تراقبه في هذا الوقت، تمامًا مثلما تعشق أن تراقبه وهو يكتب الشعر. الأشياء التي يحبها تزيده بهاءً، ويتحول في عينيها إلى مراهق من النوع الطيب.

بعد البستنة يستحم معها، ويتبادلان الحب، وخبز الفرن والمجبنات والبيض وشراب الورد والبنفسج واللوز، ثم يذهب إلى الصلاة في مسجده القريب مع جمع من حاشيته. مرات قليلة فاتته الصلاة بسبب هذه الطقوس، وهاج الناس غضبًا فحاول بمساعدة اعتماد ألا يكررها، فالناس في الأندلس يغفرون شرب الخمر واللهو مع النساء، لكنهم لا يغفرون ترك صلاة الجمعة أبدًا. يعود من الصلاة إلى جناح زوجته الثانية، ويقضي معها شيئًا من النهار، ثم ينزل إلى ساحة القصر ويجالس أولاده، لا يلاعبهم عادة لكن يتحدث إليهم ويسمعهم بتمعن في هذا اليوم بالذات، إلى أن يأتي وقت النوم فيذهب إلى جناح زوجته الثالثة. يوم الجمعة هو اليوم الوحيد الذي يمر فيه على كل نسائه وأطفاله، أما باقي الأسبوع فمقسم بينهم وبين العمل والأصدقاء.

بعد أن جمع لها الزهور وأذاقها الحب بطعم كل زهرة غادرها، وغادرَت القصر مع قرة العين. تتمشَّى وتمارس شرودها وطقوس صمتها تحت شجرة البرتقال، ثم تذهب إلى السوق وتبتاع أشياء تريد منها أن تسعد الباعة وتسعد نفسها بإرضاء آفة حب الشراء. تذهب إلى بيت جليلة بنت الوقاد لتكتبا معًا وتُسمعا بعضهما ما كتبتا، وأحيانًا تنضم إليهما مجموعة أخرى من الشاعرات إذا كانتا في مزاج يسمح بالصحبة. في هذه الليلة عندما عادت اعتماد لم تكن أجواء القصر كما تعرفها. الزوجة الثانية كانت تقف في الشرفة على غير عادتها، وعلى وجهها نظرة حزينة، أما الثالثة فكانت تجوب القصر في توتر ملحوظ.

حاولت اعتماد أن تستطلع ما يحدث من دون أن تتحدث مع المرأتين، فهن، على الرغم من السنين، لسن صديقات، أو اعتماد ليست صديقتهما. إلى أن أتت إليها قرة العين بالخبر اليقين:

- تكادان تضربان رأسيهما في جدران القصر.

- هاتي ما عندكِ يا قرة، توقفي عن الإبطاء في حكي أمر ما.

- أنا لا أبطئ لكن أحكي، الحكاية تصبح أجمل عندما تستمعين إلى تفاصيلها.

- أسمع النهاية أولًا ثم التفاصيل.

- ضاع التشويق.

- الحكاية؟

- كيف تكتبين يا سيدتي وأنتِ بهذه الروح المَلولة؟

- لأنني لا أقص حكاية يا قرة، الشعر هو ملخص التفاصيل، الحكاية فيه يمكن أن تروى في جملة. ولأنني أيضًا أكتب من أجل شيء آخر، من أجل أن ألفظ مشاعري وأثبتها في الزمن، أعلقها خارجي حتى أستطيع أن أعيش.

- لا كلام بعد حديثك يا سيدتي. النهاية، مولاي لم يمضِ اليوم مع زوجتيه ولا أبنائه.

- هل خرج؟

- لم يبرح القصر؟

- توقفي عن هذا يا قرة! هل هو بخير؟

- هو بخير، لكن لا أحد يعرف أين هو، يقولون إنه اختفى في القصر كأنه ابتلعه، لكنهم أكثر من كونهم قلقين عليه، حزانى على هجره ويفكرون في اللجوء إلى خضة الساحرة.

- ما هذا الغباء؟

تحركت اعتماد بسرعة بدافع القلق، فهي لا تؤمن بقواعد الاختفاء وأساطيره وأقاويله، لكنها تؤمن بأسبابه، الحزن، الخوف، الضعف، المرض. بحثت عن المعتمد في كل شبر في القصر من دون أن تلفت الانتباه، كأنها تمر مرورًا عفويًّا، دخلت مجلسه الرئيسي وفتشته، ثم الغرف التي يحب أن يجلس فيها وحده، مرورًا بالطرقات حتى الحديقة. كل ركن في الحديقة التي دثرها الظلام والبرد الآن، لم تجد له أثرًا، اضطرت إلى أن تسأل رئيسة الجواري فأخبرتها بأنه ليس عند إحداهن. عادت أكثر قلقًا من بداية البحث، كأن الوقت يزيدها إصرارًا على أن تجده، وهي التي لم تسأل عن غيابه في أثناء اليوم قَطُّ منذ أن تزوج بغيرها.

قضت ليلة قلقة، وحلمت به وهو يضمها. في الصباح استعادت روحها عندما استيقظت على وجوده إلى جوارها فأدركت أنها لم تكن تحلم. لم تسأله أين كان كعادتهما ألا يسألا بعضهما بدافع القلق، السؤال يكون فقط بدافع الحب. مر اليوم الذي انقلب برده إلى حر وجفاف، وانقطعت فيه رائحة الزهور، وشعرت اعتماد بألم في حلقها لا تعرف له سببًا. بدأ ذلك عند العصر، والمعتمد يجلس على ديوانيته المحببة والجواري حوله يصنعن ضجيجًا خافتًا بأصوات همسهن، بيده صحيفة وقلم، راح يكتب فيها بلا تركيز وبصره زائغ واضطرابه لا يخفى على بشر.

عندما انتهى اقتربت منه اعتماد التي كانت تراقبه من مجلس قريب كعادتها عندما يكتب، تحب وجهه الواثق وابتسامته الصغيرة وهو ينظم الشِّعر. يشبه المراهقين الحالمين، لا يشبه الشعراء الحائرين المتغصنين بالألم عند الكتابة، لكن هذه المرة شعرت بأنه مراهق من النوع الغامض الذي يسبب المتاعب لأهله. سألته أن يقرأ مما كتب، فزاد ارتباكه الذي عرفته اعتماد من رمشة أزيد من المعتاد ونحنحة. قال بعد أن صمت الجميع وانتبهوا:

يَا قَمَرًا أصبَحَ لي مَالِكا لَا تَترُكَني هَكَذا هَالِكا

وفَلذة الكَبدِ التي ضَمَّها مَبيتُها الدَّهرَ بِأوحَالِكا

رقَّ عَلَى قَلبِ العَميدِ الذي يَوَدُّ أن يَجري عَلَى بَالِكا

«يا قمر!»، همست اعتماد إلى نفسها، وهي تتبع نظراته إلى قمر ونظراتها إليه. رتبت كل ما حدث في ذهنها، لكنها لم تهرب هذه المرة.

٣١

حكاية قمر كما حكتها للمعتمد:

هناك بنت أُعدم أبوها أمام عينيها وبمعرفتها، وتعيش بذنب موته إلى الآن، ثم فُقِدت من أهلها وضاعت في بلاد بعيدة. بيعَت على الأرصفة لتكون جارية، واجهت هذه البنت أشياء تقتل الحياة في قلب عصفور صغير كل ما يرغب فيه هو الطيران وحيدًا والبقاء حيًّا. إن سواد العالم كله كان يمكن أن يحولها إلى مجرمة، لكنها اختارت أن تواجه شقاءها بالغناء، وأن تجعل الموسيقى تتحدث عنها، والألم يخرج على شكل كلمات وألحان من فمها.

بعد أن هربت اعتماد من بيت ابن كُليب فار غضبه، وفاض ولم يجد أمامه إلا الجارية الأخرى صديقة البطلة. طلبني في جناحه، وكنت أعرف أنه سيفعلها، لكنني أردت أن أمنحه وأمنح نفسي فرصة أن نكون عاشقين ولو بالكذب ولو لمدة قصيرة. حاولت أن أجره إلى عالمي الخيالي، وأحكي له عن البنت التي تحلم بالحب، وعن بطلها الأسطوري، وعن الرغبة التي تجتاحها لتكون حبيبة هذا البطل. حاولت وكل الأقوياء يحاولون، لكنهم أيضًا يخفقون وتتحول محاولاتهم إلى مأساة عندما تكون في الاتجاه الخطأ.

لم يترك هذا الرجل فيَّ بقعة إلا واغتصبها، اغتصبني كلي، حتى روحي اغتصبها، ولم أستطع أن أقاوم من هول الذهول ومن ضخامة الجثة، ولو كانوا أدخلوا فيَّ سهمًا لكان عذابه أقل من هذا المخلوق الذي يعتصر جسدي حتى آخر رمق. لم تتوقف متعته فقط عند الاغتصاب، إنما ألحقه بالضرب والحرق والجرح حتى ينال لذته من صراخي ودمي.

لا أحكي ما حدث لأسرد معاناتي، بل لأذكر قوتي في تجاوزها. مات الرجل فجأة ولم تتوقف حياتي عند هذه المرحلة، بعد أن أنقذني اللـه أنقذت نفسي. كنت أغني بكائي ولم أحبس الألم،

وضعته كاملًا في الغناء، فلم يبقَ شاعر إلا وأراد أن أغني شعره، ولم يبقَ أمير إلا وأراد أن أكون في حفلاته، ولم يبقَ رجل إلا وأراد أن يأخذ هذا الألم عني، لكنني كنت أرفض، فبعد كل ما عاناه جسدي لن أسلمه إلا لرجل يستطيع أن يبدل الحزن حبًّا وأمانًا.

* * *

هل رأيتِ يا اعتماد كم هي امرأة قوية؟

المشكلة يا اعتماد في تعريفاتنا للعلاقات بين الناس ليس هناك حبيب أو غريب فقط، هناك الجليس والسمير والنديم والصاحب والرفيق والصديق والخِل والأنيس والنجي والصفي والقرين. وإن قمر في هذه الليلة كانت سميرة ونجية، وإنني كنت صديقًا وأنيسًا، ولم يجمعنا الهوى إنما جمعنا معنى آخر.

هل تذكرين عندما كتبت لجوهرة أبياتًا ولدرة وسحر؟ لم يكن هذا هو الحب كما أعرفه معك كل يوم، لكنه معنى آخر. وأنا شاعر، مثلك، دعيني أسألك يا اعتماد من أين تحصلين على حكاياتك؟ أغلب الظن من مخالطة الناس. إن الكاتب لا بد أن يسمع للغرباء، وأن يكون لهم جليسًا وصاحبًا ونديمًا، حتى يرى الدنيا من أعينهم، حتى يعرف ما لا يعرفه ويتشبع به ويتأثر منه، ثم يصوغه على شكل كلمات وأبيات. أليس هذا ما تفعلينه أنتِ؟ لكلٍّ منا طريقته في معرفة الحياة، وأنا لا أمنعك عنها بقدر ما لا أحب أن تمنعيني. وأما عن النساء فأنتِ تعرفين أنك كل النساء.

ظَلَمتِ بالشَّكِّ هَوايَ الذي يَعرِفهُ الغُيَّبُ والحُضَّرُ

واللـهِ ما سقمِيَ إلَّا هَوًى كلُّ هَوًى في جَنبِه يَصغُرُ

غَيَّر جِسْمي فاعلَمي أنَّني أرومُ لُقيَاكِ ولا أقدِرُ

فاستَغفِري اللـهَ مِنَ الظُّلمِ لي فإنَّ مَن يَظلِمْ يَستَغفِرُ

٣٢

حكاية قمر كما روتها اعتماد:

لم نقصد قَطُّ أن نقتل أباها، بائع البالوظة. كنا صغيرتين، أنا بضفيرتين ذهبيتين كلون سنابل القمح، وهي بضفيرة واحدة سوداء بلون تربته. ألعب بدمية من الحرير محشوة بالقطن، وتلعب بدمية من الدمور محشوة بالقش. أقف دائمًا عند عتبة بيتي بينما تركض هي بين كل الشوارع

والبيوت. لم نقصد قَطُّ أن نكون صديقتين، لكنني احتجت إليها ذات يوم حتى أعبر الطريق وأملأ دلو الماء بدلًا من أمي المريضة، واحتاجت إليَّ هي حتى توافق أمها أن تلعب مع الأولاد، ما دام معها بنت بائع الجبن فهي في أمان.

لم تدرك أنها يوم عثرَت على كتب المذهب السني في قبو بيتها بالمصادفة ونحن نلعب «العسكر والحرامية» مع أبناء الجيران، سيكون هو آخر يوم تلعب فيه بقلب نضر من دون التفكير في أي حسابات سوى المكسب في اللعب. حكت ببراءة وجهل للأطفال عن الكنز المدفون الذي وجدته، وكما عرفت فيما بعد، قالت نرجس لأمها فتحية التي نقلت الخبر إلى زوجها حافظ الذي يعمل مع العسكر. فتحية تفرض سطوتها على نساء الحارة، يصاحبنها جميعًا، البعض ليأمن شرها، والبعض لحلاوة لسانها ومزاحها وحضورها الطاغي. أما بنتها نرجس فكانت زهرة بلا رائحة، كأن فتحية أخذت الحضور كله لنفسها. وأما بائع البالوظة فقد اقتادوه في اليوم التالي للحبس، وبعدها بأسابيع صحا الجميع على صوت المنادي الذي كان يجول الشوارع والحارات ليعلن عن موعد المحاكمة الشهري، والذي سيُحكم فيه على أبيها.

ما الذي كان ممكنًا أن أفعله لأنقذ صديقتي من شعورها بالذنب إلا أن أحبها أكثر! أصبحت تابعها الذي يتمنى أن يحقق لها طلبًا. وضعتني في خانة صديقة البطلة، كل الحكايات تدور حولها، ورضيت بهذا الدور لأنني لم أكن أحب أن أناقش حياتي. حتى ملَّت هي مني كما تمل من كل فتى تصاحبه، وآخرهم إبراهيم الذي تركها بعد وقت قليل توطدت فيه صداقتنا أنا وأخته وهو. بعدت عني قمر في العام الأخير لي في مصر، عام الجوع الذي كان الكبار يخوضون فيه معاركهم مع الرزق، ويفقدون الصداقات والعلاقات الطيبة في الطريق، بينما كان الصغار يتحدون أكثر ليتغلبوا على الجوع بالونس، فقدت ونسي مع بُعدها وفقدت أهلي بعدها.

ثم إن قمر لم تفقد أهلها، قمر تزوجت في مصر وتطلقت بعد أقل من عام، وفي سفرها إلى الأندلس كانت تهرب من حياتها مع أهلها.

هناك بنت دفنت أباها، لكن هناك بنتًا لا تعرف أين هو أبوها. أيهما أكثر ألمًا في رأيك؟ هناك بنت قتلت وتشردت حتى تنجو من الاغتصاب، وهناك أخرى اختارت أن تعيش في قصر وتنام على فراش من ريش النعام وتستسلم للاغتصاب. أيهما جازفت أكثر في رأيك؟ لا أقول هذا لأقيس الألم والمجازفات، لكن لأفهم. أنت دائمًا تساعدني لأفهم، ليس بحكمتك لكن بإنصاتك لي وأنا أفسر نفسي. عندما وجدت قمر ظننت أنني وجدت صديقتي مرة أخرى، لكن قسوة ما كنا نعيشه حالت بيننا وبين هذه الصداقة، وعندما عادت من شهور ظننت أنني سأجد فيها شيئًا يعيدني إلى الماضي الذي لم أنسَهُ يومًا، في هذه المرة ومن دون أن أقصد هذا، كانت هي صديقة البطلة، لكن ها هي ذي الآن تحاول أن تعود إلى موضعها القديم.

كل المواضع لا تهمني إلا موضعك. ومن قال لك إن قصائدك لجوهرة ودرة وغيرهما لم تؤذِني؟ ومن قال إن تقربك إلى النساء بداعي دعمهن ومساندتهن وعطفك عليهن لا يؤذيني؟ وهل لا تُؤذى البئر عندما تلقي فيها بالطيب؟ إنه تمامًا مثل الرَّوث، يعكرها فلا تعود كما كانت، ولا تهبك كل ما أرادت أن تهبك، تتظاهر أمامك بالعطاء والصفاء، لكنك لوثت شيئًا فيها.

٣٣

ليالي السمر أو الأنس أو المصاحبة، أو بأي لعنة أراد أن يسميها المعتمد، تمر، واعتماد تشغل نفسها المشتعلة نهارًا، وتموج معه في الأحاديث مساءً. مناقشات لا تنتهي عن الهوى والنفس والكتابة والحسي والمتخيل، حوارات عنها وعما تحكيه قمر وعن صداقتهما. يحاول كعادته أن يطمئنها بوجوده، لكنها هذه المرة فقدت إيمانها به وبنبله وقدسيته. كانت تسير في البيت أسيرة أفكارها تمامًا في اللحظة التي سمعت ضجيجًا عند باب القصر، مزيجًا من الترحيب والدهشة، عاد ابن عمَّار.

وجدت اعتماد في نفسها شيئًا من السعادة بهذا الدخول المفاجئ لابن عمَّار في ساحة أحداث حياتها من جديد، وفي هذا الوقت تحديدًا. لم يتوقع أحد عودته بهذه السرعة. أقبلت عليه عندما وجدته في حالة يرثى لها بثياب مزقها التعب وجروح شقتها الحرب، لم تنطق لكنها أرسلت إليه بعينيها الناعستين تضميدة، وكان في حالة لا تسمح له بالتجاوب مع نظرة، فطلب مقابلة المعتمد فورًا. حضر المعتمد مشدوهًا، وسأله عن سبب عودته الذي توقعه، فقال ابن عمَّار:

- لقد وشى بنا شرير من بيننا، ابن أبي عبد الرحمن بن طاهر كان ينتظرنا، وهجم جيشه على الجنود بكل عتادهم وشراستهم فاضطررنا إلى الفرار. جمعنا الذهب، وطلبنا به المدد من ريموند ملك برشلونة، لكن ما إن واجه جنود ريموند جنود ابن طاهر حتى فروا كما فررنا، والله إنهم لوحوش، ولم نكن لنأخذ مرسية إلا في غفلة منهم، وهأنذا بين يديك الآن يا ملكي وصديقي وأنا مهزوم، ويعتصر قلبي الحزن ليس فقط من الهزيمة، لكن لأن بيننا خائنًا.

رد المعتمد بثبات:

- لا تحزن يا ابن عمَّار سنعود لنأخذ مرسية وقرطبة معًا، وسنعرف الجاسوس ونعاقبه. لكن من تظنه؟

نظر أبو بكر نظرة إلى الفراغ، وفي استدارته إلى المعتمد صوَّب بصره لأقل من ثانية على اعتماد التي شعرت بأنها فهمت ما يصبو إليه في هذه اللفتة الصغيرة. فهمت أنه يقصد المعتمد، المعتمد أرسله إلى هذه الحرب غير المتكافئة ليتخلص منه وتبقى قمر له وحده.

قال أبو بكر:

- لقد كان السر بيننا.

رد المعتمد:

- لا عليك يا أبا بكر سنعرف آجلًا أم عاجلًا، اذهب إلى جناحك واسترح.

- عذرًا يا مولاي، لكنني في حاجة إلى أن أعود إلى بيتي وأبقى فيه حتى أشفى، سيسرع شفائي عندما أكون وحيدًا.

رد المعتمد:

- لك مطلق الحرية، وسأرسل معك الخدم ليسهروا على راحتك.

ذهب أبو بكر إلى بيته، وعاد المعتمد للسهر والسمر وكتابة الشعر في قمر. تمر الأيام ثقيلة، اعتماد حبلى في شهرها الخامس، بطنها صغير ووجهها لم ينقص شيء من جماله، تنظر إلى مرآتها وتتزين، لقد توقفت عن كتابة الشعر منذ مدة، تعرف هذا لأنها لا تتزين في الأوقات التي تكتب بها، الزينة تتعارض مع كشف روحها. تنزل من القصر من دون قرة العين، وتقصد البيت الأنيق في الشارع الخلفي لحي الوجهاء القريب، لقد أرهقها كثيرًا هذا القرار حتى استقرت عليه. لملمت خوفها والخجل وطرقت الباب، فتح الخادم الذي عرفته ولم يعرفها، لأنها كانت تغطي وجهها وجسدها بعباءة واسعة، طلبت من الخادم أن تقابل سيده، وعندما حضر أبو بكر امتقع وجهه لأنه عرفها على الفور.

٣٤

الحب يحمينا من الحماقة وهو أيضًا ما يدفعنا إليها.

رجل مهزوم وامرأة مجروحة، ما الذي يمكن أن يفعله بهما الخذلان؟ مع مذاق العناب اللاذع وبرودة الجو والضباب الذي يغلف كل شيء، تنعدم رؤيتهما لما هو آتٍ. كل الأسباب والتبريرات موجودة وحاضرة من دون أن ينطقا بها. مر نصف ساعة الآن ولم يسألها لماذا أتت، يجلس كلٌّ منهما قبالة الآخر، يحكي لها عن الحرب الذي عاد منها وعن قسوة العدو ووحشيته، تستمع إليه وفي قلبها رجفة، حتى مال الحديث إلى الشعر وراح يلقي عليها من شعره عن الحرب، فقاطعته قائلة:

- يلعن دينك ودين الحرب.

رد ضاحكًا:

- الحرب وقد فهمتها، لكن أنا؟ لماذا تسبينني بربك؟

- لأنك أحمق.

نهض من مكانه وجلس إلى جوارها، وقال:

- أنتِ على حق، أتكونين إلى جواري وأحدثك عن الحرب؟

أبعدت يده التي اقتربت من كتفها، وبخته بزجرة، لكنها لم تنهض من مكانها ولا هو. بعُد مسافة تمكنه من الحديث إليها وهو يرى تعبيرات وجهها، ثم قال بهدوء:

- هل تعرفين سبب هزيمتي في مرسية بل وسبب ضعفنا وقلة حيلتنا في هذا الزمن؟

حركت وجهها يمنة ويسرة بما يعني أنها لا تعرف، أكمل وهو ينظر إليها في عينيها:

- إنه المعتمد.

انتفضت وهي تقول:

- توقف عن هذا.

- توقفي أنتِ عن أن تكوني غبية.

- لقد زادت رقعة مملكته منذ أن تولى، لقد فاز في كل حروبه، وله من الأحبة ما لا يحصيه عدد، من كل الممالك والبلاد البعيدة كذلك.

- هذا ما يقوله لكِ.

- بل هذا ما أراه.

- الحب لا يجعلنا نرى.

- إنه أنبل الملوك.

- لقد ورث ملكه وليست له يد فيه، ويريد أن يجمع حوله الشعراء والكُتَّاب لينجدوه لأنه ليس برجل دولة. إنه ليس من طينتنا، أنا وأنت، نحن نعرف الوحدة والغربة والفقر والاضطرار، لكنه لا يعرف شيئًا من هذا.

- يجمعهم حوله لأنه يحبهم ويُقدرهم كما يقدر الشعر الجميل. وهو أيضًا له عذاباته.

- إنه ليس بشاعر، كل من ينتمي إلى طبقة السياسيين والملوك ليس شاعرًا حقيقيًّا، الشاعر الحقيقي هو الجوال الذي يكابد في سبيل الشعر صعابًا جمة ورأس ماله هو شعره، يجاهد به ويثور وينفجر.

- يكابد في سبيل الشعر أم في سبيل الرزق؟

- الرجل الذي قابلتِه آنذاك كان شاعرًا جوالًا ولم يعْنِه الرزق ولا الأهل ولا حتى الحبيبة، كل ما كان يشغل روحه وقتها هو الشعر، الشعر من أجل الشعر.

- فعلًا! ليس الشعر المقصود به التزلف ومدح الملوك من أجل المال.

- ألم أقل لكِ إنك غبية. إنه من أجل أن أصل إلى هنا، أن أصبح رجل السيف، وهي أعلى مكانة اجتماعية يمكن أن يصل إليها الكاتب.

- وأعلى راتب وأفضل بيت، كل الأشياء تصل بنا إلى المال.

- ماذا تريدين أن تقولي؟ ولماذا جئتِ هنا يا ابنة الرميكي؟

- أنا السيدة الكبرى، وأريد أن أقول إنني أكرهك.

- كبرى! إنك أصغر من كف يدي. أما عن الكره فهذا جيد. ويسعدني.

سألته:

- أين زوجتك وطفلاك؟

- في شِلب، ولم تعد زوجتي، تطلقنا منذ زمن، فهي لم تُطق حياتي.

- ألا ترى طفليك أو ترسل إليهما الأموال؟ ألا تريد أن تأتي بهما إلى هنا؟

صمت أبو بكر وتجاهل أسئلتها، ثم مال تجاهها فبعدت عنه، سألها:

- ألا تريدين أن تعرفي كيف تسبب المعتمد في هزيمة مرسية؟

- ربما لأنه أرسل أخيب وزرائه.

- أو ربما لأنه خائن.

انتصبت اعتماد وهي تقول:

- أحذرك من أن تتحدث عنه بهذه الطريقة.

- اجلسي يا اعتماد، ما زلت غبية، وما زال الحب يعميكِ. المعتمد مُتواطئ مع الإسبان ضد الملوك العرب، وهو من اتفق مع ريموند بمدي بجيش لنسطو على مرسية، وجيش ريموند فر متظاهرًا بعدم قدرته على الحرب، لكن الحقيقة أن المال الذي دفعه المعتمد لم يكن كافيًا، بل وإنهم يقولون إن ما دفعه كان مزورًا.

- توقف!

- المعتمد يغدق ويسرف من مال المسلمين، يوزع الجوائز على الشعراء من الذهب والفضة من بيت المال، أنسيتِ الجمل الذهبي الذي أهداه إلى البدوي؟ والتحف وسُرر النقود التي يهادي بها الغرباء فقط لأنهم شعراء. إن المعتمد بقدر ما هو سفيه فهو أيضًا صديق أعداء الله.

نظر إلى عينيها المندهشتين الغاضبتين وأكمل:

- لا يهم أن تصدقيني، ستتأكدين بنفسك.

نزلت دموعها وهي ما زالت تنظر إليه بغضب، فقال وهو يمسحها بكفه الكبيرة:

- دموعك غالية يا سيدتي الكبرى.

أزاحت كفه وهي تقول:

- والله إنك لتكذب، وإن المعتمد أفضل منك ومني.

- نعم، هو صديقي وأنا أيضًا أحبه على الرغم من ذلك، وآمل أن يغيره الزمن أو أغيره أنا، لكن لا كلمة واحدة كذبت عليكِ فيها، ولم أكذب عليكِ في حياتي قَطُّ، ما رأيتِه مني في الماضي كان طموحي الأخرق وخوفي من المستقبل وأنا صفر اليدين غني الروح والقلب، وما ترينه مني الآن هو خوفي على هذا البلد، وعليكِ، حتى إذا اضطرني هذا إلى البقاء في منصب لا أريده وبيت لا يروقني. فأنا اعتدت حياة التجوال والشوارع والبيوت الصغيرة الدافئة، أما كل هذا البذخ فهو مرحلة أعبُر منها لتحرير بلادي ونفسي من الخونة والجبناء، إنه دوري وعليَّ أن أكمله مهما كان الثمن، وأنتِ الآن شريكة في هذا السر، إما أن تخوني العوام والمسلمين، وإما أن تشاركيني ولو بصمتك حتى ننتصر للدين والوطن.

صرخت فيه:

- ماذا تقول؟ تريدني أن أتعاون معك على زوجي؟

قال:

- أريدك فقط أن تصمتي وتكوني معي بقلبك.

- الصمت أيضًا خيانة.

- اصمتي لو كنتِ تحبينه، فإذا كان بريئًا ظهرت براءته وآمنت به وله، ولم أخسر أنا وهو صداقتنا، وإذا كان مُدانًا فسيظهر جرمه بفضلنا، ولن تندمي على ما سنفعله. اصمتي لأن الصمت أفضل الحلول لمن ليس بيده شيء، ولمن يخاف على حبيبه من تبعات الاعتراف.

- من أنتم؟

- نحن من نحارب من أجل الله ورسوله ورفعة دينه ونجاة الناس وسلامة الوطن.

- محمد أشرف منكم.

أومأ من دون أن ينطق، لكنها شعرت بصدق ما في عينيه وبقشعريرة في جسدها. شرعت في المغادرة وقد انتصف الليل، غمرت نفسها بالعباءة الطويلة واتجهت إلى المخرج. سألها وهي عند الباب:

- لماذا أتيتِ إلى هنا؟

لم ترد. فقال:

- سأنتظركِ عندما تظهر الحقيقة.

صفقت الباب خلفها، وهمست إلى نفسها وهي تسير بعيدًا: «جئت لأنني أغار من قمر، جئت وأنا أكره المعتمد، والآن أحبه أكثر».

٣٥

عندما يحاول الناس أن يظهروا حقيقة شخص تحبه فهم يصنفون أنفسهم تلقائيًّا من الأعداء، سوف تقاومهم بضراوة وتلعنهم وتعلن الحرب عليهم، حتى وأنت في داخلك مشوش ومهزوز. وأحيانًا ستوافقهم ليأمنوك ولا يعرفوا أنك تخطط لإقصائهم من حياتك. يحدث هذا في الأيام الأولى لاكتشاف حقيقة من تحب، لأنك بعد ذلك ستصدقهم وستراقب حبيبك وتخشاه وتنتظر لحظة انهيار علاقتكما عند المواجهة.

لماذا تستغرب أنه خائن لبلده ودينه وهي تراه الآن ينظر إلى قمر مبتسمًا تلك الابتسامة الهادئة التي لطالما بثت فيها الأمان؟ ولماذا تشعر الآن بالذات بالخيانة؟ لقد استشعرت شيئًا منذ أن صرف عمر وأخفى عنها السبيل إلى أهلها، وها هو ذا الآن يتناول الفاكهة التي يحبها مقطَّعة إلى مكعبات صغيرة في طبق بيضاوي عميق من خشب الصنوبر، وهو يسترق السمع إلى الغناء والنظر إلى قمر، لكنه فاجأها ونظر إليها نظرة الحب التي تعرفها، هذه المرة لم تطفئ حريق القلب.

خطرت لها في هذه اللحظة الخطوة الأولى لما خططته.

الدلال: بادلته النظرة بنظرة أشد غرامًا، هذا الرجل يهوى التعبير له عن المحبة بكل الطرق ويستطيع أن يرصدها كلها، وعلى الرغم من أنه لا يظهر هذا الاحتياج فإنها كلما انشغلت بالأطفال أو بملكوتها، يعاتبها بلطف ويذكِّرها بكل ما مضى بينهما. أرسلت إليه النظرة ثم اقتربت منه وتبعتها باللمسة، ثم من دون أن ينتبه أحد قرصته في باطن ركبته، وهذا هو المكان الذي يثير ضحكه، لم يتحمل هذه المداعبات كثيرًا فطلب منها أن تسبقه إلى جناحهما.

الشعر: في الصباح عصرت كل أفكارها وهي تجلس في شمس الشرفة، وتتأمل الحياة حولها، وتستقي من الطبيعة التشبيهات النضرة، ومن الحب والألم تستقي تعبيراتها، حتى كتبت أبياتًا لأول مرة منذ شهور، قضت بقية النهار واليوم التالي تراجعها وتعدلها حتى رضيت عنها تمامًا. في المساء انتهزت فرصة انشغاله في مجلسه بعيدًا عن الحفلات والحريم، فدخلت عليه وفي يدها القصاصة، ما إن رآها حتى ترك كل ما بين يديه وصرف وزيرًا كان يجالسه ورحب بها هذا

الترحيب الأبوي المحبب. «يا إلهي! أنا أحبه»، صرحت بهذا في نفسها قبل أن تلقي الشعر وهي تجلس أمامه كتلميذة متوترة. لقد أعجبه الشعر، عرفت ذلك عندما غاب عنها للحظة، وتأمل الكلمات مغمض العينين. أخذها على فخذيه وهو يمطرها بالثناء والقُبل، فشعرت بأنها تريد أن تتوقف عن خطتها الآن.

الذكاء: لا تحاول كثيرًا أن تتدخل في شؤونه السياسية لسبب بسيط وهو كرهها للسياسة، لكنها تحب أن تتدخل في أحكامه الإنسانية وتناقشه فيها. كان يحكي لها وهو يضحك ضحكته العذبة عن البازي الأشهب، المحتال الذي دوَّخ أهل البادية وقد شكوه جميعًا لكثرة ما سرقهم وسطا على أموالهم وبضاعتهم، وكان مفتونًا بالسرقة وله فيها أساليب ذكية وغريبة يستغل بها سذاجة الناس. أمر المعتمد بصلبه عند أهل البادية عندما تمكن العسكر أخيرًا من القبض عليه، وذلك حتى تهدأ نفوسهم ويخاف من كان في نفسه إعجاب بالبازي ويطمح في أن يقلد أساليبه.

لكن ما حدث وقصَّه المعتمد ضاحكًا على اعتماد، أن الرجل سرق تاجرًا بدويًّا وهو مصلوب، خدعه وطلب منه أن ينزل إلى البئر ليلتقط مائة دينار ألقاها بها قبل أن يقبض عليه، ووعده بأن يقتسماها، وما إن نزل التاجر حتى سطت زوجة البازي وبناته على بضاعته. اشتهرت القصة حتى إن المعتمد أتى به وسأله عن سبب ما فعله، فقال الرجل:

- يا سيدي لو تعرف قدر لذتي في السرقة، لخليت ملكك واشتغلت بها.

فطلب سجنه إلى أن يفكر في أمره. قالت له اعتماد:

- لكنْ رجل بهذا الذكاء لماذا تحبسه في السجن، ألا تستفيد منه؟

سألها:

- كيف يا أم الربيع؟

كان قد بدأ يناديها بهذه الكنية عندما عرف بحملها، واستمر في مناداتها بها.

ردت:

- بأن تستصلحه وتوجه ذكاءه وجهة نافعة.

استحسن المعتمد رأيها، وقال بعد تفكير:

- بارك الله فيكِ، حسن ما أشرتِ عليَّ به، سأعيِّنه في الحرس، لكنني لن أفعل إلا بعد أن يعدني بالتوبة.

ثم ذهب لاستدعائه، بينما اعتماد تفكر في هذا الرجل الجميل الذي ينتظر تعهدًا بالتوبة من محتال ويؤمل فيه خيرًا. إنها لا تثق بأنه سينصلح، لكنها تثق بأن هذا الرأي سيكون على هوى المعتمد.

الجرأة: إنها السبب الأول في حبه لها، جرأتها في أن تجيز له شعره في أول لقاء، جرأتها في أن تعقد معه اتفاقًا قبل الزواج وهي ما زالت جارية، جرأتها في السفر إليه وحدها، وفي مشاركته

الرأي بالرأي والقرار بالقرار في كل شيء، وجرأتها معه في العشق، وهذا أكثر ما يستهويه. في هذا المساء وبعد أن انتصف الليل، كانت قد اتفقت مع قرة العين على كل شيء؛ شموع حول المسبح الخلفي الصغير الذي يطل في جانب منه على جناح الحريم، لقد قررت اعتماد أن ينزلا معًا المسبح، بين الماء والهواء الخارجي. حولهما الحدائق وصوت الضفادع والحشرات الليلية وهدير الطبيعة، لقد تخيلا الأمر كثيرًا وحكت له عنه لتثيره مرات عديدة، لكن ها هي ذي الآن تحقق له الخيال، لا يهمها إن رآهما الحريم... بل يهمها قليلًا.

البعد: حسنًا، هذا لا يحبه المعتمد، لكنها بحاجة إليه حتى يفيق، انزوت اعتماد في غرفة من غرف الضيوف مخصصة لها، تعتكف بها أحيانًا عندما تغلبها نفسها ولا تستطيع مواجهة أهل القصر، ويسمح لها المعتمد بذلك لأنها تعود منها أطيب وأخف، لكن هذه المرة تركته في غمرة الحب والحنان فكاد يجن، فعل كل ما في وسعه من لطف حتى تعود عن إقامتها بالغرفة القريبة نظريًّا، البعيدة كل البعد روحيًّا، لكنها أبت ولم تقدم تعليلات كعادتها، قالت: «لا أريد». وعندما أصر عليها أرسلت إليه أنها مريضة، وتحتاج إلى العزلة. تركها أيامًا، ثم أرسل إليها أبياته مع جارية:

مَرِضتُم فَأمسَكتُ الزِّيارةَ عَامِدًا

ومَا عَن قِلى أمسَكتُها لَا ولَا هَجرِ

ولَكِنَّنِي أشفَقتُ مِن أن أزُورَكُم

وأُبصِر آثارَ الخُسوفِ عَلَى البَدرِ

لكن ما فعله المعتمد بعد هذا البعد بأيام كان تمامًا ما أرادت، زفَّت لها قرة العين الخبر بينما تتكئ على مجلسها مرتاحة:

- لقد أهدى سيدي المعتمد قمر إلى الوزير ابن عمَّار.

وهنا لم تفهم اعتماد نغزة الحزن التي أتت مع فرحتها العارمة! نهضت وضمت قرة العين، كأنها تريد لقلبها أن يشاطر قلب قرة العين مشاعره من دون حديث، مشاعر الفرحة بالنجاة من قمر، والحزن من ذهابها إلى الرجل الذي أحبها وأحبته في الماضي. لقد طرد المعتمد قمر، وهذا يكفي ليجعل الحياة أسهل على اعتماد، ويدعها تتفرغ لاكتشاف صدق ابن عمَّار من كذبه فيما يخص المعتمد. إنها لا تريد هذا الاكتشاف وتريده في الوقت نفسه، لكن قبل كل شيء عليها أن تودع قمر وداعًا يليق بها. لم تَعُد اعتماد فورًا إلى جناحها، وبعد أيام خرجت إلى الحديقة في غفلة من الجميع، ذهبت إلى شجرة السرو حسب اتفاقها مع أحد الحراس، وهناك وجدت قنينة ملفوفة بالورق.

٣٦

إنها معركة، وكل شيء تبيحه الحرب، هذه المرأة التي كانت صديقتها تريد أن تسرقها مرتين. في البداية ترددت اعتماد، لا تريد أن تكون قاتلة بعد أن أنقذها الله من قتل حارس القصر، فعلتها في المرة الأولى من أجل الخلاص، لكن ما معنى أن تقتل من أجل الحب، أو من أجل نفسها؟ ترددت كثيرًا في هذا اليوم، ولم تَعُد فورًا إلى المعتمد حتى تستطيع التفكير من دون أن يشوش عليها الشعور بنسيان العالم عندما تكون إلى جواره. لكنها حسمت أمرها عندما عرفت بحادثتين سبقتا قرار المعتمد بإهداء قمر إلى ابن عمَّار.

تسحبت الجارية حليمة إلى غرفة اعتكافها لتطلعها على ما رأته وسمعته، لقد رأت قمر وهي تدخل جناح المعتمد ليلًا ولم تخرج منه قبل ساعات، ثم سمعتها وهي تحكي للجارية امتثال أنها لن تقبل أن تكون محظية المعتمد إنما تريد أن تكون زوجه. هذه الحادثة الأولى التي جعلت جذوة غيرة اعتماد تشتعل، أما الحادثة الثانية فعرفتها من امتثال نفسها التي حكت عن لوعة قمر بابن عمَّار الذي نال ما ناله منها ثم استمر في صدها، أو ربما لأنه لمس اهتمام المعتمد بها. وقد أدى بها هذا الولع إلى ذهابها إليه مرات سرًّا، بينهما شيء لا تفهمه امتثال لكنها رأت أن ترويه على اعتماد، لأنها مثل جميع من بالقصر تستطيع أن ترى أن هناك سيدة كبرى وهناك قمر، وكلٌّ له فريقه ممن يحبه ويؤيده. وهي من أجل ليالي الضحك والبوح والصداقة اختارت أن تكون في فريق قمر، لكنها تضمر في نفسها ولاءً لاعتماد.

بعد هذين الاعترافين تجنبت اعتماد حليمة وامتثال، فعلى الرغم من رغبتها في أن تعرف الحقيقة فإنها لم تتحمل رؤية وجه من قالها. لم تَعُد إلى المعتمد كما توقع، وظلت في معتكفها إلى أن سمعت طرقًا ببابها ليلًا وفتحته لتجد المعتمد أمامها.

أخفت قنينة السُّم التي وضعتها إلى جوارها بسرعة وهو يلج غرفتها ويقول بصوته المتعب:

- ألم تكتفي من الغياب؟

- ألم تكتفِ أنت من النساء؟

- أنتِ كل النساء وأنتِ أكثر من يسعد قلب محمد.

- لكنك على الرغم من ذلك تقضي الساعات مع قمر في جناحها وجناحك.

- ليس ما بيننا غرامًا. ألم تعرفي أنني أهديتها إلى أبي بكر؟

- تأخرت كثيرًا.

قال وهو يضمها إليه:

- دائمًا هناك وقت.

همست إليه:

- هذا ما تظنه.

لقد توحشت حضنه ولم تستطع مقاومته، لكنها استمرت في الحديث، مما جعله يبعدها قليلًا عنه ليراها من دون أن يخرجها من بين ذراعيه. قالت:

- أنا تعبة، وتعبت من تعبي، هل سأعيش حياتي معذبة بهذه الطريقة؟ هل ستظل تثير غيرتي وتخرج من بين حبي وجعًا خالصًا وجنونًا محضًا بما تفعله؟ أنت تعذبني بهذه التصرفات الباردة!

رد:

- أنتِ من تعذبين نفسك يا سيدتي وحبيبتي وتاج نسائي.

بكت، فجلسا على الفراش متجاورين، وذراعه تلتف حولها، قال:

- تعالي نتفق، إذا عذبتك اتركيني، فأنا لا يهمني ما قد أعانيه من غيابك، لكن ما يعنيني حقًّا هو ألا تعيشي معذبة في كنفي، أنا أريد سعادتك حتى لو ثمنها معاناتي.

- أتقبل أن تفقدني؟

- لا والله لا أقبل فقدك، لكنني أريدك سعيدة مهما كان الثمن.

- ولماذا لا تجرب أن تسعدني وأنا معك؟

- أجرب، وسامحيني إن أخفقت، لكن لا تطلبي مني ألا أكون ما أنا عليه.

تنهدت:

- أنا أحب ما أنت عليه، لكنني أخاف.

- لأنك اعتدتِ الخوف، لا تريدين أن تتغيري.

- لا تطلب مني ألا أكون ما أنا عليه.

ضحك وضمها إليه، وقبَّل وجنتيها. امتد الحوار مع المغازلة والحب حتى تسربت إليهما أشباح النور على استحياء، فناما حتى الصباح، ولم تَعُد اعتماد إلى جناحها، ظلت في المعتكف، وظل يزورها ويخطفان الحب كأنهما مراهقان.

دخلت غرفتها في إحدى الليالي عائدة من مجالسة أبنائها، فوجدت قرة العين مرتبكة وتخفي شيئًا خلفها، نادتها اعتماد:

- ماذا بك؟ ماذا تخفين؟

قالت بتلعثم:

- لا شيء يا سيدتي، فقط شعرت بالدوار وأنا أرتب غرفتك، أحتاج إلى أن أذهب إلى فراشي.

همت بالخروج لكن اعتماد قبضت على ذراعها، وقالت:

- هاتي ما عندك، فأنا لم أصدق كلمة مما قلتِ.

حركت ذراعها من خلف ظهرها إلى الأمام فظهرت قنينة السُّم، فهمت اعتماد لكنها انتظرت قول

قرة العين، قالت:

- أخشى عليك من هذا يا سيدتي.

- إنه ليس لي، لا داعي إلى الخوف.

- هل تعرفين أن الحبلى إذا قتلت نفسها مات أبناؤها تباعًا؟

نفخت اعتماد غاضبة وقالت:

- أعوذ بالله من أمثالك.

قالت قرة العين وعيناها متسعتان:

- إنه ليس بمثَل، إنه مقولة لها صيت من صدقها.

ردت اعتماد:

- ابتدعها الجهلاء.

قالت قرة العين:

- بل الصالحون، وأنا أعذرك سيدتي فإن «المغايظ تولد النار».

ردت اعتماد:

- والجالس على الغدير عوَّام.

تنهدت قرة العين وقالت:

- سيدتي عذرًا، لكن مكان هذه القنينة ليس هنا، سوف أتخلص منها بطريقتي.

فكرت اعتماد بسرعة وقالت:

- اسمعي يا قرة، هذا ليس بسُم، إنه دواء صنعه العشاب لي خصوصًا، ليعالج القيء الذي يصيبني كل يوم، دعيه مكانه ولا تعبثي بأشيائي مرة أخرى.

ردت قرة العين:

- لكن هذه القنينة بالذات يميزها العشابون حتى يعرف الناس أنها سم.

- نفدت القِنينات عند الرجل ولم تتبقَّ غير هذه، فماذا أنا فاعلة؟

ثم أكملت قبل أن تنطق قرة العين:

- كيف تفكرين في أنني يمكن أن أقتل نفسي! لديَّ زوج أحبه وأبناء هم كل حياتي، ومُلك وجاه، لا ينقصني شيء.

- إذن لماذا تتركين ملكك يا سيدتي وتبقين في هذه الغرفة الصغيرة؟

- لأنني سريعة الملل يا قرة، مللت جناحي، لكنني سأعود إليه عن قريب.

أعادت إليها قرة العين القنينة، وغادرت ومن عينيها وخطواتها يتسرب القلق. قررت اعتماد في هذه اللحظة أن تنفذ خطتها بسرعة للتخلص من قلق الليالي وتتفرغ لشهورها الأخيرة في الحمل. قمر هي الشريرة في قصة حياتها، وهي التي يجب أن تموت قبل أن تسبب لها مزيدًا من التعاسة،

لكن ماذا لو ظهرت قمر أخرى؟ ماذا لو أن هناك ألف قمر؟ القنينة في يدها والفكرة مُعدة في رأسها، تبعد الصوت المتردد عنها، لأنه خذلها كثيرًا.

٣٧

يقول ابن عمَّار بصوته الممتلئ بالحماس ونبرته الخطابية العالية:

- هذه هي غايتنا، الاستيلاء على قرطبة ثم طليطلة ثم سرقسطة من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي، أما بعدها فبطليوس وغرناطة وألمرية ومالقة ومرسية وبلنسية.

رد عليه المعتمد بهمته العالية:

- نعم، لن نبدأ بمرسية وبلنسية، سنبدأ بالأصعب والأعظم.

قال ابن عمَّار:

- بل بالأكثر تزعزعًا وفسادًا.

أومأ المعتمد الذي لاحظ تسلل اعتماد إلى جلستهما، استقبل قدومها بترحيبه المحبب، وأشار إلى ابن عمَّار أن يترك مكانه لها لتكون هي من على يمينه. جلس ابن عمَّار على يسار المعتمد مفسحًا لاعتماد التي رمقته بقرف وهي تجلس. قال المعتمد الذي تهلل وجهه بالسعادة الآن:

- جيد أنكما اجتمعتما، زوجي الحبيبة وصديقي الأحب. أريد أن أطلعكما على أمر.

دق قلب اعتماد، وأرهفت السمع وهي تحرص على رسم ابتسامة كبيرة على وجهها الذي اعتنت به كثيرًا قبل قدومها. قال المعتمد:

- لقد نويت أن أقيم مسابقة للشعر، لكن هذه المرة لشعراء المهجر الآتيين من بلادهم البعيدة، متجولين وفقراء، يقودهم شغفهم بالشعر، أتوا إلى الأندلس لأنها أرض الشعراء، طامعين في أن يُسمَعوا ويُعرَفوا، المسابقة ستساعدهم على ذلك.

نظر أبو بكر نظرة خاطفة إلى اعتماد وهو يلوي شفتيه كأنه يقول: «أرأيتِ؟».
قالت اعتماد التي كان ينظر إليها المعتمد منتظرًا:

- الفكرة جميلة ونبيلة، لكن يا أبا القاسم لقد سمعتك تؤًا تتحدث عن حروب، والحروب تعني النقص في كل شيء، وتعني الحاجة والاستعداد.

ضحك المعتمد وقال بفخر لأبي بكر:

- هل رأيت؟ لقد تزوجت امرأة دولة.

ثم قال متجهًا إلى اعتماد:

- لدينا من المال ما يكفي، لا تقلقي يا أم الربيع، لن يجوع أحد في مملكتي، وإذا كان لأحد أن يجوع فسأكون أنا.

ابتسمت اعتماد، ثم زمَّت شفتيها، ورفعت عنقها وهي تنظر بحكمة، وتومئ إلى المعتمد الذي

ضحك بصوت عالٍ.

لم تحاول أن تثنيه عن فكرته، على الأقل الآن، لأنها مشغولة بقنينة السُّم المختبئة في غرفتها، ولأنها مستاءة من وجود أبي بكر ومن حب المعتمد له الذي يضعه معها في المنزلة نفسها. بعد القليل من الوقت ذكَّره أحد الحراس بأن لديه موعدًا لمقابلة وزيره أبي القاسم الهوزني. نهض وعندما وقف أبو بكر قال له:

- فلتبقَ أنت، إنها مسألة بسيطة سأتناقش فيها مع أبي القاسم وحدنا.

غادرهما المعتمد وبقي أبو بكر مع اعتماد. مرت ثوانٍ مرتبكة، قطع صمتها أبو بكر عندما قال:

- هل تنتظرين دليلًا آخر على السفه؟

ردت:

- كيف أنتظر دليلًا وأنا أمامي الآن أكبر دليل.

قال:

- ماذا تقصدين يا اعتماد؟

قالت:

- أقصدك أنت، ولا تكررها مرة أخرى، لا تناديني باسمي.

نظر إليها متجهمًا وهمَّ بالوقوف وهي تعاجله قائلة:

- ألا ترى أنه من السفه أن يُعيِّن ملك صديقه في الحكم.

رد:

- الملوك لا يُعيِّنون إلا من يثقون به.

قالت ساخرة:

- وأنت أهل للثقة!

- لو أنكِ ما زلتِ لا تصدقينني ولا تثقين بي فجدير بك أن تعرفي ما فعله بك زوجك الحبيب.

- والله لم يفعل معي إلا كما يفعل الخشب مع الغريق، وما يفعله المطر مع الأرض الجافة، إنه ينقذني ويرويني وأنا معه أنمو وأزهو.

- لا مجال لحسك الشعري الآن، أنتِ لا تعرفين مع من تعيشين، ولا تعرفين ما حدث قبل عام من الآن.

- ما الذي حدث؟

وعندما لم تجد إجابة، قالت:

- إذا لم تخبرني الآن فسأخبر المعتمد بما تضمره له.

قال متنهدًا:

- سأقول، لكن يجب أن تعرفي أنني أحبه وهو صديقي وأخي الذي أريد له الصلاح والنصر، سأبقى إلى جواره حتى أقوّمه من دون أن يشعر. سأحكي ما حدث، ليس لأنك هددتِ، لكن حتى تعرفي.

أشار إليها أن تجلس وجلس بدوره، ثم قال بصوت هادئ:

- منذ عام أتى فوج لتجارة الحرير من مصر إلى مالقة، وتكتمنا جميعًا أمر هذا الفوج عنك بأمر من المعتمد. عندما عرفت ذلك انتهزت الفرصة وذهبت إلى مالقة مع تجار إشبيلية، كانوا كثرًا والسوق كان واسعًا، أضخم سوق رأيت، أُصبت بالحُمَّى حين وصلت، ومرت عدة أيام قبل أن أصل إلى الفوج المصري، عندما وصلت إليهم ألفيتهم في صخب، يبيعون بضاعتهم بطرق غريبة، ينادون الناس بأسماء ليست بأسمائهم، يبتسمون للناس ويلقون المزحات ويألفون الأهازيج، ويصرخون على بعضهم من دون غضب، ويحتدون ثم في الثانية التالية يضحكون. شعرت بأنني في ملعب للسحرة ولست في سوق، لكنني دأبت على سؤال العقلاء منهم إلى أن دلوني على رجل في أوج شبابه اسمه «حسين».

صمت قليلًا ليمنح الفرصة لدهشة اعتماد من سماع اسم أخيها أن تهدأ. تنظر إليه الآن مباعدة بين شفتيها من دون أن تنطق، يكمل هو:

- لم أرَه يومها، أخبروني بأنه اعتُقل منذ أيام، لم يعرف أحد السبب، ثم حاولت استخدام سلطتي مع أهل مالقة لأعرف من اعتقله ولماذا، من دون أن أصل إلى شيء. لكن في اليوم الأخير للتجار في الأندلس أُفرج عنه واقتيد إلى السفينة من دون أن أستطيع مقابلته أو حتى رؤيته، علمت بعد ذلك من زيارة لاحقة لمالقة أن المعتمد كان وراء ذلك، وأنه هو من أمر بإخفاء أخيك الذي قيل إنه أتى بحثًا عن قريب له.

قاطعته اعتماد:

- إذن أتى أخي من مصر أم أنه يعيش في مالقة؟ هل وجد أبي وأمي أم تفرقنا جميعًا؟ هل عاد أهلي إلى مصر؟

قال:

- لقد رويت عليكِ ما عرفته، وما عنى لي الكثير وأظهر الكثير مما يضمره المعتمد الذي لا يخفي عني شيئًا عادة. هذا الرجل لا يريد أن يصلك بأهلك، لا يريد أن يكون لك في الحياة أحد غيره، هذا الرجل ليس بأمين عليك، هذا ما عرفته وأخفيته عنكِ حتى لا أوذيكِ.

انهارت اعتماد بالبكاء، فهمس إليها أبو بكر:

- أود لو تعرفين ماذا أريد فعله الآن ويمنعني المكان.

لم تسمعه، قالت:

- كيف أصدقك؟

رد بإحباط:

- أبعد كل هذا لا تصدقينني؟

قالت من بين دموعها:

- لم يحدث شيء يجعلني أصدقك، هاتِ دليلك.

قال:

- حسنًا، اسألي أبا اليزيد تاجر الحرير في سوق النسيج بجوار المسجد الجامع.

تركته اعتماد من دون كلمة، وفورًا بدلت ثيابها في غرفتها، وتركت رسالة شفوية إلى المعتمد مع قرة العين أنها ذاهبة إلى السوق. استقلت إحدى عربات القصر، وعندما وصلت إلى سوق النسيج تركت السائق مع العربة جانبًا وترجَّلت في الشوارع تسأل عن أبي اليزيد. دلها الناس على دكانه، لكنه كان في صلاة العصر، فانتظرته على كرسي خشبي قديم مغطى بقطع من الكتان

والحرير المتفسخ، حتى إذا جاء أبو اليزيد لم يتعرف عليها وظنها زبونة. اعتماد متلهفة ولا تقوى على الانتظار، سألته بأنفاس متهدجة عن فوج أتى من مصر قبل عام، تلعثم التاجر وتظاهر بأنه سيريها قماشة عظيمة من الحرير يدخرها لمن في قدرها. أخذها إلى داخل المخزن القابع في نهاية الدكان، هناك خلع طاقيته ومسح بيده على رأسه محاولًا استجماع أفكاره، سألها:

- من أنتِ؟ ولِمَ تسألين عن هذا الفوج؟

ردت:

- أما عمن أنا فصدقني الأفضل ألا تعرف، وأما عن الفوج فأتيتك بالسؤال من ابن عمَّار.

سألها:

- ابن عمَّار وزير المعتمد؟

أومأت، فقال:

- لقد مر وقت طويل، فلماذا تذكرين ابن عمَّار هذا الآن؟ ما علينا، نعم أتى الفوج من مصر وقابلناه في مالقة في هذا الوقت الأغبر، أسَروا الرجل يا ولداه وهو غريب، أظن أنهم أحسنوا معاملته، لأنني عندما قابلت البحارة بعدها حكوا أنه كان في هيئة الأمراء، وقد أخلى الحراس سبيله على السفينة فلم يقابله أحد. لماذا هذا الرجل؟ والله لا أعرف، لكن ابن عمَّار كان ينكش وراء هذا الموضوع ويستعين بي وبآخرين حتى نأتي إليه بخبر، يبدو أنه سر خطير والحديث عن الأمر يعرضني ويعرض بضاعتي وأهلي للخطر.

سألته:

- هل يمكن أن تصلني بالبحارة الذين قابلوا الرجل على السفينة؟

تغيرت ملامح التاجر لمزيد من الحيرة. فكَّر لدقيقة قبل أن يرد:

- البحارة لم يعودوا يعملون في الأندلس، انتقلوا إلى العمل والعيش في العُدوة المغربية.

رأى على وجهها الإحباط، فقال:

- أستطيع أن أعلمكِ عند حضورهم إلى ميناء مالقة، لكن يجب أن تخبريني من أنتِ.

لم ترتبك اعتماد أو تفكر مرتين، قالت:

- أنا اعتماد زوج المعتمد.

شهق الرجل:

- السيدة الكبرى!

قالت:

- إذا عرفت شيئًا عن البحارة أو الرجل ستعرف كيف تصل إليَّ.

أومأ الرجل المشدوه، وتركته اعتماد وخرجت. حين أفاق من دهشته ولاحقها ليقدم لها هدية من بضاعته، لم ترد عليه. ركبت عربتها وأمرت السائق بالعودة إلى القصر. كانت تفكر بقنينة السُّم وبكل الاحتمالات التي يمكن أن تقدمها لها وبكل الأرواح التي أحبتها والتي تريد أن تزهقها الآن.

٣٨

رائحة الأشياء تستدعيها، والحياة في براثن الشيء تجعل رؤيته أمرًا عاديًّا ومعايشته جزءًا من الطبيعة المتقلبة. واعتماد تعيش سنوات مع القتل والحروب والموتى. حموها قتل مئات البشر، بعضهم في أثناء وجودها في القصر، والرميكي قتل، وابن عمَّار والمعتمد، حتى هي كادت تقتل في يوم قديم، القتل ليس بعقوبة، لكنه قدر وأحيانًا تحدث أمور تستعجل للناس أقدارهم. القتل درء للمتاعب والعذابات، وهو النصيب الذي يجب أن يستسلم له القتيل والقاتل سواء.

في اليوم التالي لسفر أبي بكر إلى ليون ليقابل ألفونسو ويتفاوض معه على الجزية، وهو سفر طويل ومهمة صعبة، حسمت اعتماد أمرها وذهبت في زيارة إلى بيت أبي بكر لتقابل قمر. كانت ترتدي أبهى ثيابها وجواهرها، تريد أن تشحذ نفسها بكل القوى التي تعرفها، تكحلت وتعطرت بأنفس العطور، وفي يدها أمسكت زجاجة من النبيذ الأحمر المفضل لأهل الأندلس، والذي يهادي به الناس بعضهم بعضًا في المناسبات العظيمة.

فتحت لها قمر الباب بنفسها عندما علمت بقدومها، أقبلت عليها لتضمها فبادلتها اعتماد الضمة بأحرَّ منها. تنظر اعتماد إلى قمر في بيت أبي بكر باستغراب. إنها لا تبدو كجارية، ولا عشيقة، تبدو كملكة البيت. ثوبها المنزلي الثمين والعباءة الشفافة وشعرها الذي تركته كالشلال على ظهرها، وفي قدميها مركوب خفيف من الحرير والفراء، إنها تبدو كالعروس. جلستا في الجناح نفسه، الذي جلست فيه مع أبي بكر من قبل، لكن هذه المرة لم تتجاورا، جلستا قبالة بعضهما، وضعت اعتماد زجاجة الشراب على المائدة التي توسطت المكان. همست قمر:

- أتعبتِ نفسك.

فردت اعتماد:

- تعبك راحة. إنه نبيذ معتق من العنب الأحمر الأندلسي قبل عشر سنوات، لن تذوقي مثله.

ردت قمر:

- هناك في مصر كان النبيذ ألذ، حتى وهو مغشوش ومخلوط، طعمه أفضل من مائة نبيذ معتق في هذه البلاد.

قالت اعتماد كأنها تذكرت:

- ألم تفكري في العودة إلى مصر قَطُّ؟

ردت قمر متهكمة:

- لم أفكر ولن أفكر، هل تظنينني حرة مثلك؟ لكن والله حتى لو حرة، أعود إلى من؟

- ربما إلى النبيذ الأفضل.

- كما أنتِ، تسخرين حتى في أعتم الأوقات.

شعرت اعتماد بأن ما في روحها له صدى في روح قمر، قالت:

- تعالي نتحدث بصراحة، للمرة الأخيرة.

تساءلت قمر:

- المرة الأخيرة؟!

ردت اعتماد:

- نعم، لا أخطط لزيارتك مستقبلًا، وأظن أنك لن تفعلي.

- فلنتحدث بصراحة يا اعتماد، لماذا أتيتِ؟

- توحشت فيكِ صاحبتي القديمة.

- ولماذا توحشتِني؟

- صبرًا، إنه دوري في السؤال. لماذا رافقتِ أبا بكر بعد أن حكيتُ لكِ عنه؟

أجابت قمر تحت إلحاح جلسة الصراحة ورغبتها في طرح الأسئلة أيضًا:

- كنت أعرفه قبل أن تحكي لي عنه، أحببته وأحبني منذ سنوات، لا يستطيع أحدنا العيش من دون الآخر.

دهشت اعتماد، وحاولت في ثوانٍ قليلة تخيُّل الوضع. سألت:

- إذن لماذا أتيت إلى قصر المعتمد؟ لماذا لم تذهبي إلى أبي بكر من البداية؟

- وهل بيدي أن أختار؟ لقد أهداني سيدي إلى المعتمد.

- لكنني كنت جارية وأعرف أنه ليس هكذا تسير الأمور، عندما يحب شخص ذو منصب جارية من السهل عليه أن يأخذها لنفسه من صاحبها، بالشراء أو الاتفاق.

- سأجيبك على الرغم من أنه دوري في السؤال. لأننا افترقنا قبل أن آتي إلى القصر بعدة أشهر. أحد افتراقاتنا الكثيرة، نغيب ونعود بحب أكبر.

صمتت اعتماد تحاول ترتيب الكلام والأحداث، بينما ألقت قمر سؤالها:

- هل ما زلتِ تحبين أبا بكر؟ أعرف ما كان بينكما مما لم ترويه لي.

امتلأ عقل اعتماد بالمسبات، «القبيح، الملعون، الغادر، الناكث...». ردت بعد تفكير قصير فهي لا تستطيع أن تنكر لأنها لا تعرف مدى المعلومات التي عند قمر، ولا تستطيع أن توافقها لأنه سيكون اعترافًا، ردت بصدق حتى تصدقها:

- أنا لم أعرف الحب إلا مع محمد.

نظرت إليها قمر بعدم اقتناع، ثم عادت لتسألها:

- ألم يكن زواجك بأمر منه؟ لم تكن بينكما قصة حب.

- زواجي كان برغبتي وحبي أيضًا.

- توقفي عن اللؤم يا اعتماد، هذا ما تمارسينه معي منذ أن كنتِ صغيرة، توقفي عن لعب دور البنت التي لا تخطئ ولا تنمُّ ولا تغتاب ولا تتشيطن، أنتِ أيضًا شيطانة، وتزوجتِ رجلًا لا يخالف لكِ طلبًا، يغرقك بالمجوهرات وكل ما هو ثمين، ولا تحملين معه همًّا للحياة، ثم تحاولين الآن أن تقنعي صديقتك الفقيرة الجارية أنك تحبين؟ أن الحب هو سبب هنائك؟

- هل تشعرين بأنني سعيدة؟

ضحكت قمر ثم قالت:

- هذا هو تمام قصدي، أنتِ الفتاة البريئة الحزينة المغلوبة على أمرها، حتى وهي ملكة وفي حوزتها الملك الوسيم والمال والخدم والحرية.

سألت اعتماد وقد اكتسى وجهها بالبرود:

- ألهذا حاولتِ إغواءه والفوز به؟

- أما عن الإغواء فرجلك تغويه أي أنثى بسهولة، وأما عن الفوز به فإذا كنت أريده لحصلت عليه ببساطة.

- لماذا اقتربتِ من الرجل الذي هو كل حياتي يا قمر؟

- توقفي عن الأسئلة، إنه دوري في السؤال في لعبتك البغيضة هذه، لماذا لم تحرريني يا اعتماد؟ كنتِ تملكين الحق في ذلك، ولك دلال على زوجك ولا يرفض لك طلبًا، فلماذا لم تفعلي مع صديقة طفولتك وابنة بلدتك والوحيدة التي انتظرت منك أن تريها بعين الحق، لا أقول هنا بعين الصداقة والحب، لكن بعين الحق في حرية امرأة تعرفين جيدًا أنها مثلك، حرة أتت إلى بلد غريب فأصبحت جارية تُباع وتُشترى. لماذا لم أكن ضمن أفعال الخير والأمور الطيبة التي تدَّعينها وتمارسينها ليل نهار.

ردت اعتماد مدافعة عن نفسها:

- أنتِ لا تعرفين شيئًا. ليس من حقي، الحريم والجواري أمور تخص الملك وحده، أمور اتفقنا من البداية ألا يكون لي رأي فيها حتى لا تنشأ بيننا العداوة، أمور قبلتها وأنا مكرهة مثل زواجه ومثل الولادات المتلاحقة، ومثل أنني لا أكاد أعرف شيئًا عن أبنائي لأنهم ذكور، ولأنني مجبولة على ألا أكون مثل كل الأمهات، عشوائية، غير مرتبة ولا منظمة، متعبة ومشغولة، يجب أن أكون دائمًا جميلة وبصحة جيدة، حتى أنجب مرة بعد مرة، وحتى أكون مثالًا للنساء كما يريدهم الرجال في الأندلس.

أصرت قمر قائلة:

- هناك دائمًا استثناءات، كان يمكن أن تستثنيني.

- كعادتك يا قمر، لا يرضيكِ إلا أن أعترف بخطأ لم أرتكبه وأعتذر عنه.

- كعادتك يا اعتماد، لا تسمحين لي بالشكوى لأن لديك دائمًا الردود التي تجعلك أولى بها مني.

صمتت المرأتان لدقائق، وانسابت دموع اعتماد أولًا، تلتها دموع قمر. نظرتا إلى بعضهما نظرة تستحضر طفولتهما كلها، ضياعهما وغربتهما، نظرة تقول: «وأنا أيضًا». نهضت اعتماد فوقفت قمر، في داخل كلٍّ منهما عناق لكن أيًّا منهما لم تبادر. في زمن آخر كانت اعتماد تبادر دائمًا، لكنها اليوم لم تعد هي. قالت وهي تهم بالرحيل:

- سؤال أخير، لماذا لم تبقي مع المعتمد؟

أرادت اعتماد وانتظرت أن تسمع الإجابة التي كانت ستشفي بعض جراحها: «لأن المعتمد يحبك أنتِ يا اعتماد». لكن قمر نطقت بإجابة ستظل تربك اعتماد فترة طويلة، قالت:

- لأنني فضلت عليه ثعلب الصحراء، أبا بكر.

تحركت اعتماد خطوات تجاه الباب، لكنها عادت وأخذت زجاجة النبيذ، قالت قمر من مكانها:

- حتى الهدية تستكثرينها عليَّ؟

تمتمت اعتماد وهي تغادر:

- ليست هدية يا قمر، ليست هدية.

٣٩

هناك أشياء أشد قتلًا من السُّم، الوحدة والغربة وعدم اليقين وعدم الأمان، هذا ما تعانيه قمر واعتماد معًا، لكن بدرجات مختلفة وبتناول متباين وتفاعل متفاوت. استطاعت اعتماد مرارًا أن تصل إلى بعض اليقين والأمان في حياتها مع المعتمد، على الرغم من اختلاف طبقتيهما. لكن شعورها بأنه انتشلها من وحل الفقر والعبودية يجعلها تشك في إن كانت حقًّا تحبه من أجله هو أم من أجل ما يقدمه لها. زيجاته والجواري يجعلْنها تشعر بأن قلبها يتفتت خلف جدار من اللامبالاة، وضعها بوصفها أمًّا بالاسم فقط يجعلها تشعر بأن كيانها ناقص، فلا الحب ولا الندوات ولا الخروج ولا الكتابة تعوض هذا الشعور الغريزي بأنها تريد أن تتعب وتنشغل بأبنائها. ظهور ابن عمَّار وعلاقته الشائكة مع زوجها ومحاولاته في التقرب إليها وتشكيكه في نزاهة الرجل الذي تحبه، أفقدها ذلك اتزانها. وقمر المرأة التي تخشاها والتي قرَّبها منه المعتمد قصدًا وهو يعرف مخاوفها. أما ما قصم ظهرها فهو ما فعله ليحول بينها وبين أهلها، لقد شارك بقوة في القضاء على كل ما بناه فيها من أمان ويقين في السنوات السابقة.

دخلت اعتماد جناح عزلتها، ووضعت النبيذ المسمم على المائدة الصغيرة في غرفتها، خلعت ثيابها وألقتها على الأرض، ثم اندست في فراشها جائعة للنوم الذي جافاها أيامًا. لقد أنقذت حياة قمر مما كانت تخططه لها، لكنها تشعر بأنها أنقذت شيئًا فيها كذلك. استسلمت لراحة العودة عن قرار يقسمها، ملأت عينيها بالنوم، رأت في منامها أنها تركض ببطء شديد تركض، كأن الزمن كسول لا يريد لهذا المشهد أن ينتهي.

رأت في الحلم رجلًا طاعنًا في السن، تعرف في قرارة نفسها أنه ابن الحسن لكنه بدا بهيئة مختلفة، تشبه شيخًا جارًا لبيتها في مصر. الرجل استوقفها وبدأ يحفر حفرة، يزعم أن هذه الحفرة ستنقذهما، لكنها لا تصدقه وتتمنى أن تستمر في الركض لولا أن قدميها ما عادتا تحملانها. تراقبه وهو يحفر بإصرار على الرغم من ضعف قوته. لا تشاركه الحفر، عقلها مشوش وغير مقتنع بجدواه. يداهمهما آخران ملثمان، يلقيان الشيخ في الحفرة، ويضربانها هي، يركلانها في بطنها فتتأوه وتصرخ صراخًا بلا صوت، الركل الآن بين ساقيها وهي تريد أن تنادي أباها، لكن حنجرتها متحجرة ولا صوت يخرج منها. الركل في فرجها يجعلها تشعر بأنها تبتلع الطفل في بطنها، إنه يخرج الآن من فمها.

صرخت أخيرًا بـ«آهٍ» عالية، فوجدت نفسها في الفراش نائمة في عرقها، والمعتمد جالسًا إلى جوارها يضع يده على شعرها المبلل، يُسمِّي الله ويرقيها وهو يربت على كتفها وذراعها، ثم يهمس:

- أنتِ تحلمين، هذا كابوس.

لكن الألم أسفل بطنها لم يكن كابوسًا، كان حقيقيًّا ومؤلمًا، أعطاها المعتمد كأس ماء شربت منها وهو يسندها، ثم أخرج من جيبه قطعة ملبن من الفراولة وماء الورد ووضعها في فمها. مضغتها على مهل محاولة أن تفيق من كابوسها وألمها بمذاق شيء تحبه، لكن الركلات داهمتها ثانية، همت بالحديث فوجدت نفسها تتأوه، نهض المعتمد وذهب إلى المائدة وأمسك زجاجة النبيذ.

ترى المشهد الآن ببطء، تمامًا مثل كابوسها، لكن أسوأ لأن هذه المرة كل الأشياء أمامها تبدو حقيقية، حتى صوته وهو يقول:

- منذ متى وأنتِ تشربين؟

التعبير على وجهه غريب كأنه يقاوم القلق ويغطيه بطبقة من الجدية، لم ينتظر إجابتها، فتح الزجاجة وصب بعضًا منها في كأس، أمسكها بيده ورفعها وهو ينظر إليها باستحسان ويتمتم:

- يبدو أنه نوع جيد.

صرخت اعتماد لكن هذه المرة لم تتأوه، صرخت:

- اتركه، اتركه.

أنزل يده بالكأس قليلًا ثم قال:

- لماذا أتركه يا اعتماد؟ أتؤثرينه لنفسك؟

قالت:

- إنه ليس بخمر، إنه دواء وضعه الطبيب في زجاجة خمر.

رفع كأسه وهو ينظر إلى محتواها ويتفرس فيها، قال متعجبًا:

- يا للأطباء! لقد وضع لكِ الدواء في خمر يا اعتماد، ربما ليطغى على طعمه بمرارة أشد.

أنزل كأسه واتجه إليها وهو يقول:

- إذا كان هذا هو الدواء فقد أتى في وقته، يجب أن تشربيه الآن.

جلس إلى جوارها وفي يده الكأس، قال:

- هيَّا اشربي يا صغيرتي.

بعدته بيدها وهي ما زالت تتألم وتتعرق، قالت:

- لا رغبة لي الآن، أرجوك، فقط دعه أرجوك.

حاول عدة مرات ورفضت والوجع يعتصرها، نظر إليها بحنان وعطف ثم رفع الكأس وشربها.

شهقت اعتماد وشعرت بروحها تغادرها، حتى إنها سمعته بصعوبة وهو يقول:

- إنه ألذ ما ذقته في حياتي، يكفي أنه دواء حبيبتي، سيشفيني من كل داء محتمل، ويطيب الجروح قبل أن تندمل، هأنذا شربته لأثبت لكِ أنه يناسب جسدك الرقيق وقلبك الرهيف وسيشفيك بقدرة من الله.

انهمرت الدموع على وجنتيها وهي تشعر بالنار تأكلها وبأنها مستسلمة لهذا الحريق الذي اندلع في روحها وتسلل إلى كل جزء فيها. حاولت أن تتحدث لكن الآهات كانت تتسابق على لسانها، قاومت كل كوابيسها الحقيقية، ونسيت كل شيء عن ماضيها وحياتها الراهنة، صرخت بعزم ما فيها:

- هاتِ الدواء يا محمد، اسقِني إياه، والله لا أطيب إلا به.

ابتسم المعتمد لأنه يحب أن يسمعها تناديه محمدًا، نهض بسرعة تجاه الزجاجة، نزع سدادتها الخشبية وملأ نصف الكأس الفارغة في يده، ذهب مسرعًا إلى اعتماد والفرحة لا تسعه لأن خطته في أن يجعلها تشرب الدواء نجحت. قرَّب من فمها الكأس وهو يتمتم:

- بسم الله الشافي المعافي.

شربت اعتماد رشفة بعد رشفة، حتى أصبحت الكأس فارغة. أسبلت عينيها وهمست إليه:

- أحبك يا محمد، سامحني.

نظرت في عينيه الرماديتين، وتمنت أن تُقبّله كآخر شيء تريده من الدنيا، ثم عادت الركلات في فرجها وجسدها، وعادت تصرخ حتى فقدت وعيها.

من بلنسية إلى إشبيلية

٤٧١ هجريًا

١

من قال إن الأحزان تذوب أمام البحر! إنها تتسع على سطحه مثل اتساع نور الشمس المنعكس عليه، تهيج حينًا مثل الموج وترتطم بصخور القلب، وتهدأ حينًا، تنسحب وتختفي، لتظن أنها غادرت إلى الأبد، لكنها تعود مرة بعد مرة. إنها تلتمس الفرصة لتعود، فالروح أمام البحر ضعيفة وعارية وقابلة للمس، ومن يستطيع مس الروح أفضل من الأحزان!

ها هي ذي اعتماد تقف أمام بحر بلنسية تستعيد هذه اللحظة يومًا بعد يوم، لحظة أن سمعت نحيب قلبها قبل أن تسمع نحيبًا بالقصر. كان الصوت يداهمها لعدة أيام قبل هذا اليوم، يقول لها:

- الظافر ابننا استودعيه الله.

وكانت تطرده وتقول لقد استودعته الله بالفعل حين رضخت لأمر المعتمد بضرورة سفره إلى قرطبة وتوليه حكمها، وهل يحكم قرطبة مدينة الدسائس والخيانات والشعب المَلول غير المبالي بالدماء، شاب في السادسة عشرة؟ هل يحكم قرطبة ولدها الرقيق الذي يشبه سحابة تسبح بين غيمات ثقال؟

يومها دخل عليها المعتمد، ولا تكاد تظهر ملامحه من كتمان الدموع، قال لها كلمات لا تذكرها عن الصبر والقوة والتسليم، لم تكن بحاجة إلى كلماته فقد حدست الخبر قبل أيام وأكده لها وجهه. سقطت باكية على الأرض، وانفجر هو إلى جوارها، تقول لها قرة العين إنها بقيت على الأرض أيامًا، تنام وتبكي عليه وتجافي الطعام. لم يخرجها من هذه الحالة إلا زيارة ابن الحسن لها، لم تكن قد رأته منذ اثني عشر عامًا، من عمر الرشيد، لكنها تعرفت فورًا على الشيخ الذي بث فيها أملًا جديدًا للحياة.

عادت تدريجيًّا إلى حياة تشبه الحياة، لكنها لم تسامح المعتمد الذي أصبح نسخة مرهفة من أبيه، لقد رمى ولده في النار فقُتِل غدرًا وهو بثياب النوم وحده في القصر، قُتِل وهو ممسك سيفه يحاول أن يحمي نفسه ومملكته حتى يفتخر به أبوه! ولم يكتفِ قاتله بذلك بل رمى جثته في العراء ووجدوه مغطى بثوب رجل غريب. هل هذه هي نهاية شاب لم يتخلص من حبوب الصبا في وجهه بعدُ، شاب مثل ورقة خضراء انبسطت توًّا للشمس لتنال الحياة؟

كنت أصنع قصرًا من الرمال على الشاطئ وأنا أراقب دموعها التي تملأ قلبي بالحزن، وُلدت في هذه الليلة التي ظنت فيها اعتماد أنها تجرعت السُّم لتموت مع حبيبها. لم تكن تعلم أن قرة العين بدَّلت قنينة السُّم بأخرى من شراب القراصيا المعتق الذي له نفس اللون، ولم تكن تعلم كذلك أن ألمها الشديد كان طلق ولادتي وبداية عهد البنات بعد خمسة من الأولاد، حدث ذلك قبل ست

سنوات من سفرها إلى بلنسية، هي وكل أبنائها: أربعة من الأولاد وبنتان.

لم يستطع المعتمد أن يرفض لها طلبًا بعد موت ابنهما، استأذن ملك بلنسية أبا بكر بن عبد العزيز أن تقيم عنده اعتماد وأبناؤها لمدة. سافر معهم وفوجئ بالقصر الضخم الذي أُعد لهم، لكن اعتماد رفضت واختارت أن تسكن في بيت خشبي بسيط يواجه البحر. إنها لهذا السبب اختارت بلنسية، لتستشفي بها، لأنها لطالما سمعت عن عذرية شواطئها وبهاء الطبيعة فيها، وعن بساطة أهلها ونزوحهم إلى الترويح عن النفس عوضًا عن الاهتمام بالمظاهر، وأيضًا لأنها بعيدة عن إشبيلية وقرطبة والحروب والدماء، واختارت أن يكون أبناؤها معها، لتتمكن من أن تمارس معهم أمومة حقيقية.

بعد أربعة أشهر في بلنسية، اكتشف المأمون حبه للصيد، واكتشف الراضي في نفسه ولعه بالشعر، والرشيد كان نجيبًا كثير التجوال والملاحظة، والمؤيد كان يعشق اللعب، وتعرَّف على العديد من الألعاب مثل الركل ولعب الكرة من أطفال بلنسية. أما البنتان فكانتا صغيرتين ملتصقتين بأمهما ترتشفان منها الحنان، وكان الجميع يقضي وقتًا جماعيًّا مع اعتماد ووقتًا فرديًّا معها، فأصبحت أحاديثهم وحكاياتهم هي محور حياتها وسبب بقائها وقدرتها على العطاء. كانت أربعة أشهر سعيدة للأم والأبناء، لولا لحظات التذكر التي تداهمها كل يوم وتخفيها بصعوبة عنهم، حتى لا يعودوا للحزن والحداد ثانية، تصبِّر نفسها بالنظر إليهم وهي تردد بداخلها: «البركة في الموجود».

عادت اعتماد في هذه الأيام للكتابة، لكنها لم تكتب الشعر فقط، كتبت أيضًا نصوصًا نثرية تشبه الخواطر اليومية، ولأول مرة لم تشارك كتابتها مع المعتمد واحتفظت بها لنفسها، كانت هذه السرية تجعل الكتابة أشهى وأصدق.

أخذتني أنا وأختي ثناء من البحر وعدنا إلى البيت، فالمعتمد سيصل اليوم إلى بلنسية في أول زيارة لنا منذ أربعة أشهر، حممتنا بيديها، وألبستنا فستانين صيفيين مبهجين، وصففت شعرينا بلطف وصبر، ثم ذهبت لتستعد لاستقبال زوجها، بلهفة وخوف. أما اللهفة فمن الوحشة، وأما الخوف فمن الزمن. كان قد سبقه لها في الأشهر الفائتة عدة أشعار، تعود إليها كل حين عندما تشتاق.

أنَا في عَذابٍ من فِراقِك سَكرانُ مِن خَمرِ اشتياقِكْ

صب الفُؤادِ إلى لِقا ئِك وارتِشافِك واعتِناقِكْ

لا تَحسَبي أنِّي سَلَو تُ لِما تَوالَى من فِراقِكْ

هَذي جُفوني أقسَمَت لا تَلتَقي ما لَم تُلاقِكْ

فَصِلي جَميلَ الظَّنّ بي وثِقي فقَلبي في وثاقِكْ

عندما التقته في البهو كان الأولاد يحيطونه، فيضم هذا ويقبل ذاك، وجدته أكثر وسامة مما مضى، وهو الذي يسعد قلبها برؤياه حتى في أوقات الحزن والغضب. لأول مرة تلاحظ شعره وذقنه اللذين غزاهما شيب لطيف فزاده وقارًا وجمالًا. الخطوط التي ظهرت على وجهه والسمرة التي لفحته جعلته أشبه بالصورة التي رسمتها اعتماد في ذهنها للرجل، الرجل الكادح الذي يعود إلى بيته الدافئ متعبًا بعد يوم طويل فيحتضن أبناءه وزوجه. إنها تعيش هذه اللحظة الآن، وتشكر الله في سرها أنها رأت هذه الصورة بعد كل هذا العمر.

مرت أيام من أطياف السعادة، لم ينغص فيها على اعتماد إلا أمران، لحظة الإدراك المتكررة لموت الظافر، وأن الأيام التي يقضيها معهم المعتمد تقل.

- ابقَ معنا.

أصبحت تقول معنا ونحن، أصبحت أمًّا لها عائلة لا تستطيع أن تذكر نفسها من دونهم. أحبت هذا الشعور مثلما تحب حلمك الجميل الذي تعرف جيدًا أنه سينتهي حتمًا، فقد تعلمت أن الحياة لا تستقر على أرض من فرح ولا حزن، هي دائمًا مركب يسْبح في كل وادٍ، وعليها أن تظل متشبثة به من أجل الأمل.

في ليلته الأخيرة في بلنسية وبين نوبات العشق المحموم الذي لم ينتهِ لأسابيع منذ وصوله، والذي كانا يقاومان به الحزن والقهر ولا يقطعانه إلا من أجل حب آخر تقسَّم على ستة أولاد، جلست هي والمعتمد في شرفة البيت التي تطل على بحر لا يظهر من سواده الآن إلا أضواء بعيدة للسفن وأضواء قريبة لأناس قرروا السهر أمام عتمته. قدمت له شراب الليمون بالقرنفل، فتناول قدحه وشكرها وهو ينظر أمامه، ثم قال:

- يحز في نفسي ألا تعودي معي.

ردت:

- وأنا يحز في نفسي أن تتركنا.

- هذا ليس وطننا يا اعتماد، وطننا هناك في إشبيلية.

- تقول هذا لامرأة كل ما حولها ليس وطنها.

- وطنك هو وطني وهو المكان الذي عشتِ فيه أكثر من وطنك الحقيقي.

- ويبقى وطني حتى وهو بعيد يا محمد، أما أنت فشيء آخر.

قال وقد اتسعت ابتسامته:

- يزيد هيام القلب في البعد، وقد اختبرت هذا بنفسي.

ثم قال بجدية وهو ينظر إليها:

- لقد اعتزلت نسائي منذ أن قُتل الظافر.

قالت بعد لحظات من الصمت:

- تظن أن هذا يسعدني؟

رد:

- أظن أن هذا يسعدني.

- لقد ظلمت النساء.

- أتعرفين هذا عني؟

صمتت بخجل وحيرة، فرد:

- لقد منحتهن حرية الاختيار في البقاء في القصر أو العودة إلى أهلهن، واخترن البقاء.

- لماذا فعلت هذا؟

- لأنني مشغول بالإعداد والتخطيط لحوز المدن التي ضعف حكامها وأشرفت على الانهيار، واستعادة قرطبة، ولأنني مكتفٍ بك.

أرادت أن تقول: «ولماذا لم تكتفِ بي منذ البداية؟»، لكنها شعرت بسخف السؤال أمام حزنها الأكبر في فقد ابنها الظافر، إنها غير عابئة بالنبش في أمر ينغص عليها محاولتها للاستشفاء، حتى إنها غير عابئة بكونه يعاشرهن أم لا. سألته:

- أما زلت تفكر في الحيازة والحروب والغدر؟

- غدر؟

- نعم، ألم يغدر جنودك ووزراؤك بعبد الملك بن جهور الذي استنجد بكم من ذي النون، فاستوليتم على قرطبة؟

كلاهما يعرف أنها تقصد أبا بكر، لكن لم ينطق أحدهما باسمه. قال:

- لأنه مسموح بالخدعة في الحرب، ومع ذلك فلن يتكرر هذا الأسلوب، في حروبنا الآتية أنا من سيخطط للأمر.

- لا أريدك نسخة من أبيك.

- أنتِ لم تعرفي أبي، لو عرفتِه لعلمتِ أنك شبهت ضوء السفن البعيدة الذي يؤنس السماء بنور المشاعل القريب الذي يؤلم من يتطلع إليه ولو بالنظر. أردت أن آخذ الممالك التي ضعفت وأضمها إلى مملكتي قبل أن تقع في أيدي الإسبان ويستقووا على مسلمي الأندلس. هل يجب أن أخبرك بهذا يا اعتماد؟ إن من يفعل لا يقول، وأنا لا أخبر عما أخطط له، لكنك اتهمتِني بأنني مثل أبي، وأنا مثل هذا الضوء البعيد ولا أريد إلا أن أبقى كذلك.

- وهل أحببتك إلا لأني رأيت هذا الضوء؟ لكن دعني أفصح لك عن مخاوفي، بطانتك التي تثق بها والأموال التي تغدقها بغير حساب.

- بطانتي هم أصدقائي، وأغلبهم من أبناء الأخيار في إشبيلية، اخترتهم لأنهم يحبونني يا اعتماد، ومن يحب امرأً لا يؤذيه. وأما عن الأموال فهي موجودة وليست في أهمية المحبة، ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تهادوا تحابوا»؟

- لكن حتى الحب فيه قولان يا أبا القاسم.

- ربما حب المرأة والرجل، لكن محبة الرجال واضحة. ثم إن الله خلقنا مختلفين يكمل كلٌّ منا الآخر، هذا أشجع، وهذا أذكى، وهذا لديه دهاء، وهذا يمتاز بحسن الطالع، كل من وزرائي يكمل ما ينقص في الآخرين.

- لكن الخسة لا يعادلها شيء.

يعرف كلاهما من تقصد، لكن مرة أخرى، أيٌّ منهما لم يتطرق إلى اسم أبي بكر. أكملت:

- الخسة التي أدت إلى مقتل أعز ما لدينا. الخسة التي في الناس أبعدهم وأدناهم، ألا تريد أن تعترف بهذا بعد؟

قال:

- بلى، ولكن من قال إنني نسيت يا أم الربيع؟! إن خسة وغدر البعض لا يعنيان أن كل الناس كذلك، أنا أومن بالصداقة والمحبة على الرغم من كل شيء.

قالت وقد اغرورقت عيناها بالدموع:

- لم يمهلوه حتى يمرح مع أصدقاء أو يقع في الحب، لقد قطفوه قبل أوانه.

قال:

- لقد مات مناضلًا مدافعًا عن وطنه مثل كل الملوك.

أشارت اعتماد بيدها كأن ما يقوله مجرد كلام فارغ.

غيَّر المعتمد الحديث وقال:

- أريدكِ معي. لكن إذا أردتِ أن تبقي ابقي.

- سأبقى حتى أستعيد نفسي.

- وماذا إذا لم يحدث مرادك؟

- سأعود حين أيأس.

- ستعودين حين تأتي البشارة.

- وما البشارة؟

- كل شيء في وقته يا اعتماد.

٢

زرقة السماء الصافية تبددت بالسحاب الذي ماثل شكل الزبد بين الموج. اعتماد تراقب الطبيعة وهي تجلس للكتابة أمام البحر كعادتها كل صباح، ثم تتمشَّى بعدها، ويصحبها أحيانًا من هو مستيقظ من أبنائها. تمارس شيئًا من التفكر والتأمل محاولة ألا تنزلق إلى الحزن، وقد وجدت نخلة في أيامها الأولى في بلنسية أعلى ربوة قريبة من الشاطئ، واتخذتها مكان شجرة البرتقال الأثيرة في إشبيلية. فراحت تجلس تحتها كل يوم، تغمض عينيها وتفرغ ذهنها وهي تتمتم بتهويدات متنوعة فيها مناجاة لله ولروحها. رأتها شيري في إحدى هذه الجلسات ودلتها على الطريق.

أما شيري فهي تسكن بالقرب من بيتها، وهي زوجة لأحد الصيادين، وكانت تراقب اعتماد بفضول منذ أن أصبحت جارتهم، ودفعها فضولها لتقاطع جلسة اعتماد تحت النخلة. لمحتها اعتماد

ففزعت لكن شيري عرَّفتها بنفسها. جلستا على العشب تحت النخلة وعرضت عليها شيري، التي تصغرها بعشرة أعوام، أن تتناولا التين الذي تحمله في سلة من الخوص وهي عائدة من السوق، فبدأت صداقتهما القصيرة.

أما الطريق، فهو عيسى الذي يدير حمَّامًا كبيرًا في بلنسية للعلاج والاستشفاء، وأسماه «بساطة الحياة». قالت شيري بمرح، وهما في طريقهما إلى السوق في اليوم التالي للقاء النخلة:

- إنه حمَّام بعيد لكن لو استأجرنا عربة يمكن الوصول إليه في مسيرة نصف ساعة، وعيسى على الرغم من أنه ابن خالي، لكنني لا أروج له لأنني لا أهتم بالاستشفاء وهذه الأمور. حياتي مزدحمة ولي ابنٌ عقله معطوب ويحتاج إلى رعايتي، لكن ما أعرفه عن المكان أن الناس يأتون إليه من كل حدب وصوب، وأنه مزدحم طوال العام، وعندما رأيتك هائمة في ملكوتك فكرت في أنه قد يناسبك.

اصطبغ السوق بألوان الخريف، فكان البرتقال والتين واليقطين والجزر، بدرجاتها البرتقالية والبنية، ملء النظر، وكانت أوراق الشجر الجافة المجعدة التي تتكسر تحت أقدام الناس تمنح هذا الشعور براحة ما بعد الصيف. اشترت اعتماد فاكهتها وخضرها مع زوجة الصياد وهي تشعر بأنها أخيرًا وجدت روحها، وأن حمَّام «بساطة الحياة» الذي عزمت على زيارته في اليوم التالي سيكون حتمًا بابًا جديدًا للحياة التي تريدها.

لقد رأت اعتماد طبيعة جميلة في كل بقعة رأتها من الأندلس وعلى مدى حياتها، لكنها لم ترَ في مثل رحابة وبهاء حدائق هذا الحمَّام الذي يقع بين تلال خضراء وغابات متشابكة، وبه العديد من الينابيع والأحواض المتدفقة. أجمل ما في طبيعته أنها غير مصنوعة، طبيعة برية خالصة، الاهتمام بها لا يكاد يظهر من فرط ما تركت على خلقها.

استقبلها عيسى بلطف وعرَّفها بالأقسام التي يمكن أن تلتحق بها، فهناك الكثير من أجنحة التعبد، وهناك البستنة، وهناك أحواض للمياه الحارة، وأجنحة للندوات، الأخيرة استبعدتها اعتماد نهائيًّا. قالت له:

- لقد أتيت من أجل نسيان كربي.

رد عليها:

- الصمت الروحي يساعدك لتتجاوزي صدمات الحياة، ولتتأملي في حكمة الخلق والخالق.

- حتى الحكمة لا أقوى على البحث عنها، أريد أن تسكت أفكاري وتهدأ روحي.

- الاستحمام في الينابيع المتدفقة والأحواض الحارة يخفف الألم ويداوي الجروح.

وكان شابًّا يبدو على محياه النبوغ والذكاء والخبث غير المضر، فلم تصدقه اعتماد تمامًا لكنها أحبت التجربة.

اختارت أن تلتحق بالرقص، بالإضافة إلى حمَّامات المياه الحارة، اصطحبتني أنا وثناء معها في المرات التالية. كنا نلعب في الحدائق ونشارك في الغناء، وكانت تتعلم الرقص لأول مرة في حياتها. لم يكن رقصًا كرقص الجواري، لكنه كان أشبه بطرد الأرواح، وكنا نشاهدها من بعيد

وهي تتعثر ونضحك، وتضحك عندما تلتقي أعيننا. عاشت هناك أيامًا من السعادة المخبأة التي تظهر لك عندما لا تتوقعها، وهناك أيضًا قابلت ماري.

٣

امرأة في السادسة والثلاثين تتعلم الرقص بعد أن فقدت ابنها منذ أقل من عام. لا بد أن الناس ينعتونني بأسوأ الصفات، أو يظنون أنني مجذوبة فقدت عقلها بعد أن ذهب أغلى ما في حياتها. لكنني لا أبالي بما يظنون ويقولون، هناك شيء واحد مهم هو ما يجب أن أمنحه كل وقتي وانشغالي؛ أبنائي. وحتى أكون أمًّا جيدة يجب أن أكون أمًّا سعيدة، ماذا منحتهم بتعاستي في السنوات الماضية؟ نقلت إليهم التعاسة ودفعتهم للبعد، ومنحت الرجل الذي أُحب عدم اليقين، فبات يشتري سعادتي بالمبالغة في الهدايا. لم يفهم قَطُّ أن الحياة البسيطة هي جل ما تمنيته، لكن هل سعيت إليه فقط من أجل الحياة البسيطة؟

لا يا اعتماد أنتِ تكذبين، ومن شروط الشفاء من الحزن ألا أكذب، لقد سعيتِ إلى المعتمد حتى تنقذي نفسك وتجدي من يساعدك على البحث عن أهلك، أردتِ حريتكِ وأردت المال والقوة والنفوذ حتى يتيسر لكِ أن تختاري أي حياة تريدينها بعد ذلك، كان من الممكن أن تذهبي مع أي شخص يعرض عليك الأمور نفسها، وكان ممكنًا أن يكون أبًا ويتبناكِ أو صديقًا ويساندك، أو حتى عشيقًا ويرافقك، والمعتمد قدم عرضًا أفضل من كل عروضك الخيالية، فهل أحببتِه؟

سؤال غبي آخر من الأسئلة التي نطرحها على أنفسنا في الخلوة، أو إنه سؤال صريح وقاسٍ، فالأشياء البديهية تنهار بالشك، والسؤال أبو الشك. أذكر المرة الوحيدة التي فتح لي المعتمد مجلس محاسبة، وجلس أمامي يحاسبني على مقدار عطائي وحبي، ويسألني الأسئلة المؤلمة التي يسألها المتزوجون عن ماذا قدمت، وكيف أثبت حبي. يومها صُدمت لأنني ظننته غير كل الأزواج. إنه ملك وعظيم وكبير أكبر من كل هذا الهراء، إنه في خيالي أسطورة وليس مجرد ملك، فكيف يُنزل نفسه إلى مكانة الأزواج العاديين ويسأل هذه الأسئلة، وعلى الرغم من أنني تلعثمت وبكيت وانحشرت كل الإجابات في حلقي، فإنه فتح لي حضنه، فانفتحت مسرَّاتي ولم أُجب إلا بدمعتين فوق كتفه.

لا أريد أن أجيب عن هذا السؤال وأخشى طرحه، لأنه مثل أن يقال لك إن القرآن تحرف وله عدة نسخ، أو إن الأحاديث النبوية ليست صحيحة، أو إن هناك آباء يقتلون أبناءهم، لا أريد أن يهز شيء ثوابتي التي أعيش بها وحقائقي التي تجعلني أتنفس في هذه الدنيا. أريد أن يبقى كل شيء في

مكانه، وأن أظل أنا والمعتمد كما نحن من دون أسئلة. أريد لوجهي كذلك أن يبقى كما هو بلا أي تجاعيد، ولا أهتم بكلام الأغبياء عن كوني يجب أن أتقبل تقدمي في السن وتجاعيدي وبياض شعري. كل هذا هراء يضحك به الناس على أنفسهم ليغيروا الحقيقة، والحقيقة أن كلنا نريد أن نعيش الثبات، فلتتغير الأماكن والأزمان والأحوال، لكن الوجوه والقلوب لا نريدها أن تتغير، لا أريدها أن تتغير.

تسعدني رائحة شعري النظيف، فالصابون هنا في بلنسية له رائحة الشمس والبحر وليس العطور. تدخل عليَّ امرأة صهباء وأنا أكتب في محراب عزلتي ويدي تمسك خصلة من شعري وتضعها تحت أنفي، ألمحها وأتجاهلها، لكنها تلقي عليَّ تحية. سأتوقف هنا.

٤

اسمها ماري وتقصد الحمَّام قبل اعتماد بسنوات، سمعت عنها من عيسى وراقبتها لفترة. اعتماد كذلك كانت تلاحظها وتبادلها الابتسام أحيانًا، لكن في هذا اليوم قررت المرأة التعرف عليها من كثب. جلست قبالتها في غرفة صغيرة من غرف الحمَّام وبدأت حديثها بلطف قائلة:

- ومن أجمل من نساء إشبيلية؟

أومأت اعتماد شاكرة، فأكملت ماري:

- لقد سمعت عنك كثيرًا وها قد رأيتك، وأنتِ أجمل من الحكايات يا سيدتي الكبرى.

تعجبت اعتماد لأنه لم يتعرف عليها أحد في بلنسية كلها إلا الجيران القريبون. فكرت للحظة ثم همست:

- هذا من كرمك، لكن من أين سمعتِ عني؟ من عيسى؟

قالت السيدة المبتسمة:

- اسمي ماري وأنا من سكان بلنسية، لكنني أسافر كثيرًا لأنني أعمل في تجارة النحاس، وقد ورثتها عن زوجي وأديرها بنفسي...

سألت اعتماد مقاطعة:

- إذن أتيتِ إلى إشبيلية؟

ردت ماري:

- نعم، لكنني سمعت عنكِ من أبي بكر بن عمَّار.

اصفر لون اعتماد كأنها فقدت دماء وجهها كلها في لحظة. أكملت المرأة التي لم تندهش من ردة

فعل اعتماد:

- الشاعر العظيم، لقد حكى لي عنكِ وعن ذكائك ولطفك وحسنك.

قالت اعتماد بهدوء:

- إنه وزير زوجي وصديقه.

- أعرف، أعرف.

«ماذا تعرف هذه الحمقاء؟»، تردَّد السؤال في نفس اعتماد. سادت برهة من الصمت قطعتها ماري قائلة:

- أمَا وقد جئت إليكِ لأتعرف عليكِ ولأحذركِ من شخص هنا له وقائع تشيب منها الشعور، إنه عيسى، رأيته يتقرب إليك فاعذريني لأنني خفت أن يفعل معك كما فعل مع العديد من النساء في هذا الحمَّام. تلك الغرفة التي نجلس فيها والغرف الأخرى، استباح فيها العديد من النساء من دون رغبتهن، وأحيانًا يغويهن ليصبح الأمر بإرادتهن، إنه رجل فاسد ويفسد كل من يقترب منه. ربما تسألين نفسك لماذا أنا هنا، لأنني أستطيع حماية نفسي منه، فهو لا يقوى على الاقتراب مني، كما أنني أستفيد من هذا المكان الجميل ومن الآخرين الذين يعملون فيه. تستطيعين أن تقولي إنني أنتهز المكان من دون صاحبه.

رتبت اعتماد الحديث في عقلها جيدًا قبل أن ترد:

- إنما أردت أن أسألك لماذا اخترتِني أنا لتحذريني؟ أما عما قلتِه فلا يدهشني، لأنه بين الأشياء الطيبة هناك دائمًا شيء عفن.

- اخترتكِ لأنني عرفتك، فأردت أن أتعرف عليك أيضًا، ألم أخبرك بأنني انتهازية؟

تعرف اعتماد أن من يقول شيئًا مازحًا هو في الواقع يريد أن يخبر شيئًا حقيقيًّا عن نفسه، لذلك ضحكت وقالت:

- هذا يسعدني.

قالت ماري بحماس:

- هل تقبلين صداقتي؟

لم تتردد اعتماد:

- طبعًا.

قالت ماري بحماس أكبر:

- حسنًا سأقول لك الحقيقة.

انتظرت اعتماد أن تقول ماري إن عيسى بريء، وإنها اختلقت القصة لأنها تحبه أو حتى تتعرف عليها، لكنها قالت ما توقعته اعتماد وطردته من خيالها:

- أنا وأبو بكر عاشقان.

أسبلت ماري عينيها، بينما أخفت اعتماد ضحكة ساخرة بصعوبة، أكملت:

- ثعلب الصحراء الذي يحكي الناس عنه الحكايات هو حبيبي وأنا حبيبته.

تنهدت بينما تحولت ضحكة اعتماد إلى ابتسامة صفراء. أكملت ماري:

- هل سمعتِ عن حكايته عندما قتل أربعين رجلًا في حربه على غرناطة؟

ردت اعتماد:

- الحرب التي هُزِم فيها؟

- الجيش هُزِم لأنه كان قليل العتاد وضعيفًا، لكن ابن عمَّار لم يُهزم، كلهم هربوا وحارب هو حتى النهاية. ألم تسمعي عن دهائه مع ملوك الإسبان؟ لقد استطاع أن ينال إعجاب وصداقة ألفونسو ملك ليون، الذي يُسمّيه العرب الأذفونش.

بدأت معدة اعتماد تتقلص وتؤلمها من حديث ماري، فقاطعتها:

- ألم يكن ألفونسو هذا عدونا؟ ألم يحارب الممالك مرارًا؟ وقد عرفت أنه طُرِد من بعد حربه مع إخوته، ويختبئ عند ذي النون.

قالت ماري متهللة:

- هذه أنباء قديمة، فقد قُتل أخوه في قشتالة قبل أشهر، وتولى هو الآن مُلك ليون وقشتالة. وصداقته بابن عمَّار هي ما تمنعه الآن من محاربة الممالك.

كاد رأس اعتماد يشتعل من غباء ما تسمعه، أو ربما لأنها لا تريد أن تسمعه، فقد أتت إلى هنا هربًا من أنباء الحروب والموت ومن ابن عمَّار، لكن يبدو أن له في كل مدينة عشيقة، ولكل عشيقة يتحدث عنها ويأتي باسمها كقصة لا يمل من تكرارها. ألا يكفيه أنها اعتزلت الندوات والسهرات لسنوات حتى لا ترى وجهه! ابتسمت بزاوية شفتيها وهي سارحة في أفكارها، ثم أفاقت على صوت ماري:

- أحب هنا أن كلنا في المستوى نفسه.

- ماذا تقصدين؟

- أقصد أن كلنا من الصفوة، فنستطيع أن نصاحب بعضنا ونتفاهم مع بعضنا.

- هل محرم على ميسوري الحال دخول هذا المكان؟

- طبعًا! وهل يستطيعون أن يدفعوا كل هذه الدنانير؟!

- وهل اللوذ بحمَّام للعلاج شيء يلزم الأغنياء فقط؟

- أكيد، إنها رفاهية. ولو كنتِ من الفقراء لكنت تعملين الآن، أو كنت تنظفين البيت وتُعِدين الطعام للرجل الذي يعمل ليُؤويك.

تذكرت اعتماد أنها دائمًا تعود لتجد كل شيء جاهزًا، وهو أمر اعتادته لسنوات طويلة فلا تحمل همًّا لجهد أو مال. شعرت بغصة في حلقها وبمرارة في معدتها ثم شرعت في المغادرة، قالت لها ماري وهما تقفان:

- ما رأيك في أن نتمشَّى أو...

- أعتذر إليك، فلديَّ طعام أُعده وبيت أنظفه.

ارتبكت ماري، ثم عادت تقول بسرعة قبل أن تغادر اعتماد:

- هل أصبحنا صديقتين؟

قالت اعتماد بابتسامة متسعة:

- بالتأكيد.

في طريقها للخروج وقبل أن تصطحب طفلتيها مرت على مكتب عيسى الذي رحب بها بأدب جم ودعاها للجلوس، لكنها كانت على عجلة فقالت له وهي على الباب:

- سوف آمُر بمنحك منحة مالية كبيرة تزيد كل عام، لكن لديَّ شرطًا.

- أمرك.

- أن يصبح ثمن ارتياد الحمَّام في متناول الغني والفقير.

- كنت أفكر في ذلك لكن لم يكن لي أن أساوي التكلفة، أشكركِ على سعة قلبك سيدتي.

- أمر آخر. هذه المرأة ماري.

اربدَّ وجه عيسى وهو يستمع، أكملت اعتماد:

- لا أريد أن أراها هنا ثانية.

لم تفكر اعتماد في طريق عودتها لماذا كرهت هذه المرأة ولا لماذا لم تصدقها في مزاعمها بخصوص عيسى، ربما لأنها من جوقة أبي بكر النسائية، وربما لأنها لا تصدق كل من يثق بأبي بكر، وتستثني من ذلك المعتمد.

٥

صحت اعتماد من نومها على هذا الصوت المتواصل، كانوا قد ناموا جميعًا مبكرًا، بسبب برودة الجو وصوت العواصف الشديد الذي يحرض على الهروب منه بالنوم. شربوا حساء العدس الذي صنعته لهم، وتبادلوا أحاديث ومناقشات واحتدامات خفيفة، ثم ذهبوا الواحد تلو الواحد للنوم. أشعلت المصباح بجوارها، وخرجت في خوف تتفقد الصوت الغريب الذي داهم نومها، ولولا أنها تعرف أن الطيور تختفي في هذا الجو لظنت أن الصوت لطيور.

فتحت النافذة ثم شهقت مما رأت وعادت قليلًا إلى الوراء، رأت كرات رقيقة هشة من الثلج تتساقط من السماء، تبدو كأنها فراشات بيض تسقط على مهل، والريح تقذف بها فتتطاير وهي تسقط بكل هذه الانسيابية. صوت سقوطها على الثلج الذي تراكم الآن بدا كأن حبات من الكرز تقع على لفافات من القطن، صوت رقيق ومنظم، لا يشبه المرة الوحيدة التي رأت فيها الثلج يتساقط على نافذة بيت الرميكي، وكان يبدو كقطع من الزجاج الشفاف الذي يتكسر عند سقوطه، هذه المرة كرات الثلج كانت كحلم تحقق، حلم لا يعرف الإنسان أنه موجود.

مدت اعتماد يديها، ولمست الثلج الذي أشعل فيها قشعريرة لذيذة. نظرت إلى السماء وهي تتأمل بديع المنظر، وتردد «سبحان الله»، ما زالت في الدنيا أشياء تسعدها رؤيتها. لم تذهب للنوم في هذه الليلة، بقيت صوب النافذة بعد أن أغلقتها اتقاءً للبرد، ولو كانت اعتماد العشرينية لأبقت النافذة

مفتوحة، ولو كانت الصبية لخرجت لتلعب في الثلج، لكن هذه النسخة من اعتماد اكتفت بالمشاهدة وبتخزين كل لحظة سعادة.

مرت الأيام في بلنسية ساحرة بشتائها الدافئ، وتواصل نزول الثلج وتواصل زيارات اعتماد إلى حمَّام «بساطة الحياة»، وبتفعيلها لعاطفة الأمومة لأقصى درجاتها. الآن مثلًا ترى أبناءها يتحدثون من دون انقطاع، على عكس وجودهم في قصر إشبيلية والصمت والعزلة اللذين يخيمان عليهم كلما بلغوا مرحلة الصبا. وفي هذه الأثناء حدث شيء أيضًا أسعد عيش اعتماد، سمعت من النساء في الحمَّام عن شيخ جليل حل على بلنسية ليلقي بعض المحاضرات، ولم تكن اعتماد لتهتم لولا أنها سمعت اسمه: «ابن الحسن».

على الفور أرسلت أحد حراسها إلى مزرعة الفاكهة حيث عرفت أن الشيخ نزل، وطلبت موعدًا لمقابلته. عندما رأته في هذه الليلة شعرت كأنها رأت أباها. لم تقاوم أن تقبِّل يده وقد أصبح طاعنًا في السن، إلى درجة أنها ترى عينيه في وجهه المجعد بصعوبة. عرَّفته على أبنائها وحكت لهم عنه القليل، مما لم يتسنَّ لها أن تحكيه عندما قابلته منذ ما يقرب من العام عند موت الظافر. طلبت منه أن تُكرر الزيارة، لكنه فاجأها أن قال:

- كرريها كما تشائين، لكن لي عندك رجاء.

- اطلب أي ما تشاء، كل طلباتك مجابة.

قال:

- إذن أطلب طلبين، أما عن الطلب الأول فهو أن تُسمِّي ابنك القادم «أبو هاشم»، فقد كان لي ابن اسمه «أبو هاشم» لكنه مات صبيًّا، أريد أن يظل اسمه موجودًا وأن يظل يذكره الناس.

كانت لا تنوي الإنجاب ثانية، لكن لم تستطع أن تكسر بخاطر شيخها، أومأت بـ: «نعم»، وقالتها مؤكدة:

- نعم.

- أما الطلب الثاني فهو أيضًا أمنية، أن تتعلمي القرآن.

همست:

- أنا!

وأشارت إلى نفسها باستنكار، ثم شعرت بشيء من الطمأنينة لطلبه، قالت:

- إذا كنت أنت من سيعلمني.

- لن أمكث هنا أكثر من شهر.

ثم استطرد:

- شهر يكفي لبداية الطريق.

٦

مر شهران انقضى فيهما الشتاء، سافر ابن الحسن ومات في سفره. أكملت اعتماد تعلم القرآن مع حفصة، تلميذة الشيخ في بلنسية. كانت تشعر بشكل غريب من أشكال التواصل مع نفسها، فهي تكتب وتتعلم الرقص وتحفظ القرآن، كأنها كوكب صغير تمر عليه كل الفصول في يوم واحد. في هذا التوقيت ومع بداية الربيع تحديدًا، وصلت إليها بشارة المعتمد، لقد انتقم للظافر. أغار بجيش كبير العدد على قرطبة واستعادها، وتقدم نحوه أهل قرطبة يهللون ويباركون وينشدون، لكنه تركهم وتعقب بنفسه حريز بن عكاشة قاتل الظافر الذي فر من جنوده، حتى وجده فقتله. يطلب منها الآن أن تعود إلى قرطبة لا إلى إشبيلية، ويمنحها مع خبره ما كتبه في رثاء الظافر بعد أن أخذ بثأره:

يَقُولونَ صَبرًا لا سَبيلَ إلى الصَّبرِ

سَأبكي وأبكِي ما تَطاوَل مِن عُمري

٧

لم يكرر المعتمد خطأه، لقد قرر البقاء مع عائلته في قرطبة إلى أن تستقر الأحوال ثم يترك عليها المأمون أميرًا. لم تملك اعتماد أن تعترض على هذا القرار، أولًا لأن هذه هي حياة الملوك التي رضخت لها منذ البداية، وتعرف أن المعتمد وإن كان لا يرفض لها طلبًا، لكن لملكه ودولته دائمًا الأولوية، فليس من الحكمة أن تحارب في معركة خاسرة. وثانيًا أن هذه هي رغبة المأمون، وقد لمست فيه الحكمة التي قد تمكِّنه من ذلك. وأخيرًا لأنها منذ أن فقدت الظافر لم تَعُد تخشى الفراق والحزن.

في قرطبة قضت أيامًا جميلة تتفقد المدينة بين ترحاب أهلها. زارت ولَّادة بنت المستكفي، ورأت جاذبية روحها الأخاذة، ووجهها الذي ترك به الجمال أثرًا أكبر من أثر العمر. تبادلتا أحاديث عن الأندلس وعن الشعر والحب، ولمست ثقافتها الواسعة، لكن لم تتطرق أيٌّ منهما إلى حكاية الحب الكبيرة الموثقة بالأشعار بين ابن زيدون وولَّادة. كانت ترتدي حجابًا واسعًا وتتحدث بخجل قليل الكلام، غير الصورة التي رسمتها عنها اعتماد كشاعرة جريئة حصيفة أريبة لها منتدى تُنازل فيه الشعراء وتتفوق عليهم. أدركت حينها أن أغلب ما سمعته عن قصص غرامها وعبثها وتهاونها مع الرجال كان قصصًا من نسج الخيال، وربما هذا ما يخبئه لها الزمن عندما يأفل قمرها، فالمرأة في الأندلس دائمًا هي سبب الفساد.

مضت عدة أشهر أخرى حتى عادت لتستقر في إشبيلية التي توحشتها كثيرًا، فمهما مرت ببلاد جميلة يبقى لإشبيلية سحر خاص في صخبها المستمر ومجالس الشعر والسمر والأحاديث المنعقدة في كل ركن فيها. وفي نهرها الهادئ الذي يستقبل كل هذا الضجيج بتدفق عذب كأنه يقول: كل شيء يمر.

اعتماد الحبلى الآن في شهرها الرابع شعرت بحركة غريبة تدب في القصر، لأول مرة تسمع صوت المعتمد عاليًا يكاد يهز الجدران من قوته، وحوله بعض وزرائه ومعاونيه، سمعته يقول من بين غضبه:

- كيف وافق ابن عمَّار؟

منذ أن عادت من بلنسية وهي تلاحظ أنه لم يعد يهلل لمرأى وسيرة صديقه ويوافقه ويدافع عنه. شيء بينهما تغير أو أن المعتمد نفسه تغير بعد موت الظافر مثلما تغيرت هي، لكن غضبه في هذا اليوم كان غريبًا، لأنه غير معتاد من شخصه الذي ينثر الأدب الجم أينما حل.

غادر القصر بعد زوبعة الغضب، وعادت هي إلى الأساليب القديمة، فنادت قرة العين لتحضر طاهرًا فتعرف منه ما حدث. سألها طاهر في مستهل الحديث:

- هل تريدين الحقيقة يا سيدتي أم تريدين أن تعرفي ما حدث؟

- وهل ما حدث غير الحقيقة؟

- ما حدث هو الظاهر، لكن الحقيقة هي ما بطن.

- أريد أن أعرف كل شيء.

- لقد عدتم بسلامة الله من قرطبة، لكن ابن عمَّار ذهب باتفاق مع الملك المعتمد إلى مدينة قورية حيث يعيش الأذفونش.

- وما الاتفاق؟

- الاتفاق هو أن يكون الأذفونش حليفًا للمعتمد ويمده بالجنود حتى يتمكن من الإغارة على ما بقي من مملكة ذي النون، وهذه المعاهدة تحتاج إلى ثمن، وهي زيادة الجزية التي ندفعها كل عام. أحد ممَّن حضر حديث المعتمد وابن عمَّار سمع الملك يقول: «فليغالِ الأذفونش ما يشاء في مقابل أن أحكم ممالك الأندلس كلها». وهو تمامًا ما حدث، فقد رفض الأذفونش في البداية هذه الصداقة، لأن ولاءه لعبد القادر بن المأمون الذي استأمنه عليه، لكن ابن عمَّار له من الدهاء والبراعة في المساومة والمماسكة ما جعله يقنع الأذفونش بتوقيع المعاهدة مع المعتمد بزيادة الجزية في مقابل المحالفة. يقال إنه ألقى شعرًا في زوجة الأذفونش، وألهب أفئدتهم بحلو لسانه وظرفه، حتى إن الأمر لم يتوقف عند المعاهدة فقط، لكنه اتفق معه على البدء فورًا في أخذ مرسية وبلنسية، وقد اشترط الأذفونش أن يتولى ابن عمَّار إمارة بلنسية.

قالت اعتماد بامتعاض:

- لم يشترط لأن هذا أمر لا يهمه، ابن عمَّار هو من اختار بلنسية.

أكمل طاهر:

- العجيب في الأمر هو ثورة سيدي المعتمد عندما علم بما حدث، يبدو أنه سُر من المعاهدة لكن أغضبه تضاعف الجزية، ربما لم يتصور أن يبالغ الأذفونش إلى هذا الحد.

قالت اعتماد:

- هذا ما حدث، فما الحقيقة؟

قال طاهر بعد لحظات من التردد:

- الحقيقة أن سيدي يضحي بالأندلس من أجل أن يزداد مُلكه، إنه بهذه المعاهدة يحالف الإسبان ضد أبناء وطنه ودينه، وهو بهذا يسلم الأذفونش مفاتيح ممالك الأندلس، ويعترف بقوته وسطوته علينا، إنه تحالف مشؤوم، وسيكون بداية لانهيار مملكتنا أولًا.

لم تبدِ له اعتماد أي رأي، لأن كل كلمة ستقولها ستحمل العديد من المعاني والتأويلات. شكرته وصرفته، لكنها عندما حل المساء، وحل معه الحب الذي لا ينقطع والهيام الذي لا يفنى من قلب المعتمد مهما كانت أحواله، انتهزت اعتماد الفرصة وسألته عن سبب ثورته في الصباح:

- ألم يسرك الاتفاق مع الأذفونش؟

قال وقد بدا الحزن على وجهه:

- لم يسرني، لكنني مرغم على ذلك.

- هل المشكلة في الجزية؟

قال باقتضاب:

- ليس تمامًا.

- في أنك ستسطو على ما ليس لك؟

نظر إليها بغضب ذاب في طلاوة نظرتها، قال:

- لقد شرحت لكِ عدة مرات أنني أنقذ هذه الممالك التي أصبحت ضعيفة من أن تقع في يد الأذفونش، الملوك لا يُغيِرون على ممالك أخرى بغير سبب. إن الله أمامي يا اعتماد في كل خطوة أخطوها في هذا المُلك، ولو كنت أخطو خطو أبي لامتلكت العديد من الممالك، ولفقدَت إشبيلية الكثير من الأرواح من جراء ذلك.

- إذن ما سبب غضبك يا ملكي النبيل الجميل الذي لا يشبهه أحد؟

- الاتفاق لم يكن فقط مضاعفة الجزية، ولا أن يحكم ابن عمَّار بلنسية.

صمتت اعتماد ترقبًا وخوفًا. أكمل المعتمد وقد اختنق صوته بدمع مكتوم:

- لقد اتفق ابن عمَّار مع الأذفونش على أن نكف أيدينا عن أخذه لطليطلة. طليطلة يا اعتماد!

٨

استطاعت أن تعرف بخبرتها في إنجاب سبعة أبناء حتى الآن بأنها تحمل في فتاة، فقد ازدادت نضارة وجهها، واحتفظت ملامحها بهيئتها من دون أن تتضخم وتبهت، وبطنها لم يستدِر إلا بقدر يسير. جلست قبالة نافذتها المحببة المؤطرة بالزهور الجورية البيضاء والوردية وهي تحيك ثوبًا من خيوط الصوف للطفلة التي ستحضر بعد أشهر قليلة. لمحت وهي ترمي بعينيها على أبواب القصر رجلًا غريبًا يتحدث مع الحراس، تذكرت أنها رأت هذا الرجل من قبل، لكن لم تسعفها ذاكرتها كثيرًا، فتركت ما في يديها ونزلت لتراه عن قرب.

الصوت أيضًا سمعته من قبل، المزيد من الاقتراب لم يجعلها تتعرف عليه لكنه عندما رآها

صرخ:

- أبو اليزيد، تاجر الحرير.

فتذكرت اعتماد كل شيء ودق قلبها بعنف. طلبت من الحراس أن يسمحوا له بالدخول، فاقترب منها مهللًا، وكاد يركع أمامها لولا أنها نهته عن ذلك، وأمرته بأن يشرع في الحديث على الفور ويشرح سبب مجيئه. قال بلهجة ساحلية:

- لقد وصل صباحًا إلى إشبيلية فوج من التجار المصريين، وقد رأيت بينهم الرجل الذي أتى قبل سنوات، الذي سألتِني عنه ذات يوم.

اتسعت عينا اعتماد وسألته:

- هل أنت أكيد مما تقول؟

قال:

- أكيد كما أراكِ الآن يا سيدتي.

سألته ثانية:

- وكيف تذكرته؟ وكيف تذكرتني؟

قال أبو اليزيد:

- وكيف أنساكِ يا سيدتي؟ وكيف أنسى ما يخصك؟ وهل ينسى تاجرٌ الملكة التي زارته في دكانه؟

سألته وقلبها يرجف:

- وأين هو الآن؟

- تركتهم يرتبون بضاعتهم في سوق الحرير وأتيت إليكِ مسرعًا.

- انتظرني هنا، سوف أذهب إلى السوق معك.

أسرعت اعتماد إلى غرفتها، وارتدت أبسط عباءاتها فوق ثوبها وطرحة فوق شعرها، ثم أخذت كيسًا من الدراهم، وخرجت إلى التاجر الذي ما زال ينتظرها تحت أشعة الشمس التي يحاول أن يخفيها بوضع يديه فوق عينيه. ترجاها أحد الحراس أن يصاحبهما فوافقت بسبب خوفها من حبلها الذي قد يُضعف من قواها في أي لحظة. روحها المغامرة أصبحت تخاف الآن، لكن توقها إلى هذه اللحظة يفوق كل خوف.

عندما نزلوا من العربة اندفعت تسبق التاجر والحارس إلى السوق، حتى إذا وصلت وقفت هائبة هذه اللحظة، ماذا ستفعل إذا كان حسينًا حقًّا! انقسمت بداخلها الأسئلة إلى تلك الصغيرة عن: هل ستضمه وتُقبّله على مرأى الناس وهم لا يعرفون من هو؟ أم هل ستكتفي بمصافحة؟ هل سيتذكرها؟ هل تغيَّر؟ هل ستقوى على رؤياه أصلًا؟ أم هل ستخر ساقطة على الأرض عندما تراه؟ والأسئلة الكبيرة: هل ستعود معه إلى مصر؟ هل ستستبقيه وتدعو أهلها إلى المجيء وتستقبلهم

كمثل قصة سيدنا يوسف؟ هل ستصطحبه إلى القصر أم ستبقى معه في السوق؟ هل تريد أن تعود إلى حياتها القديمة حقًّا؟

أشار أبو اليزيد وهم يمشون على مهل في السوق إلى جماعة يرتدون ثيابًا مختلفة عن ثياب الأندلسيين، ثيابًا تنحصر ألوانها بين الأبيض والأسود والبني بدرجاتها. تعرفت اعتماد فورًا على المركوب المصري البسيط ذي اللون الواحد، والمصنوع من جلد الماعز، وعلى العمائم البيضاء فوق الطواقي البنية أو السوداء. لم تندفع كما توقعت من نفسها، وقفت لثوانٍ تتنفس بانتظام، وتشعر بنبض قلبها في أطراف أصابعها، كأن الدقات تكاد تغادرها وتتحول إلى شيء آخر، صوت آخر، ربما نداء من الحب، أو الاستغاثة.

نظرت إلى قدميها، ورأتهما تصغران وتلبسان مركوبًا من الكتان وجلد الماعز، والأرض الخضراء الآن تصبح ترابية وهي تسرع وتسرع عائدة إلى البيت مشتاقة إلى دفء رائحة الطعام وإلى فراشها الصغير، وقبل ذلك إلى أهل البيت بثرثرتهم وحتى صمتهم. تمد في خطاها وتجد أن أشياء تسبقها، القلب والروح والمشاعر، من يسرع الآن هو مجرد جسد يجرجرونه وراءهم، ثم شعرت فجأة كأن كل شيء حولها يسير ببطء وهي الوحيدة التي تلهث من أجل لحظة ستتغير بعدها حياتها إلى الأبد.

وقفت عندما أشار إليها أبو اليزيد، فأفاقت من سطوة الماضي، همس إليها:

- إنه معهم لكنني لا أراه الآن.

لم تصغِ إليه، وحاولت استطلاع الأمر بنفسها. في الدكان تبحث النساء بين الأقمشة، بينما تبحث هي في وجوه الرجال. كلهم أصبى منها، ربما لم تقابل أحدهم في زمانها قَطُّ، لكن حسينًا يكبرها بعدة أعوام، لا بد أن شعره شاب قليلًا، وأن له وجهًا أقل نضارة من وجوههم. تلفتت حولها في كل مكان ولم تجده، سألهم أبو اليزيد على مرأى منها:

- ألم يكن معكم رجل آخر في الصباح؟

ردوا:

- أي رجل؟

قال:

- الرجل الأسمر الذي يكبركم عمرًا ويرتدي عمامة خضراء؟

نظروا إلى بعضهم صامتين إلا صغيرهم قال:

- أخذته جماعة منذ قليل.

فكرت اعتماد بسرعة، ونفضت عن نفسها اليأس والقلق، تحتاج إلى كل ذرة من عقلها الآن،

وهو يحدثها بأن تذهب إلى الميناء، ألم يختفِ المرة الفائتة أيضًا ثم ظهر عند الميناء! إذا كانت لا تستطيع أن تتيقن من مكان اختفائه فهي على الأقل تعرف مكان ظهوره. أمرت الحارس أن يأخذها إلى الميناء في مالقة، فودعهما التاجر وعاد إلى دكانه. عندما وصلت إلى بوابة إشبيلية من جهة الطريق إلى مالقة سبقت الحارس ثانية، لكن هذه المرة وعقلها فيها وقد تجنبت قلبها. سألت كل من قابلته عن فوج يرحل إلى مالقة، وأشاروا جميعًا إلى اتجاهات مختلفة. ظلت تقلب في الوجوه بعينيها ولم تجد أحدًا. تبحث بشكل محموم وتسأل مرة ومرات، تقاوم رغبتها في التقيؤ خوفًا من السفر ومن اللقاء، وتسمع إجابات مبهمة: «سيتجمعون بعد قليل». «بعد ساعات». «غدًا». «بعد عدة أيام».

تتسمر أمام بوابة إشبيلية، تجلس على حجر قريب وترفض العودة مع الحارس. يحاول معها عدة حراس آخرين عندما يعلمون أنها زوجة مليكهم، لكنها ترفض وتبقى بكل التعب والألم الذي في ساقيها وظهرها وأسفل بطنها. حتى وصل أمر من المعتمد أن تعود إلى القصر، فوافقتهم، لكن في لحظة ما بين الزحام عاودها الشغب القديم فغفلتهم وهربت. انزوت في ركن بجوار عجوز تشحذ على الأرض، وعقدت معها اتفاقًا وتبادلتا العباءات؛ لبست العجوز عباءة الملكة الثمينة، ولبست اعتماد أثمالًا تداريها عن أعين الحراس، وأخفت وجهها وعادت لتجلس على الأرض أمام بوابة إشبيلية.

تراودها الأفكار، ماذا لو لم يعد إلى مالقة؟ ماذا لو رحَّلوه خلال أيام؟ كيف ستبقى في هذا المكان لعدة أيام؟ هل تذهب إلى الميناء وحدها؟ لماذا لم تفكر قديمًا في أن تهرب إلى الميناء وتعود إلى مصر بأي طريقة؟ هل خافت؟ هل أحبت حياتها هنا؟ هل من أجل المعتمد؟ ثم وضعت يدها على بطنها، بطنها الذي يكاد لا يفرغ حتى يمتلئ. إن لها هنا أكثر من عائلة، أكثر من أب وأم وإخوة، ما في جوفها الآن مضغة من القلب وقد توزع بقيته على الأبناء، إن لها هنا جذورًا لو تركتها تموت. أما ما لها في مصر فهو ذكريات بعيدة، لكن ماذا إذا كانت هي أيضًا جزءًا من قلب أمها وأنه يموت الآن بسبب ضياعها؟

لا تعرف كم من الوقت غفت، لكنها أفاقت على ضجيج حركة وصوت عالٍ لفتح البوابة. كانت الشمس توشك على الغروب، وأعداد من الرجال يسيرون تجاه البوابة. تقترب أكثر لتستطيع أن تتبين الرجال من نقطة السماح بالخروج، لأنها النقطة الأوضح حيث يخرج رجل إثر رجل ولا يتزاحمون. ظلت تحدق إليهم إلى أن رأت رجلًا بعمامة خضراء، اقتربت أكثر ودققت النظر فيه، كان الوحيد المصحوب بحارس، التفت إلى الخلف كأنه يستنجد بوجوه الغرباء، فوجدت فيه حسينًا.

٩

كل الاحتمالات قائمة، الضوء لم يكن كافيًا والرؤية لم تكن صافية، ولها اثنان وعشرون عامًا لم ترَ فيها أخاها، كيف تستطيع أن تجزم؟ عندما صرخت باسمه في هذا اليوم لم يلتفت، لا تعرف حتى إن كان سمعها أم لا، لكنه أكمل طريقه إلى الخارج، ولم تكن صرختها أكثر من أداة تنبيه فاجتمع حولها العسكر، وأعادوها إلى الحراس الذين أخذوها إلى القصر. قبل وصولها إلى القصر بأمر المعتمد تذهب إلى حمَّام إشبيلية الكبير ويغلق لأجلها، تتحمم وتتعطر وتقوم الكسالة بتدليكها وإرخاء عضلاتها وأعصابها، والطيابة بفركها وتطييبها. تترك نفسها إليهن، لكن عقلها حزين، وقلبها يبكي.

خاصمت المعتمد لعدة أيام، عندما رفض إجابتها في كل مرة واجهته فيها بشكها أنه أخفى أخاها وأعاده إلى مصر، يرد ردودًا مبتورة، مثل: «ولماذا أفعل ذلك؟»، «لقد شُبه لكِ يا أم الربيع»، أو يضحك ويقول: «إن لك خيالًا غريبًا يا حبيبتي». يتجاهل ويستخف ويصمت، هذه الردود المائعة التي بسببها اتخذت اعتماد قرارها.

- أريد أن أعود إلى بلنسية.

بعد صد ورد من المعتمد أصر على أن يعرف لماذا تريد أن تعود إلى هذه المدينة البعيدة وتجدد البعد والتعب! بحثت في عقلها عن حجة غير حقيقة أنها تشتاق إلى الوحدة، قالت:

- لا شيء يشبه ما رأيته في بلنسية، إن بها أجمل ما رأيت في حياتي وما لم أرَه في إشبيلية قَطُّ، رأيت بها ثلجًا يطير كالفراشات، يسقط كأوراق الشجر على الأرض يلثمها بلا صوت، إلا الصوت الشحيح للريح التي تصحبه، لم أرَ في حياتي مثل هذا المنظر، ندوف الثلج على أغصان الشجر والأرض البيضاء الأنيقة، وددت أن أترك قيظ هذه المدينة وجفاء أهلها وأن أراه ثانية، أن أراه دائمًا.

أطرق المعتمد وتنهد التنهيدة التي تعرف أنه يطلِقها عندما لا يأخذ حديثها على محمل الجد ويظنه دلالًا، ثم فتح ذراعيه وضمها إليه، قبلت الضمة، قبلتها لأنها كانت في حاجة ملحة إليها لتستعيد بعض اليقين، لتستطيع أن تقنع نفسها أنه لا يحتمل أن يؤذيها هذا الرجل الذي يضمها الآن.

تمر الأيام ويأمر المعتمد بزرع شجر اللوز أسفل نافذة اعتماد، تتساءل في نفسها: «ألأنني أحب الزرع أم لأنه يحبه؟»، ثم تنسى ولا تنتبه وتضع بنتها الثالثة ثريا. تنمو ثريا مع نماء الشجر، ويبدأ في أن يكتسي بالبياض، فتتعجب اعتماد، إنهما، هي والمعتمد، يفضلان الزهور الملونة، ثم تصحو يومًا على بكاء الصغيرة فترضعها ثم تقوم وهي تحملها وتربت على ظهرها لتتجشأ، تتمشَّى في غرفتها وهي سعيدة لأنها أخيرًا أصبحت تتجشم أتعاب الأمومة ولا تلجأ إلى المرضعات.

ثم تقف أمام النافذة وتلاحظ شيئًا غريبًا يحدث من خلفها، تشرعها والرضيعة على كتفها، فتتفاجأ بندف بيضاء مثل الفراشات تطير وتتساقط على الأرض. تفغر فاها، وتتقدم أكثر فترى الزهور تغادر الأشجار برقة، وتقع على مهل لتتجمع على الأرض وتكسوها بالبياض. تمد يدها فتلمس

بعضًا منها، وتضحك ويضحك قلبها. تدندن للصغيرة وهي توجه وجهها إلى النافذة لترى الفراشات البيضاء تتساقط. تغني أغنية ألفتها فورًا، أغنية عن الرجل الذي أحبته أكثر من عمرها، عن الرجل الذي يعد ويصدق من دون أن ينطق حرفًا، الرجل الذي هو كل شيء، تدندن للصغيرة أغنية عن أبيها.

لسنوات طويلة كنت أسمع النساء يقولن: «سحرت له الرُّمَيكيَّة». يقصدن أبي.

١٠

٤٧٨ هجريًّا

«اكتنز اللحم». لم تنسَ اعتماد هذه الجملة القصيرة التي رمى بها ابن عمَّار في أذنها في لقائهما العابر وهي تمر من جواره. إنها لم ترَه حتى في هذه اللحظة، تفاجأت به وتقززت من رؤياه فسمعته يهمس بالجملة بينما يدخل الناس إلى ساحة القصر، وعلى رأسهم المعتمد. كان ابن عمَّار يسبقهم إذن، ذلك ما منعها أن تبصق على الأرض، تعلم أن الجملة لها معنيان، فكرت في المعنى المهين حتى تتجنب التفكير في المعنى الآخر.

كان النهار قد انتصف وهي تجلس في غرفتها تطالع وجهها في المرآة التي في يدها، تنظر إلى الخطوط الدقيقة التي ارتسمت بدقة على أطراف ملامحها وبين حاجبيها، وإلى التجويفين الصغيرين اللذين خطا تحت عينيها، وإلى خطين آخرين يشقان طريقهما من طرفَي الشفتين حتى الذقن. أمسكت ثدييها اللذين اتسعت استدارتهما ثم مشت بيدها على خصرها المكتنز وبطنها الممتلئ، شعرت بشيء من الضيق أصبح يداهمها كثيرًا هذه الأيام، إن العلامات الظاهرة للكبر بغيضة عندما تأبى الروح أن تشيخ، وهي تشعر بروحها شابة ونزقة.

مرت سبع سنوات قبل أن تسقط طليطلة في يد ألفونسو بعد اثنين وسبعين وثلاثمائة عام من حكم المسلمين لها. كان يوم البكاء العظيم، المعتمد يبكي في غرفته، واعتماد تبكي على بكائه، والأبناء يبكون، البعض في غرفته والبعض في مدن أخرى يتولونها. الخدم والجواري يبكون، والناس في الشوارع والأسواق والبيوت، إشبيلية كلها تبكي كل أنواع البكاء. يفكرون في مصيرهم لو أن طالهم ما طال طليطلة، وكيف يمكن بين ليلة وضحاها أن يتحولوا إلى مدينة أخرى لا تشبههم، وتختفي ملامح حيواتهم! ويفكرون في الصورة الكبيرة للأندلس، وكيف يمكن أن تسقط في أيدي الإسبان، وينهار جزء عزيز من الدولة الإسلامية، ويخرج منها العرب إلى الأبد! الغريب أن المسيحيين واليهود كانوا يشاطرون المسلمين الأحزان، فلا أحد يدري ما القادم.

ويأتي بعد الحزن والذعر الغضب، يشتعل بين كل كبير وصغير، وتزداد المشاجرات والعنف في الشوارع، ثم يأتي الإحباط والحسرة، ثم تتحول جميع المشاعر إلى اتحاد وثورة. هذا ما كان يضمره الناس ويخططون له، يتحدثون في كل الخانات وأفواه الطرقات عن تخاذل الملوك وسيرهم وراء شهواتهم. بدأوا بمناوشة الجنود وكيل السباب لهم، ثم تطور الأمر إلى مهاجمة رجال الدولة، وعلى رأسهم المعتمد، الذي كان لا يغادر قصره في هذا الوقت، ويأتيه كل يوم من يحمل له أخبار كره الناس ونقمتهم عليه، وعلى كل ملوك طوائف الأندلس المتقاعسين الذين سلموا أنفسهم للملذات والفتن، ونسوا العامة، وتحالفوا مع ملك الإسبان الكافر، وتركوا زمام الدين.

قال المعتمد لوزيره أبي القاسم الهوزني:

- الآن تركنا زمام الدين وذهبنا إلى الشهوات؟ ألم يكن الناس أول من يهللون للحفلات والمسابقات الشعرية والغنائية التي نقيمها؟ ألم يكونوا أول المحتفين بتحالفنا مع الإسبان لأنه سيضمن لرؤوسهم السلام؟ ألم يقفوا على باب هذا القصر ويباركوا كل قرار لنا؟ الآن يتحدثون عن زمام الدين؟

قال أبو القاسم:

- يا سيدي، تعلم أن الدين عماد الأندلسيين، إنهم حتى ولو شربوا الخمر وذهبوا إلى الشهوات من النساء والأموال، لكنهم لا يتركون صلواتهم ولا صيامهم ولا يتهاونون في عقيدتهم.

قال المعتمد متسائلًا:

- ومن مس عقيدتهم؟ إنها هي نفسها عقيدتي وعقيدة أهلي.

- الحال لا تسر والناس محبطون، هلَّا عذرتهم يا مولاي!

- أعذرهم، ولا أعذر نفسي! كانت معاهدة مشؤومة، أخطأ فيها ابن عمَّار خطأ فادحًا، خطأ لا رجعة فيه.

- المثير للحنق أن الأذفونش سمَّى نفسه الإمبراطور الأكبر حامي الملتين، وأقسم ألا يبقي أحدًا من ملوك الأندلس فوق عرشه.

- إنه ثمن فعلتنا، وسقوط طليطلة له تبعاته.

- لقد بلغنا أنه يعذب شعب طليطلة وهذا ما ينويه لنا، يجب أن نستعد يا مولاي.

قال المعتمد محاولًا مداراة إحباطه:

- لقد أمرت الجنود بالاستعداد، لكن المشكلة في الغضب الداخلي، هذا ما يصعب احتواؤه، وهذا ما أردت مساعدتك فيه، عن طريق الخطب أو إشاعة الأمان بين الناس، لتتحدثوا إليهم وتحثوهم على البقاء معنا لا علينا.

قال الهوزني:

- وهذا ما أردت الحديث معك فيه.

دخلت اعتماد التي يبدو أنها كانت تتلصص على الحديث، وكانت جملة الهوزني هي الإشارة المتفق عليها للدخول، أشار إليها المعتمد أن تجلس، وبادلها ابتسامة تعبة. قالت:

- سيدي وملكي، اسمح لي أن أشاركك مخاوفي كمواطنة إشبيلية قبل أن أكون زوجك. إن أشد ما أخافه هو غضب الناس، قد يطيح هذا الغضب بكل ما تخطط له من حمايتهم، واحتواء هذا الغضب لن يكون بالحديث إليهم فقط، هناك شيء أهم وأخطر علينا أن نفعله.

أكمل الهوزني الذي بدأ اتفاقه مع اعتماد:

- سيدي، ليس لديك شك في إخلاصنا لك، أنا والسيدة الكبرى، وأن جل ما نريده هو مصلحتك ومصلحة وطننا. ولقد رأينا أن أكثر ما قد يهدئ من ثورة الناس هو أن تعزل من تسبب في كل هذا.

سأل المعتمد الذي يعرف الإجابة جيدًا:

- من تقصد؟

ردت اعتماد:

- يقصد الرجل الذي عقد الاتفاق مع الأذفونش.

ثم أكمل الهوزني:

- ألا تعلم يا مولاي ماذا يقول الأذفونش عنه؟ يقول إنه أذكى رجل في الأندلس، والأولى أن يكون ملكًا.

صمتا انتظارًا لرد فعل المعتمد الذي حدق إلى الفراغ من دون أن يعقب، فاستمر الهوزني في حديثه وقال:

- لقد ألقى الشعر على زوجة الأذفونش وفتنت به، حتى إنها أهدته خاتمًا، إنه رجل يبيع نفسه لمن يدفع أكثر، وقد حاول أخذ بلنسية في مقابل معاهدته مع الأذفونش لولا رفضك لأن مليكها صديق لك.

قال المعتمد مفجوعًا:

- تقول هذا وأنت صاحبه؟! لبئس الصاحب أنت.

قال الهوزني:

- يا سيدي، بل أقول هذا لك لأنه واجبي بصفتي وزيرك الأول.

قالت اعتماد:

- يقول هذا وأقوله معه لأننا نخاف عليك، ونخاف سقوط إشبيلية في أيدي الإسبان.

قال المعتمد:

- أنا أعرف ابن عمَّار أكثر من نفسي، وأعرف عِلَّاته وأقبلها كصديقه وكملكه، وأعرف أن اعتماد تبغضه، وأنك يا أبا القاسم تتحدث عما لا تعرفه. أما عن زوجة الأذفونش فقد فُتن هو بها، وهو مولع بالنساء، وأما عن بلنسية فقد عدل عنها عندما شاورني في الأمر، وأما عن المعاهدة فقد جانبه الصواب وهذا يحدث.

قالت اعتماد بيأس:

- أما زلت تثق به؟

قال:

- لم أرَ منه كوزير إلا الدهاء والحصافة والمكر الحميد، وهو رجل كبير الآمال عظيم الطموح.

وبينما ثلاثتهم يتجاذبون أطراف الحديث حول مأساة البلاد، دخل عليهم ابن عمَّار بصخبه وعشوائيته، فأقبل عليه المعتمد إقبال الأخ على الأخ، كأنه لم يرَه منذ شهر. قال ابن عمَّار بصوته الجهوري كمن يخاطب شعبًا بأكمله:

- أنا لها يا مولاي، لن أترك الأذفونش يصيب إشبيلية بأي خطر، حتى وإن دفعت الثمن حياتي.

١١

انقلب القصر رأسًا على عقب عندما علموا بزيارة رسول ألفونسو، ابن شاليب اليهودي، للقصر. أرادت اعتماد أن تحضر هذا الجمع كعادتها مؤخرًا، لكن المعتمد رفض، وطلب منها أن تبقى في غرفتها. وافقت. توافق اعتماد على ما لا ترغب فقط عندما يأتي من المعتمد، لأن لديها دائمًا الوسيلة لتحققه من دون أن تغضبه. ولأن شغلها الشاغل في السنوات الأخيرة كان أن تشارك المعتمد في كل شيء، وتساعده بالرأي أو بتهيئته لما يريد، فقد تحملت مسؤولية أن تعرف من دون أن تنتظر ما يخبرها به.

لم تكن الزيارة لابن شاليب وحده، حضر معه ثلاثمائة جندي، حطوا جميعًا على حدود إشبيلية. دخل اليهودي على المعتمد وهو جالس مكفهر الوجه بين حاشيته. كان لليهودي ذقن هزيل يكاد يصل إلى منتصف بطنه، وعينان واسعتان انطفأ نورهما من العجز واللؤم، ويرتدي ثيابًا سوداء، وعلى رأسه طاقية بيضاء تغطي بعضًا من صلعه. ألقى تحيته بتكبُّر ثم أتى بسبب زيارته المشؤومة، لقد حمل رسالة إلى المعتمد من ألفونسو، مفادها طلبان، الأول هو مضاعفة الجزية، والثاني هو أن تقيم زوجه كونستانس في الزهراء، حيث طيب النسيم والمرمر الصافي والحوض المشهور بين البلاد والأقطار حتى تلد، وأن تضع مولودها في مسجد قرطبة، مكان الكنيسة القديمة حيث الفضيلة كما أشار بذلك القسيسون والأساقفة.

يحكي لها طاهر أن المعتمد كأنه فقد رصانته كلها في هذه اللحظة. فما لبث أن نهض كفهد غاضب يتحين الوثوب على فريسته. قال لليهودي بازدراء:

- أما عن المال فخذوه ربما يسد شيئًا من جشع سيدك، وأما عن ولادة القمطجية في مسجد قرطبة فهو أمر أبعد من المحال.

رد عليه اليهودي بأن هذه رؤية قساوسة قشتالة، وبأنهم أشاروا عليه أنه إذا وُلد له ولد في أكبر مساجد المسلمين كانت له السيطرة عليهم. ولم يكتفِ بهذا فزاد بأن الجزية التي يدفعها الآن المعتمد من المال سيدفعها غدًا من الحصون والمدن.

اندفع من عينَي المعتمد شرار الحزن والغضب، وما لبث أن طرد ابن شاليب، ورفض أن يعطيه الجزية. لكن اليهودي لم ينفذ الأمر، واستفز المعتمد بتهديده بأمن إشبيلية وبالجنود المرابطين على أسوارها. قال للمعتمد إنه والمسلمين يعيشون في حِمى ملك قشتالة، وعليه أن يشرِّف مسجد قرطبة بأن تلد فيه زوجته. في هذه اللحظة لم يتمالك المعتمد نفسه فأمسك دواة قريبة منه صُنعت من حجر العاج، وألقاها على رأس ابن شاليب الذي خر ساقطًا وانفجرت الدماء من رأسه. ثم طلب من الجنود أن يأسروا قادة جنود ألفونسو الرابضين على أبواب إشبيلية، وأن يخبروا الباقين بأن يبلغوا ألفونسو أن المعتمد لن يدفع الجزية ثانية، وأن زوجه لن تلد في مسجد قرطبة.

النتيجة لم تكن بعيدة، حوصِرت إشبيلية بعد سقوط طليطلة بعدة أسابيع، ها هو ذا الكابوس يتحقق بعد أن زحف جيش ليس له نهاية يقوده ألفونسو نفسه إلى الشاطئ الكبير قبالة قصر المعتمد. وأهل إشبيلية بدلًا من أن يتجمهروا من أجل طليطلة، الآن يريدون النجاة لإشبيلية. الفزع تمكَّن من الجميع ومعه السخط والغضب. أما المعتمد فكان مشغولًا مع وزرائه ومستشاريه في اجتماعات لا تنقطع، حتى جاءت ليلة دخل على اعتماد وفي عينيه خوف وتردد. سألته:

- ما بك؟

رد:

- لا شيء.

لكنها أصرت عليه وقالت:

- أعرفك كما أعرف نفسي، هاتِ ما عندك يا أبا القاسم.

قال:

- لقد توصلنا إلى حل نأمل أن يزيح عنا هذه الغمة. سوف يذهب ابن عمَّار لملاقاة الأذفونش، لكنه لن يذهب وحده.

همست اعتماد بمزيج من القلق والتسليم:

- الرشيد؟

رد المعتمد:

- سيذهب معه الرشيد.

قالت:

- ألم يكفِك ما حدث لأخيه؟

قال:

- أعرف، لكن هذا قدر الملوك، وأنا لا أريد أن يتشاور ابن عمَّار مع الأذفونش فيحدث مثلما حدث في المعاهدة الأولى، ولا أريده أن ينفرد بكل المواقف العظيمة فتُحسب له وحده.

صمتت اعتماد احترامًا لهذه اللحظة، اللحظة التي نطق فيها المعتمد أخيرًا بكلمة غير الثناء على ابن عمَّار، وشارك مخاوفه الداخلية من أعز أصحابه بل من صاحبه الوحيد.

ولكن الله تقبل دعاء اعتماد، ولم يذهب الرشيد مع ابن عمَّار، نزولًا على رغبة ابن عمَّار الذي أصر على أن يتحمل عبء هذه المقابلة وحده. لم تمر سوى أيام قليلة حتى عاد ابن عمَّار في موكب من هتاف ودعاء ومحبة أهل إشبيلية ينادونه برجل الجزيرة. كانت أخباره قد سبقته، فقد جمع ألفونسو جنوده وغادر حدود إشبيلية بعد أن هزمه ابن عمَّار في لعبة الشطرنج. يحكي ابن عمَّار للمعتمد وحاشيته واعتماد الحكاية لأول مرة، قبل أن يحكيها مرارًا وتكرارًا بعد ذلك، قال:

- هل تذكر يا أبا القاسم رقعة الشطرنج التي صنعها الحرفيون لي خصوصًا من قطع موشاة بالذهب؟

رد المعتمد متباهيًا:

- ومن لا يذكر شطرنج ابن عمَّار الذي يهزم به كل وزراء وملوك الأندلس.

أكمل ابن عمَّار:

- الأذفونش لا يعرف مهارتي في هذه اللعبة لكنني أعرف ولعه بها، دفعت لبعض من أصحابه حتى يحدثوه عن رقعة الشطرنج التي أملكها فاشتاق إلى رؤيتها، ومن ثَمَّ عرضت عليه أن أمنحها له إن لعبنا وهزمني. تملص أول الأمر لكن أصحابه أشاروا عليه أن ينازلني، لأنه من غير اللائق أن يخشى وزيرًا من المسلمين، سخر وهو يتصور أن هزيمتي أمر لا شك فيه، وعندما وافق على أن يلاعبني أخبرته بأن لي شرطًا إن فزت، وشرطي أن أطلب ما أشاء، وطبعًا لم أقل طلبي.

قاطعه المعتمد متحمسًا:

- وكيف لعب معك من دون أن يعرف طلبك؟

قال ابن عمَّار ضاحكًا:

- الفضول قتل صاحبه. هزمته في أقل من ساعتين، كان يجب أن تراه وهو ينتفض مثل شاب غر ويسألني عن طلبي، قلت له: «أن تترك إشبيلية وترحل». زاد لونه الأحمر اتقادًا ورفض، قال إن هذه اللعبة كانت هذارًا، فقلت له: «هذار الملوك جد». وأصحابه الذين وعدتهم بالمال تولوا مهمة إقناعه بأنه يجب أن ينفذ طلبي، لأن الملك لا يتراجع في كلمته، فوافق على سحب جيوشه بشرط دفع جزية عامين.

في هذه اللحظة اربدَّ وجه المعتمد، وقال:

- من أين آتي له بالمال؟

رد ابن عمَّار بهدوء:

- ولا تنسَ أن تدفع مال أصحابه أيضًا.

بعد ليلة من أفراح إشبيلية التي لم ينَم أهلها، وفي مخدع اعتماد، خلع المعتمد قناع زهوه بصاحبه، وأفصح عن مخاوفه منه. كان إفصاحًا رقيقًا طيبًا، حتى إن اعتماد حمدت الله أنها ليست لها صديقة بهذا القرب، تحبها مثل حب المعتمد لابن عمَّار، حتى لا تتعذب مثله بهذه المحبة غير المتكافئة. لن تهاجم صديقه الآن، على الرغم مما تحمله له من بغض واحتقار، وستحترم ألمه الشفيف ودموعه التي يذرفها داخله، وتضمه وتسمعه وتواسيه. مع الإفصاح كان المعتمد يسترجع عهد أبيه ويترحم عليه بإجلال وهو يذكر ما ورَّثه له من مُلك. قالت:

- لكن المُلك تضاعف في عهدك.

رد المعتمد:

- وما فائدة أن يتضاعف ويضعف! ما فائدة الرقعة المتسعة إن لم تكن متماسكة! إن مملكتي مثل كل الأندلس، مدن كثيرة مختلفة كلها قابلة للنهب والرواح.

قالت:

- لديك بدلًا من الولد ستة، تحكمهم على مدنك فيصبحوا يدًا واحدة.

قال وهو ينظر في عينيها:

- أصبحتِ توافقين أن يعملوا جميعهم في السياسة؟

قالت وهي تمسك يديه:

- إنه قدر الملوك.

قال متنهدًا:

- هذا إذا بقيت المملكة.

سألته اعتماد:

- ولماذا لا تبقى؟

قال:

- لأن ابن عمَّار اتفق مع الأذفونش أن يساعده على أخذ مرسية.

قالت:

- وهل يغضبك أن يزداد ملكك؟

قال:

- بل يغضبني أن نتفق مع الإسبان على مدن الأندلس ونقسمها بيننا، أنتفق مع هذا الجشع ثانية بعد أن نكث عهده! لقد تغير كل شيء منذ معاهدته الأولى، لم يعد لحياتي القديمة الهانئة مكان، لم يكن هذا ما أريد أن أعيشه، ولا هذا المُلك الذي قدرت أنني أستطيع أن أديره. إنني أراجع الآن حياتي كلها، ولا أريد أن أكون ملكًا تحالف مع الإسبان ضد الأندلسيين، لا أريد هذا لكنني مضطر إليه، والاضطرار ضعف وخيبة، هذا ما يفرق مملكة أبي عن مملكتي.

قالت:

- لا تنشغل بما سيقوله الناس والزمن، يكفيك أن تفعل ما يمليه عليك ضميرك.

قال:

- ضميري يرفض أن نأخذ مرسية باتفاق مع الأذفونش.

- لا تأخذها إذن.

- ابن عمَّار يصر على أخذها وهو وزيري الذي أثق بحصافته ورجل الجزيرة المحبوب من الناس.

قالت اعتماد مؤثرة ألا تزيد من حنقه على صديقه:

- ولماذا يرفض ضميرك يا محمد؟ مرسية ستزيد من سلطانك، وستنفع أهلها أكثر من مليكهم، ألم تخبرني مرارًا بأنه اختار الثقافة على السياسة ولم يعد يهتم بملكه.

قال:

- لأن ملك مرسية أشجع مني، على الأقل اختار الثقافة.

قالت:

- حسنًا لماذا لا تغلبه في الملك؟

قال:

- لأن الأندلس ليست رقعة شطرنج يا اعتماد.

١٢

السماء تتلون بالغضب والحدائق الخضراء تفقد بريقها ولونها. ضحكة المعتمد التي غابت، غاب معها الغناء، وحتى الزهور البيضاء المتساقطة على نافذة اعتماد باستمرار لم تفلح في أن تزيل غبار الحزن على حال المعتمد من قلبها. تزورها النساء واحدة تلو واحدة، الحرة والجارية، يريدن منها أن تساعدهن على إيجاد طريقة للسفر إلى ابن عمَّار في مرسية، ليكنَّ رفيقات له هناك كما كن رفيقات له هنا. كانت ترثي لحالهن، فلا تبدي لهن امتعاضها، لكنها أيضًا لا تقدم لهن مساعدة. كان يمكن أن تساعد قمر، لولا أنها ذهبت منذ سنوات، حملت رحالها عن بيت ابن عمَّار، واختفت كأنها لم تكن موجودة من قبل.

منذ أن دخل ابن عمَّار مرسية والمعتمد لم يعد كما كان، سكن الحزن عينيه، ليس حزنًا خالصًا، يشوبه الغضب والندم. في البداية انتابه الصمت والترقب، ثم بدأ يفيض بعضه ككوب ممتلئ، وفي إحدى ليالي سهاده باح لها بمكنون نفسه. قال:

- كنت أعرف أنه لن يعود.

- ولماذا أرسلته إلى مرسية إذن ونصَّبته عليها؟

- أحيانًا تعرفين بقلبكِ حقيقة الشيء، ثم تمنحينه الفرصة ليظهرها، حتى تعرفيه بكُلك.

- لقد أخبرتك عن حقيقته قبل زمن.

- الإخبار لا يعني شيئًا، لأننا نرى الناس بأعيننا لا بأعين غيرنا، ولأن الناس لا يظهرون كل جوانبهم لنفس الشخص، فربما رأيتِ منه الجانب الخبيث، لكنه أراني أنا الجانب الطيب.

- وما الذي جعلك تشك في خبثه الآن؟

- لقد غادرني منذ أن كان هنا في إشبيلية، وربما أنه لم يكن معي من اليوم الأول، شعوري بانقلابه عليَّ بدأ منذ معاهدته مع الأذفونش، شعرت حينها بأنه يسوس برأيه، وأنه لا يعتد برأيي فيما أملك، ولا حتى بصداقتنا. هذا الرجل لم يكن وزيرًا مثل كل الوزراء، الذين أتوقع منهم العصيان، هذا الرجل صاحبي، وبيننا أكثر من عشرين عامًا من الألفة والمودة. إن الخيانة كلمة صعبة عندما تخص إنسانًا تعرفه، لكنها كلمة قاتلة عندما تخص إنسانًا تحبه.

- هذا ليس إنسانًا، ولا يستحق رقة قلبك.

- قلبي؟ لقد هشم قلبي يا اعتماد.

- حاشاه! كيف يتهشم قلبك وأنا فيه!

- لقد هشم قلب الصديق.

- تعرف رأيي، لكن انتظر، ربما خاب ظنك فيه.

- إن أخشى ما أخشاه هو خيبة الأمل.

لم يخفَ أسى المعتمد على كل من بالقصر في الأيام التالية، حتى حدث ما توقعه وتحدثت عنه إشبيلية بل والأندلس بأكملها. استقل ابن عمَّار بملك مرسية، ولم تنقطع بينه وبين المعتمد رسائل اللوم والهجاء. أرسل المعتمد رسالته الأخيرة من سطر واحد، قال فيها: «لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ». ثم انقطعت الرسائل، لكن ملك بلنسية السابق أبا بكر بن

عبد العزيز أرسل إلى المعتمد قصيدة هجاء كتبها ابن عمَّار فيه وفي زوجه، ولم يكن هجاءً عاديًّا، كان فاحشًا، اتهم المعتمد فيها باللواط، وأشار إلى اعتماد بالعهر:

تَخيَّرتَها مِن بَناتِ الهجَان رُمَيكيَّةً مَا تُسَاوِي عِقَالا

فَجَاءت بكُلِّ قصيرِ العذار لَئيم النجارَين عَمًّا وخَالا

قِصَار القدودِ ولكنَّهم أقَامُوا عَلَيها قُرونًا طِوَالا

أتذكرُ أيَّامنَا بالصِّبَا وأنتَ إذَا لُحتَ كنتَ الهِلَالا

أُعَانقُ مِنكَ القَضيبَ الرَّطيب وأرشفُ مِن فِيكَ ماءً زُلَالا

وأقنَعُ مِنكَ بِدونِ الحَرام فتقسمُ جهدَك أنْ لا حَلَالا

سأهتِكُ عِرضَك شَيئًا فشَيئًا وأكشِفُ سِترَك حَالًا فحَالا

ليلتها شعرت اعتماد بأنها انتصرت، إن ما أظهره ابن عمَّار هو خير دليل لها وللمعتمد على أن ظنونهما السيئة به كانت في محلها، وأن خيانته سبقها حقد دفين. إن ما قاله فيهما أدانه هو وبرَّأ سريرتهما، لكن المعتمد لم يشاطرها الشعور بالانتصار. قال:

- أما إنه لو تعرض لي لعفوت عنه بحق الأيام السالفة، ولكنه تطاول على أولادي وزوجتي...

جِرَاحَاتُ السِّنَانِ لهَا التِئَامٌ ولَا يَلْتَامُ مَا جَرَحَ اللِّسَانُ

١٣

لكن حياة المعتمد الذي أصابه الحزن في مقتل لم تتوقف على خيانة ابن عمَّار، واتخذ أبا بكر بن زيدون وزيرًا له بدلًا من ابن عمَّار. غاب في محادثات طويلة مع وزرائه وحاشيته ومستشاريه، حتى لم تعد اعتماد تهنأ بصحبته إلا قليلًا، إلى أن جاء اليوم الذي عرفوا فيه أن جنود مرسية انقلبوا على ابن عمَّار لصالح مليكهم السابق بعد أقل من عام من حكمه. طردوه من أرضهم، وتنقَّل في البداية بين ألفونسو وبعض ملوك الأندلس يبحث عن مأوى ومستقر له، حتى استقر عند بني هود

في سرقسطة يوالسهم ويمنيهم بخبرة ثعلب الصحراء، يعيد إليهم حصونهم ويخطط لهم كما كان يخطط للمعتمد.

أتت نهايته وهو يحاول اقتحام حصن شقورة، عندما خدعه حاكمه ابن مبارك، ثم قبض عليه وأودعه السجن، وعرضه لمن يدفع أكثر. وكان الطلب عليه كثيرًا لكثرة أعدائه، حتى إن رجلًا أراد أن يشتريه ليتاجر به، لكن الأشد طلبًا له كان المعتمد الذي أرسل رسوله ابن اللبانة ليحضره مقيدًا إلى إشبيلية.

في القصر، مثُل بين يدَي المعتمد واعتماد والوزراء. قال له المعتمد المتماسك بشدة عن شعور اعتراه بالرأفة على منظر صاحبه القديم وهو مغطى بالجروح والوسخ:

- ألم تأتِنا عاريًا فكسوناك، ألم تأتِنا جائعًا فأطعمناك، وكنت خاملًا فرفعناك، ومحضناك من صحبتنا حتى خاصمنا فيك أبي وأهل بيتي!

فقال ابن عمَّار:

- عثرت فأقِلْ، وزللت فاصفح.

رد المعتمد:

- هيهات، إنها عثرة لا تقال.

أودعه المعتمد سجن القصر، مما أثار حفيظة اعتماد التي هاجت وماجت، لم تكن تريده أن يحن إلى الأيام الماضية، ولا أن يصبح مثيرًا للشفقة في أعين ناسه، لكنه أبى أن ينساق لها، والغريب أن الرشيد كان يساند أباه في رأيه، فنظرت إليهما اعتماد، وهمست في نفسها: «هذا الشبل الرقيق من هذا الأسد النبيل».

لم يمر على وجود ابن عمَّار في السجن عدة أيام حتى وجدت اعتماد الجارية شجن على بابها، تخبرها بأن ابن عمَّار استحلف أحد الحراس الذي كان له خاطر عنده في أن يرسل في طلب اعتماد لتقابله، وأنها تنقل رغبته كما سمعتها من الحارس. استشاطت اعتماد غضبًا، وذهبت إلى المعتمد المنزوي في مجلسه وقصت عليه ما حدث. قال لها بنبرته الحزينة:

- اذهبي وقابليه في وجود الحراس.

قالت هائجة:

- أتريد لي أن أقابل هذا الحقير؟

- ربما يريد أن يعتذر إليك.

- وحتى إذا اعتذر، هل تظن أنني سأقبل؟ إنني وإن قبلت اعتذاره في هجائه لي فلن أقبله في كسر قلبك.

- اذهبي واعرفي.

- إذا كان يتوسط لك عندي فقد أخطأ السائل.

- وهل أعز عندي منك؟

- هل توافق لأنك تريد وساطتي؟

- اذهبي واعرفي.

ذهبت اعتماد إلى ابن عمَّار في سجنه، لم تنطق واكتفت بالنظر إليه بقرف وإباء. قال بصوت خفيض:

- ستضيع الأندلس إن لم تستمعي إلى حديثي. هذا الرجل زوجك سيضيع كل شيء، إن له عليَّ فضلًا، لكنه ليس برجل سياسة وليس بكفء للحكم، طليطلة ضاعت، وغدًا تضيع قرطبة وإشبيلية! لقد سجنني لأنه يعرف أن الحق معي، وأن ملوك الأندلس يؤمنون بي ويوالونني، لولا خوفهم منه لأنه صاحب للأذفونش. لقد اتفقت مع ملك بلنسية وألبونت وبني الرزين على أن ننقذ الأندلس بجيوش ليس لها آخر وبدهاء رجل الجزيرة. إن لي أعداء كما لكل رجل ذي شأن، وقد نكلوا بي ودبروا لي هذا السقوط، لأنهم لا يريدون للأندلس أن تستقيم من أجل مطامعهم، بي أو من دوني ستسقط إشبيلية إما بالأذفونش وإما بالملثمين، فكوني معي.

ثم زاد بنبرة متوسلة:

- كوني معي، فأنتِ لقلبي خاتمة النساء، وإن هجائي لكِ أتى من حبي وغيرتي، ساعديني على الهروب وتعالي معي، يمكننا معًا بقوتي وفطنتك أن ننقذ الأندلس، ونكون أسعد وأشجع الملوك. لا تضيعي الفرصة مثلما أضعت فرص الهروب من هنا طوال هذه السنوات.

لم تنطق اعتماد، وكانت تتحرق غضبًا من الفارق الشاسع بينه وبين زوجها، ومن ظنه الخبيث فيها، فخرجت من عنده إلى المعتمد، سألها عما قاله ابن عمَّار، فلم تشأ أن تزيد من جراحه. قالت كلمة واحدة:

- اقتله!

رد المعتمد:

- أنا من يتخذ القرار يا اعتماد.

توالت قصائد ابن عمَّار التي يرسلها إلى المعتمد ليعتذر ويستقيل من ذنبه، يقرأها المعتمد فلا يلين، حتى إنه طلب من الحراس ألا يمنحوا ابن عمَّار الورق، لكن على الرغم من ذلك عندما أتته القصيدة الأخيرة أذابت شيئًا من غضبه:

سَجَاياكَ إنْ عَاقَبتَ أندَى وأسمَحُ

وعُذرُكَ إنْ عَاقَبتَ أجلَى وأوضَحُ

وإنْ كانَ بَينَ الخُطَّتينِ مَزِيةٌ

فَأنتَ إلَى الأدنَى مِنَ اللهِ أجنَحُ

حَنَانَيكَ في أخذِي بِرَأيكَ لَا تُطِع

عُدَاتِي وإنْ أثنَوا عَليَّ وأفصَحوا

ومَاذَا عَسَى الأعدَاء أن يَتَزَيَّدوا

سِوَى أنَّ ذَنبِي واضِحٌ مُتصحِّحُ

نَعَم لي ذَنبٌ غَيرَ أنَّ لِحلمِهِ

صِفَاتٌ يَزِلُّ الذَّنبُ عَنهَا فيُسفَحُ

وإنَّ رَجَائي أن عِندَكَ غَيرَ مَا

يَخُوضُ عَدوِّي اليَومَ فِيهِ ويَمرَحُ

ولِم لَا وقَد أسلَفت ودًّا وخِدمَةً

يَكُرَّانِ في لَيلِ الخَطَايَا فيُصبِحُ

وهبني وقَد أعقبتُ أعمَالَ مُفسدٍ

أمَا تفسدُ الأعمَال ثمَّة تصلحُ

أقِلني بِمَا بَينِي وبَينَكَ مِن رِضًى

لَـه نَحـوَ رُوحِ اللهِ بَابٌ مُفتَّحُ

وعفَّ عَلَى آثَارِ جُرمٍ جَنَيتُه

بهِبَةِ رُحمَى مِنكَ تَمحو وتَصفَحُ

ولَا تَلتَفت رَأيَ الوشَاةِ وقَولَهُم

فَكُلُّ إنَاءٍ بالَّذِي فِيهِ يَرشَحُ

طلب المعتمد أن يقابله، فتقابلا وحدهما ولم يعرف أحد ما دار بينهما، لكن ما حدث بعد ذلك عرفه الجميع. توقف أبو بكر بن زيدون عن مصاحبة المعتمد، الذي شك في الأمر، فبعث إليه يسأله عن سبب غيابه. أتاه أبو بكر، وكان رده أنه علم بأنه سيعفو عن ابن عمَّار ويعيده إلى الوزارة، وحينها لن يبقى أمامه إلا أن يستقيل، لأنه لا يستطيع العمل مع ابن عمَّار، ويعرف مكانته عند مليكه، وأنه سيستغنى عنه من أجله. تعجب المعتمد أشد عجب وأنكر ما يقال، ثم عرف أنه كلام يقال في إشبيلية كلها، بعد أن أرسل ابن عمَّار رسالة إلى صاحبه ابن الفضل يخبره بأن المعتمد وعده بالخلاص، ويطلب منه أن يعد له الغرف الفاخرة إلى أن يسترد قصوره! وقد انتشر أمر الرسالة، وزاد عليها الناس زيادات قبيحة، فلم يعرف بالضبط محتواها.

أرسل المعتمد في طلب ابن عمَّار في حضور أبي بكر بن زيدون وبعض وزرائه وحارس السجن وابنه الرشيد الذي حكى ما رآه بعد ذلك لاعتماد. سأل المعتمد ابن عمَّار عما سمعه، وإذا كان قد أخبر أحدًا بما دار بينهما في اللقاء الأخير، فأنكر ابن عمَّار إنكارًا شديدًا، إلى أن قال أبو بكر بن زيدون لابن عمَّار:

- لقد طلبت ورقتين بعد أن منع عنك المعتمد الورق، ورقة منهما كتبت فيها قصيدتك الأخيرة للمعتمد، فأين الورقة الثانية؟

قال ابن عمَّار بثقة مضطربة:

- سودت بها القصيدة.

سأله المعتمد:

- أين المسودة؟

أجهش ابن عمَّار بالبكاء وهو يقول فلا يكاد يسمع الكلام من بين شهقات بكائه:

- نعم يا سيدي المعتمد، لقد كتبت رسالة لصديقي ابن الفضل.

اسودت عينا المعتمد فعرف ابن عمَّار مصيره، وألقى لعبته النفسية الأخيرة عندما قال:

- لا تكن مثل أبيك.

لكن المعتمد همَّ به من دون شفقة، وهمس بشيء لم يسمعه إلا ابن عمَّار، ثم ضربه بالطبرزين على رأسه فشقه من المنتصف وهو يقول:

- أنت شر يموت معك كل الغدر والخديعة.

ثم رحل عن المكان قائلًا:

- لكل شيء مبتداه ومنتهاه.

أمر بتغسيله وتكفينه والصلاة عليه، ثم دفنه بالقصر المبارك.

عندما وصل الخبر إلى اعتماد هرعت إلى المجلس الذي قُتل فيه، ورأت جثته تسبح في دمائه، والطبرزين مغروس في منتصف رأسه، وحوله بعض الحراس والخدم يبكون في صمت. ارتعدت فرائصها من منظر رجل كانت سيرته ملء السمع والبصر، ووجوده الطاغي يُشكل محبة الناس وخوفهم وحنقهم. رجل أنقذها قديمًا من حفرة، أول من سقاها الحب والكره، وعرَّفها على عذابهما، الآن هو مجرد كومة ستُدفن تحت الأرض، وينساها الناس أو يذكرونها على هواهم. رحلت اعتماد وهي تخفي دموعها، وسمعت وهي في طريقها إلى غرفتها ابن وهبون أحد شعراء الملك يقول:

عَجَبًا لِمَنْ أبكِيهِ مِلءَ مَدامِعي

وأقُولُ لَا شَلَّت يَمِينُ القَاتِلِ

مسحت دموعها بسرعة وهي في طريقها إلى غرفة عزلتها. هناك في ظلام الغرفة بكت من دون أن يسمعها أحد، لا تعرف سببًا لبكائها، فموت ابن عمَّار كان جل ما تتمناه، لكن جزءًا منها ما زال يفزعه الموت، فما بالك بموت من تعرفه، ومن تشارك معها شيئًا من حياتها! حتى إذا كان أسوأ جزء منها. وهي أيضًا تبكي لما تشعر به يعتلج بصدر المعتمد من الأسى الآن. مسحت دموعها ثانية، وغسلت وجهها بماء الورد، ومسحته بالمرطبات قبل أن تدخل على المعتمد، لا تعلم إن كانت ستشجعه أم ستواسيه! رأته جالسًا على فراشه بثياب النوم وشعره ندي من جراء استحمام طويل، وجهه المتغضن وهيئته الشاحبة جعلاه يبدو كأنه عائد من حرب. قالت له ضاحكة في إشارة إلى هيئة أبي بكر الأخيرة والطبرزين في منتصف رأسه:

- صار ابن عمَّار هدهدًا.

١٤

لم يكن هناك ابن عمَّار واحد، كان هناك مائة ابن عمَّار، ومئات الدسائس والوشايات والخيانات، وكان هناك الأذفونش، واليهود والصقالبة والبرابرة وجيوش إفريقيا، لكنهم يقولون إن المرأة شرك

الشيطان. في الأندلس المرأة هي المحرضة، وهي مكمن العبث واللهو والبذخ والإسراف، وهي جذوة الحروب والشر وقتل الرجال، الرجال الذين يبيعونها ويشترونها ويأمرونها بالغناء والرقص والتعري والبغاء وحتى الحديث والصمت، المرأة المقيدة بأغلال سلطة مالكها وأبيها وأخيها وزوجها وحتى أبنائها، هي السبب في سقوط الأندلس.

يزعمون أنني أنا من أخطط للمعتمد، وأدفعه إلى فعل ما أريد، وأجبره على شتى ألوان الصرف وبعثرة الأموال بجنون، أنا سبب البذخ والترف والنعيم الذي يعم قصور الأندلس وربوعها! الأندلس التي وجدتها بكل هذا النعيم منذ أن فتحت عينَي عليها، وقصورها الموروثة التي كلما أتاها ملك زاد في عددها وغالى في معمارها، ونحن النساء نفاجأ بكل تصاريف الرجال. يقولون إن الرُّمَيكيَّة تسحر له، ويصفون العشق الذي علمني إياه وعلمته إياه بالسحر، وما أنا بساحرة وإلا كنت استطعت أن أجد أهلي، وأجبر زوجي ألا يتزوج غيري، وألا يتعاشق مع امرأة سواي.

إن هدايا المعتمد لي هي عادة يفعلها الملوك، وإن كان يفعلها بحب فهذا قدري الجميل، وإن كان بمبالغة فهذه نفسه وما لي أن أغيرها. أما عن أفعاله مع السياسة فلا أعرفها، وإن عرفتها فلا أتفق معه في بعضها، وإن خالفته فأنا أيضًا أوافقه، كيف أدفعه إلى فعل هذا أو ذاك وهو ملك، له مستشاروه ووزراؤه، وأنا لا أعرف عن السياسة إلا ما أستطيع أن أعرفه! إنه يشاركني الغرام ويخشى عليَّ من الحزن ويدفع عني الأسى والغضب، إنه يراضيني لأنه يعلم أنني وحيدة في عالمه، ليس لي أهل ولا صديقة واحدة، هو كل حياتي، ولم يكن يريد أن يزيد من وحدتي بمغاضبتي.

إنه رجل وهبه اللـه من ذكاء النفس والنزاهة والشجاعة والحياء والسخاء وغزارة الأدب وحب الناس، لكنه لم يعجب الشيوخ لأسباب لا أفهمها. أمَا كان أولى بهم أن يأتوا إلينا ويشرحوا أسبابهم؟ لقد كرهوه فنثروا عنه الكلام المسيء، ولأنه رجل فأعادوا كل ما كرهوه في أفعاله إليَّ أنا، وأنا واللـه لن أثنيهم عما يقولونه، فإذا كان الذم من نصيب أحدنا فليكن أنا، وإذا كان على أحدنا أن يحمل عبء الخيبة وضياع الأندلس فليكن أنا. وهذا كتابي الأخير أكتبه وأدفنه فلا يقرأه أحد من زماننا هذا، لكنني لن أحرقه، فربما أحتاج إلى الإنصاف بعد أن ينقضي عهدنا، أحتاج إلى أن يعرف الناس أنني لم أرِد ملكًا ولا جاهًا، فقد فقدت من أجلهما كل أحبابي، كل ما أردته هو أن أبقى مع هذا الملك الكريم إلى آخر يوم في حياتي.

* * *

لم أنَم ليلي حزنًا على قرة العين، فقد أحرق الإسبان أغلب بيوت شذونة، ولاقت حتفها هي وأمها وأختها وأبناء أختها الأربعة محروقين في بيتهم، ومثلهم عشرات أسر الفلاحين الآمنين الذين قتلتهم جيوش الأذفونش. لم تكن قرة جاريتي، كانت أختي وصاحبتي التي لم أدرك سوى الآن صداقتنا

بعد أكثر من خمسة وعشرين عامًا قضيناها معًا. إن جلدي يكاد يسقط مني والحرارة تلفح وجهي وتشتعل في رأسي، حتى إنني عدت إلى عرجي وإلى آلام معدتي. كل من أحببتهم ماتوا فجأة، رحلوا فجأة، اختفوا من حياتي من دون رجعة فجأة. آه للمفاجأة في أثناء اطمئناني وضماني لوجود من أحبهم حولي، إنها أسوأ ما عاملتني به الحياة.

لكنني لم أتهنَّ على الحزن، ولم أجد من الوقت ما يكفي للانهيار والرثاء. فقد حوصرت إشبيلية بعد هذا العدوان بيوم واحد، وأقام الأذفونش وجنوده على حدودها بقرب النهر. هذه الغارة أشد من التي قبلها، أو إن قوة إشبيلية ضعفت بفعل التوسعات والحروب، وبعد أن استنزف ابن عمَّار الجيوش من أجل الحصول على مرسية. المعتمد لم يعد يشاركني خواطره، أشعر به يتغير وتتبدل أفكاره على الرغم من أنه صامت وغريب، لم يكن أمامنا إلا الاستسلام للحصار.

الخوف والجوع يفتكان بالناس، والمعتمد لم يغلق أبوابه في وجوههم، على الرغم من سخطهم عليه، بل فتح قصوره جميعها لهم، وفردت موائد من الطعام تكفي كل محتاج. منع التجار من أن يغلوا بضاعتهم، وأسرف من ماله إزاء ذلك، إنه يجتمع طوال اليوم مع وزرائه ومستشاريه يتناقشون. أما أنا فتائهة بين الحزن والقلق، أسترجع ذكريات مشابهة من فاجعة النقص والجوع، وأعرف أن بعدهما يأتي الضياع.

وفي أثناء ذلك وصلت إلى المعتمد رسالة من الأذفونش الرابض أمام حصون إشبيلية تقول: «إن الذباب قد آذاني حول مدينتك فلو ترسل إليَّ مروحة أروح بها عن نفسي فافعل». فهم المعتمد مغزاها، وعرفنا جميعًا أنها استهزاء بقوة جنود إشبيلية الذين لا يؤذونه كما يؤذيه الذباب. أمسك المعتمد بالرق، وكتب في ظهره رسالة تقول: «واللـه لئن لم ترجع لنروح عليك بمروحة من المرابطين». في الليلة نفسها وقبل أن يأتي الصباح وجدنا أن الأذفونش وجنوده حزموا أنفسهم ورحلوا عن إشبيلية مع خيط نور الفجر.

أنظر إلى هذا الملك الحزين إعجابًا وتقديرًا، هذه المرة ليس بسبب وسامته ولطفه ونبله ورقة قلبه وشهامته، لكن بسبب حنكته الحربية من دون أن يخدع ويحاور ويلاعب بالشطرنج. تغير المعتمد، تغير حبيبي، شابَ شعره في شهور قليلة، وأصبح أكبر حزنًا وهمًّا وأقل شِعرًا. أصابته اليقظة المؤلمة بعد فَقْد ابن عمَّار، أصبح أيضًا يأخذ قراراته بطريقة مختلفة، يتشاور مع الجميع، ويسأل أهل العلم والدين والخبرة، ثم يقول كلمته.

في حواره معنا أنا والرشيد، تفاجأت أنه أرسل إلى ابن تاشفين ملك المغاربة الذي أخذها من أصحابها بالحروب وأقام عليها دولته، ليأتي بجيوشه إلى الأندلس، ويحمينا نحن وبقية الممالك من بطش الأذفونش وغاراته وترويعه وقتله للمسلمين. لم أفهم سر سعادة المعتمد بعدها، وقد ذكرته بأن أباه المعتضد كان يحذره منهم، ويرفض دخولهم الأندلس، ويحد من وجودهم في الجزيرة،

وحذره الرشيد أنهم إذا رأوا نعيم الأندلس لن يتركوه لخشونة الصحراء، لكنه نشوان بقراره، ويشعر بأنه بهذا يصحح أخطاءه، ويستعيد عمره الذي أفناه في مصاحبة ابن عمَّار ووثوقه به، وأن هذا اعتذاره عن طليطلة.

عندما ضيَّق عليه الرشيد الخناق وهو يحذره سوء العاقبة لدخول رعاة الجمال إلى أرضنا، وأن الغمد لا يصلح لسيفين، رد المعتمد:

- لن أدع قائلًا يقول إن ابن عبَّاد أضاع ملك الأندلس، وإن رعي الجمال عندي خير من رعي الخنازير.

الآن أنا خائفة عليه، وعلى المأمون في قرطبة، والراضي في الجزيرة الخضراء، وعلى سلسلة أبنائي، لا شيء يغنيني عنهم، وكنت أتمنى لو أننا أسرة عادية في بلد آمن نسعد بصحبة بعضنا وكفى.

* * *

يمر بي محمد فلا ينظر إليَّ نظرته القديمة التي لطالما نهلت من عذوبتها، ولا ينظر إليَّ نظرته الجادة والأخرى المطمئنة، حتى نظرته الشاردة التي أصبحت أتلقاها منه كلما رأيته لم تكن هي. كان ينظر إليَّ برجاء، كأنه يريدني أن أصغي إلى صمته، وكنت أصغي، وعرفت بقلبي أنه يريد أن يبوح بشيء عصي لكنه يأبى. أصبح يرفض أن يوجهه أحد، مثل الشاب الذي ينضج فجأة ويتمرد على المقربين منه، وقد أنضجه موت صديقه الخائن، وما تكشَّف له بعد ذلك من أنه كان يوجهه. ثارت نخوته وأنبه ضميره بعد أن أدرك خطأ سياسته، لكنه الآن يريد أن أعرف ما لا يخبرني به.

لقد أمر الراضي بتسليم الجزيرة الخضراء لابن تاشفين والذهاب إلى رندة، هذا ما عرفته من المخلصين في القصر، وهذا ما باح لي به كأمر عابر وهو يعرف مقدار خوفي وقلقي من المرابطين. لقد اجتمع بملوك الطوائف في قرطبة ووافقوا على أن يستعين به، لكنهم ليسوا مثل المعتمد صاحب الرقعة الأكبر والقلب الأرق. الغريب أنه حزم عدته للقاء ابن تاشفين على مقربة من الجزيرة بدلًا من أن يستقبله في قصره كملك، وعندما عاد قال:

- لقد تواصينا بالصبر والرحمة.

فعلًا! لقد خُذل المعتمد من ابن عمَّار وقبله من الأذفونش، وها هو ذا يستمر في تصديق الوعود، وها هو ذا ينظر إليَّ كأنه يريدني أن أقرأه وأشاركه برأيي فيما لا أعلمه، لكنني أصمت وأمنحه موافقتي بالنظرة واللمسة والهمسات الحارة على الرغم من القلق والخوف.

* * *

لطالما شعرت بأن المعتمد أبي ليس فقط زوجي وحبيبي، لكنني في اللحظة التي اعترف لي بها أنه سيغادر صباحًا لمحاربة الأذفونش مع جيشه وجيش ابن تاشفين شعرت بأنني أمه. وأنني أخاف

عليه مثل خوفي على أولادي الذين نثرهم في البلاد. لم أرِده أن يرحل، وتمنيت كثيرًا أن يحدث أي شيء يغير مجرى الأحداث، ويعود إليَّ المعتمد من دون حرب. في كل سنواتي في الأندلس لم أشهد حربًا بمعناها الكبير كصراع بين عدوَّين غريبين، كانت دائمًا الحروب التي شهدتها وأنا مع المعتمد تقوم بين ملوك الأندلس وبعضهم، تحدث على نطاق ضيق بأعداد وخسائر قليلة وأساليب معروفة، أما هذه الحرب فكأنها الهلاك القادم، وليس لها رأسان بل ثلاثة رؤوس.

لعدة أيام لم أبرح جناحنا، كنت أنام في مكان محمد وفي حضني صغيرنا أبو هاشم الذي تركه أبوه رضيعًا، أشتمُّ دفء عطره من الفراش لأشعر بالأمان. تذكرت ابن الحسن ودعاءه وورعه، فحاولت أن أقلده وأطيل في صلواتي وأنا أدعو وأبتهل إلى اللـه. انتظرت الأخبار بضجر أكبر من الخوف، وباعتراض أكبر من التسليم، أصبحت تأتيني بالتقطير. عرفت أن المعتمد وملوك غرناطة وسرقسطة وبلنسية يجتمعون في الجهة الغربية من الأندلس، وأن جيوش الإسبان التي تعدت الستين ألف مقاتل، وهو ضعف عدد مقاتلي الأندلس والمرابطين معًا، اجتمعت من الجلالقة وقشتالة وليون وأشتوريس، تتجه لملاقاتهم من طليطلة، ثم عرفت أن المعتمد آخذ في التطوف في الأرجاء والمحال، وأنه من يرشد الجيوش ويبث العيون والأرصاد، لأنه الوحيد العالِم بمكر ودهاء الأذفونش. لكن أطرف ما سمعته أن المعتمد كتب شعرًا في أبي هاشم. بعدها بأيام بلغني أن المعركة بدأت صبيحة يوم الثاني عشر من رجب سنة تسعة وسبعين وأربعمائة، إذ أرسل الأذفونش رسالة إلى المعتمد يقول فيها: «غدًا يوم الجمعة وهو عيدكم وبعده الأحد عيدنا، فليكن لقاؤنا بينهما وهو يوم السبت».

فعرف المعتمد وأخبر جيشه وابن تاشفين وجيش الصحراويين بأن هذه خدعة من الأذفونش، وأنهم يجب أن يكونوا على استعداد له طوال يوم الجمعة. وبالفعل تصدى لمكره وكانوا على أهبة الاستعداد.

ما عرفته بعد ذلك مزق قلبي، لقد اختاره ابن تاشفين ليكون في مقدمة الجيوش، اختار له الفرصة الأكبر للقتل وهو يعلم أن المعتمد استنجد به، لأنه لن يستطيع أن يواجه جيوش الإسبان الضخمة وحده. قيل لي إن الجيوش غشيته، وإنه حارب باستبسال وسقط عدة مرات، وإن المرابطين أتوا إليه بعد ساعات من القتال وشدة البلاء، وإنه ضُرِب على رأسه ضربة وصلت إلى صدغيه، وجرحت يده اليمنى وطعن في جانبه، وإنه عُقرت من تحته ثلاثة أفراس، وإنه صبر صبرًا لم يُعهد مثله لأحد.

لكن من أخبرني لم يزِد على ذلك فيما يخص المعتمد، كأنه ظن أنني أريد أن أعرف خبرًا عن نتيجة الحرب، وأنا واللـه ما سألته، ملعونة الحرب آلاف المرات، وملعون كل من دعا إليها وشجعها. أنا لا يعنيني إلا أن يعود المعتمد، بأي شكل وعلى أي هيئة ليظل معي ما بقي من

عمري، لأسقيه محبة أكبر وأبهى وأنسيه ويلات ما رأى، يعود وفقط، لا أريد أي شيء آخر في حياتي.

* * *

كنت أخشى أن يعود ناقصًا، لكنه عاد زائدًا بهزيمة الأذفونش في موقعة هي الأكبر في الأندلس، سموها «موقعة الزَّلاقة» لأنها وقعت هناك في سهل الزلاقة. هزم الملوك بقيادة ابن تاشفين والمعتمد وجيوشهما الإسبان وأصابوا مليكهم، ودمروا حصونهم حتى فروا جميعًا إلى طليطلة.

لكن لماذا لم يحرروا طليطلة؟ هذا هو السؤال الذي دار في ذهني، وحجبته عن المعتمد حتى لا أطفئ فرحته بالنصر. ما زال هذا السؤال يؤرقني، ويجعلني أخشى أن تكون طليطلة المحتلة من الأذفونش متروكة كذريعة لعودة ابن تاشفين مرة أخرى للحرب في الأندلس. إن زعيم المرابطين يخشى استغناء ملوك الأندلس عنه إن هو أطاح بالأذفونش. لم أفهم أيضًا لماذا منح المعتمد الجزيرة الخضراء للمرابطين ليقيموا فيها كل هذه الشهور بعد أن جعل ابننا الراضي يسلمها لهم، ثم يظن أنهم سيتركونها بهذه البساطة.

هؤلاء قوم أخشاهم بقدر ما يحترم المعتمد هبَّتهم لنصرة المسلمين، وتنظيمهم وقوتهم، وإدخالهم هذا الأمان ثانية إلى الأندلس، لكنه أيضًا مثلي، لا يخلو من سوء الظن، وبخاصة بعد أن رفض ابن تاشفين أن يلحق بفلول الأذفونش المهزوم ويقضي عليه، وقد اختلف هو وابن تاشفين في هذا الأمر لكنه انصاع لرأي شريكه في المعركة.

مضت الأيام الأولى من عودة المعتمد إلى إشبيلية في أفراح متتالية، يستقبل وفود المهنئين ممن يشيدون ببسالته وشعراء البلاط الذين ينشدون قصائد أعدوها لتهنئته. على الرغم من الجراح التي أثخنته ورأسه المتورم، لكنه بدا سعيدًا، حتى عندما أتى ابن تاشفين بالغ في استقباله وإهدائه الهدايا الثمينة، وكان رجلًا، كما سمعت، جافًّا قليل الكلام لا يعرف القراءة والكتابة. رفض الهدايا كما رفض غنائم الحرب. كان وجوده في إشبيلية بمثابة حاجز كبير بيني وبين المعتمد يمنعه من إظهار مشاعره. لقد عاد بجسده المصاب وروحه المرتفعة، لكن أشياء فيه انسحبت، لم يَعُد باشًّا مستبشرًا، ولم يَعُد له حسه السعيد وسريرته المطمئنة.

كل هذا لم يعنِ لي شيئًا والمعتمد في جناحي وفراشي وحضني.

بمجرد أن أصبحنا وحدنا رأيت في وجهه شيئًا من هذا الأمير الشاب الذي دخل عليَّ قديمًا، وهو موهوم ومهموم، وحكى لي أنها المرة الأولى التي يقتل فيها رجلًا. لكن هذه المرة لم يكن مهمومًا ولا شاردًا، وحكى لي كل الكلام الذي منعته أيام الحصار والخوف من أن يحكيه.

* * *

- هنا في هذا المكان الوحيد أستطيع أن أجلد ذاتي من دون أن يسألني أحد كيف تفعل هذا وأنت منتصر. أحد عشر يومًا في الصحراء ننتظر وثوب العدو. في تلك الليالي لم يتوقف فقهاء المرابطين عن تقويتنا بالآيات والدعاء، يحضون الرجال على الصبر ويحذرونهم الفرار، لكنني علمت أن بعض جنودنا سيفرون، لأنني أنا أيضًا كنت أقاوم هذه الرغبة، ليس خوفًا من الحروب، فقد خضت الكثير منها منذ عمر الثانية عشرة، لكن هربًا من آتٍ لا أعرف ما سيحمله لي وقد مكنت المرابطين من بلادي.

سألته:

- أما زلت لا تثق بهم؟

قال:

- بلى، ولكنني وثقت من قبل بولاء الأذفونش ثم بابن عمَّار.

ترقرقت دمعتان في عينيه فسألته:

- ولماذا تستقبلهم في القصر إذن استقبال الظافرين وتعاملهم بكل هذا الوفاء والكرم؟

قال:

- هناك لحظة لن يدركها إلا من خاض غمار هذه الحرب، لحظة تمنعني من أن أتحرى الصدق أو الخداع من وراء ابن تاشفين. إنها اللحظة التي ظهر فيها إلى جواري في أرض المعركة، وكنت قبلها محاطًا من كل جهة بجنود الأذفونش، سلطهم على قتلي أولًا كأنه بهذا يقتل الجيوش جميعًا، وتماسكت وثبتُّ بقوة من اللـه لا أعرف كيف غشيتني حتى هذه اللحظة وقد استحرَّ القتال وحمي، لكنني أردت أن أحيا لتحيا الجيوش جميعًا. في هذا الوقت يا اعتماد يكون ثمن حياتك شيئًا أكبر من رغبتك في الحياة والبيت والزوجة والأبناء، أكبر من القصور والمُلك وكل شعارات النصر. كان ثمن حياتي في نظري هو أن أخلص الأندلس من سطوة القشتاليين، وأن يذكر الناس لي هذا. الطعنات والجراح لم تزدني إلا إصرارًا على ما رأيته صوب عينَي من أنني أقوى ملوك الأندلس، الوحيد الذي يصرون على قتله ويصر على أن يحيا، حتى وافاني قادة ابن تاشفين، لحظتها شعرت كأن جراحي اندملت فجأة، وكأنني عدت بكامل قوتي في بداية المعركة. وحتى أتت اللحظة التي جعلتني أعاهد نفسي ألا أرتاب في ابن تاشفين، حين رأيته ابتسم لي لأول مرة ومنحني إشارة اطمئنان طافت بالهواء حولي حتى اخترقت أضلعي. رأيته بعدها يتحول إلى وحش في مواجهة جنود الأذفونش، ليس الوحش الذي ينقضُّ على خصمه بغدر، لكنه الذي يواجهه بمكر ودهاء وقوة ويقين حتى يقضي عليه في مكانه بلا هوادة. كان لديهم سلاح لم أرَه من قبل، سيوف كالمناجل المعقوفة، وقد هرب من تبقى من الجنود بعد أن صرعهم المرابطون بأسلحتهم وبأسهم، وعلمت أن الأذفونش أصيب في قدمه، وقد لا يستطيع السير بها ثانية.

قلت:

- ولماذا أشعر بك الآن مرتابًا؟

رد:

- لأنه منذ أن أتى إلى إشبيلية وقد تغيرت نظرته التي كانت عضدي في المعركة، تبدلت إلى شيء من السخط المكتوم، وها هو ذا يقابل الوفود من الكبراء والعامة، ولا أدري من منهم المخلص ومن المُفتري. والليلة استأذن للدخول عليَّ رجل بسيط من أهل البصائر، ولما مثُل بين يدَي وبعد الثناء والشكر، أخبرني بأنه وقع في أذنه من الناس أن أصحاب يوسف بن تاشفين بعد أن عاشوا في نعيم إشبيلية، وتمرغوا في جمال الأندلس، يرون في أنفسهم وفي مليكهم أنه أحق بهذه النعمة مني. أخبرني بألا آتمن يوسف، لأنه يطمح في ملكي، بل وفي ملك جزيرة الأندلس كلها، ثم نصحني بأن أقبض عليه حتى يأمر كل من بالجزيرة أن يعودوا من حيث جاءوا، وألا يبقى منهم أحد، وأن يتعهد بألا يعود إلى الأندلس إلا بطلب مني، فبذلك يعلم الجميع بحزمي وقوتي، وأكون قد استرحت من الأذفونش والمرابطين، ودفعت عن نفسي المحذور.

سألته وأنا أكتم سعادتي لأنني استصوبت رأي الرجل:

- وبماذا أجبته يا محمد؟

قال:

- قلت له ما كان المعتمد على اللـه - وهو أهل المكرمات - من يعامل بالحيف ويغدر بالضيف. ضيم مع وفاء خير من حزم مع جفاء.

* * *

لم أتوقع قَطُّ أن أرى عمر ثانية، هذه المرة مع المرابطين، لا أظن أن المعتمد يتذكره، لم تأتِ الفرصة لنتحدث، لكنه رآني وأنا أقف عند النافذة، ورأيته وهو رجل شائب الشعر مجعد الوجه، فعرفت أنني كبرت.

* * *

أصبح اسم ابن تاشفين على كل لسان، أحبه الناس ووجدوا فيه الملك الذي يتمنونه، فهو يميل إلى

إلغاء دفع الضرائب والمكوس، وهو كثير النصح والإرشاد، ويحكم بصحيح الدين وأحكامه. وفوق ذلك هو سبب الخلاص لمن يعانون الرومي، حيث إنه بعد الانتصار وعودته إلى بلاده توالت عدة هزائم، حتى المعتمد المرتاب فيه راح يكاتبه ويستجديه كل حين، كأن كل الأشياء تؤدي إلى ابن تاشفين.

بعد مرور سنوات على موقعة الزلاقة، ما زلنا ندفع الجزية للأذفونش من ناحية، ومن الناحية الأخرى نهادن المرابطين ونقدم لهم فروض ولائنا. صحيح أن المعتمد رفض أن يزيد جزية هذا، ورفض أن ينصاع لذاك، لكنه أصبح دائم الصمت والترقب، وحتى جلسات الشعر وأمسيات الغناء لم تَعُد كما كانت. أحيانًا أدفعه دفعًا ليعود إلى سنوات اللهو حتى تعود إلى قلبه ابتسامته، لكنه يأبى بلطف. شيئان لم يغيرهما في سلوكه، حبه للشِّعر ولي.

* * *

أريد أن أغمض عينَي وأستيقظ من هذا الكابوس، أريد أن أعود صغيرة تلعب في حارة، أو حبيبة تنتظر حبيبها في شرفة، أو زوجة تقف أمام الموقد تطهو الطعام، أو أمًّا تلم أبناءها في حضنها آخر الليل في كوخ صغير، أريد أن أكون شجرة أو قطة أو حتى قطعة حجر، أي شيء إلا ملكة.

العرب سيأكلون العرب، ولم تَعُد الأندلس مطمعًا لحكامها فقط، أهذا ما تفعله الفرقة؟ أكان المعتمد على حق حين سمح بدخول المرابطين بينهم؟ أكان على حق حين لم يثق باتحاد ملوك الأندلس بعد تفريطهم في طليطلة، ولم يثق بقوتهم إن اتحدوا؟ هل كان الضعيف للضعيف أفضل من حضور القوي؟ هل خانته ظنونه عندما قال إن رعي الجمال خير من رعي الخنازير؟ إنه الآن خائف ومتخبط، إنهم يرفضون أن ندفع الجزية، ويرفضون ضرائبنا وقصورنا وحياتنا، يدَّعون الزهد أم يعتنقونه! وهل الزاهد يطمع في أرض غيره؟

إنني بحاجة إلى تفسير رجال الدين لما يحدث، ليت ابن الحسن هنا ليشرح لي كيف يحارب المسلمون العارفون باللـه مسلمين أضعف ويستولون على ملكهم؟ أبهذا يأمرنا الدين؟ المرابطون حطوا على أرضنا، ويحاصرون غرناطة وقرطبة ومرسية، وإن إشبيلية ستكون محطتهم الأخيرة. سيأتي دورنا ونحن في انتظاره، وما زال سؤالي بلا إجابة، لماذا لا يحررون طليطلة من الروم؟ هل قتْل العرب والاستيلاء على مدنهم خير من قتل الخنازير؟

المأمون والراضي والمؤيد في خطر، وقد استودعتهم اللـه هم وكل أبنائي ونفسي ومَلكي.

١٥

في يوم غابر ونسيم الحرائق يغطي كل شيء، والدماء منثورة على الطرقات، والقلوب مدفونة في الصدور خوفًا، والجموع تفرقت لتنجو، والأسر التحمت لتموت ميتة واحدة، والقصر يعلو فيه صراخ القهر وينضح الذل من أركانه، دخل أحد الحراس على المعتمد واعتماد، وأبلغهما بأن المرابطين اقتحموا القصر، وعليهما أن ينجوا بنفسيهما في أسرع وقت. وبينما اعتماد تقاوم الانهيار وتبحث عن نطفة فكرة، رأت المعتمد وقد أمسك سيفه وقال:

- السلطان إما في القصر وإما في القبر.

ثم خرج يحاربهم بضراوة أسد مجروح وعليه غلالة النوم الخفيفة.

هرب العسكر والجنود، ولم يبقَ إلا عدد قليل منهم، فحسم الرشيد الأمر عندما رأى أباه يصارع في الهواء قوة لا يراها ولا يمكن إلا أن تطرحه أرضًا، صرخ:

- نفدي أنفسنا ونساءنا.

ثم همس إلى أبيه:

- لو انتصروا علينا لسبوا نساءنا.

تراقب اعتماد ما يحدث في ساحة القصر من جانب الشرفة الداخلية المطلة عليه، تسمع جنديًّا من المرابطين وهو يقول للمعتمد:

- تُسلم نفسك وأهلك وتكتب لأبنائك بأن يسلموا مدنهم لجنودنا ونعطيك الأمان.

يومئ المعتمد مستسلمًا، فيضعوا القيود في يديه ويدَي الرشيد، لم يتبقَّ من أهله في القصر إلا اعتماد وأبناؤها بعد أن عادت زوجتاه السابقتان إلى أهاليهما.

يعلو صوت نحيب الخدم ومن تبقى من الجنود، ثم يتشوش المشهد من دموع اعتماد. وفي اللحظة التي أخذوا فيها المعتمد والرشيد إلى الخارج، هجم العامة من بوابة القصر إلى داخله ينهبون كل شيء. غزو المرابطين كان في الحسبان، ما لم يكن في الحسبان هو أنهم فتحوا القصر للعامة، الخطر أصبح خطرين. لمت اعتماد عيالها في لمح البصر، تنفذ تعليمات المعتمد التي كررها عليها مرارًا، تسير مع البنات في صف واحد ومعهن الصغير أبو هاشم الذي لم يكمل عامه السادس. يخرجون من أبواب داخلية لا يعرفها غيرهم، وهم يسمعون الصراخ وضجيج التكسير وجلبة النهب، حتى يصلوا إلى حديقة القصر حيث ينتظرهم المرابطون ليجمعوهم بالمعتمد والرشيد. يقول المعتمد للجنود لحظة اقتيادهم إلى خارج القصر:

- لن أغادر حتى تأتوا بالمأمون والمؤيد والراضي... إنه العهد.

نادى أحد جنوده المقبوض عليهم:

- يا أبا القاسم لقد كنت في طريقي إليك لأبلغك أنهم قتلوا المأمون والراضي.

تسمع اعتماد الخبر الذي تعرفه جيدًا، تسمعه وهي تسمع المعتمد يردد في خلفية عقلها: «ليس لكم عهد...». تشفق عليه وتتجلد من أجله، تبتلع صراخها فتشعر بأنها سيغشى عليها، ترى شيئًا يهبط فيها، كأن الدماء تنزل من جسدها إلى الأرض من دون نزف. تنظر إلى أعين من حولها ولا ترى شيئًا، ثم تتلاقى عيناها مع عينَي المعتمد وهو يبكي، فتقف وتذهب إليه بجسد خاوٍ وتضمه.

يمضي وقت لا يتحدث فيه إلا المرابطون والرشيد، بينما الجميع يموت ببطء. المعتمد يتقوى بهم واعتماد تتقوى لأجله، تنفض عن نفسها غبار القهر، وتتواصل معهم بالنظرات الضائعة والربتات الحانية، بينما جسدها يرتعش وصدرها يعلو وينخفض من أثر الشهقات المكتومة. يسيرون بين جموع الناس بعضهم يناديهم والبعض يدعون لهم، آخرون يصرخون: «ربط الله على قلبك يا أبا القاسم». لا تفهم، إذا كانوا يحبونه كل هذا الحب وينتحبون لأجله، فلماذا شكوه للمرابطين واستنجدوا بهم كما سمعت؟ هناك خطأ ما.

عندما وصلوا إلى النهر عادت إلى ذاكرتها بنت في الخامسة عشرة تنتظر مع أهلها على الرصيف رحلة الضياع الأولى، مصابة بالحُمَّى تهذي فوق سفينة كبيرة، ولا تتذكر كيف وجدت نفسها أسيرة بعد أن كانت حرة، وبين اللحظتين دائمًا هناك خطأ ما لا تفهمه. والآن تُقاد إلى سفينة أخرى في رحلة الضياع الأخيرة، وبين الرحلتين ثمة أهل ضاعوا وأبناء ماتوا، لكن بعد الرحلة الأولى كان هناك أمل، وكان هناك وقت لصناعة أهل من جديد، أما الآن فالوقت انتهى والأمل ضاع.

حدثت حالة أخرى من الهرج والمرج عندما حاول الناس أن يودعوا المعتمد بطرق مختلفة أثارت شغبًا وتفريقًا بين الأسرى والجنود. كانوا يلقون عليه الزرع والورد، البعض يجذبه محاولًا لمسه، وآخرون يملأون الدنيا صراخًا وعويلًا محاولين تخليصه. لكن سرعان ما استعاد الجنود الجمع مرة أخرى بعد أن ضربوا الناس ونهروهم، واصطفت الأسرة ثانية في طريقهم لصعود السفينة. في لحظة ترك الأرض التفت المعتمد إلى إشبيلية يلقي نظرة أخيرة والدموع تحرق عينيه وقلبه. والتفتت اعتماد إلى أبنائها لتتمم عليهم، اتسعت عيناها من هول الصدمة وصرخت باكية لكن لم ينتبه لها أحد، حتى المعتمد الذي شاركها الصراخ بعدها لم يستمع إليه أحد، واقتيد الجميع إلى السفينة، كانت هذه هي اللحظة التي أدركوا أنهم ناقصون، وأنهم أضاعوا واحدة منهم، أضاعوني أنا.

من إشبيلية إلى أغمات

٤٨٨ هجريًّا

١

مَنْ يَصحَبِ الدَّهرَ لَم يَعدَم تقلُّبَه

والشَّوكُ يَنبُتُ فِيهِ الوَردُ والآسُ

يَمرُّ حِينًا وتَحلُو لي حَوادِثُهُ

فَقَلَّمَا جَرحَت إلَّا انثَنَت تَاسُو

تغمض عينيها قليلًا حتى تستطيع أن ترى الحجر الصغير الذي ميزت به هذه البقعة من الأرض، لكن التراب كثيف والحجر بلونه، والبيوت بلونه وحتى السماء بلونه، وعيناها لا تسعفانها. تنزل على ركبتيها وتتحسس الأرض، تشقق كفيها لا يسمح للشعور بأن ينفذ. بصعوبة تجد الحجر فتزيحه جانبًا، تنبش بأصابعها ثم تضع في بطن الأرض سنًّا أخرى من أسنانها وتهيل عليها التراب، ثم تعيد الحجر إلى موضعه. تنظر إلى الجروح الجديدة على يديها ولا تبالي، فهي ليست بأفضل حالًا من جروح قدميها الحافيتين. لقد مضت أربع سنوات وقد أصبح الحزن قديمًا، لكنه لا يزال حيًّا، متواريًا بعيدًا عن الأعين، مدفونًا تحت التراب.

كانت لوجهها الأبيض ظلال داكنة أسفل عينيها، عيناها ضيقتان تضحكان، ولها ثغر يفتر عن أسنان صغيرة غير متساوية، وكان شعرها الأسود دائمًا على هيئة ضفيرتين، إما تبقيهما متفرقتين، وإما تجمعهما في ضفيرة واحدة مطلقة على ظهرها. وعندما تطهو أو تنظف أو تستعد للخروج تثبتهما فوق رأسها بطريقة جميلة، لماذا تذكر أمها الآن؟ حتى بعد أن وصلت إلى الثانية والخمسين ما زالت تستعيد ملامح أمها، تفكر كيف كانت ستبدو الآن وهي عجوز، هل زاد وزنها، أم أنها نحفت وجفت مثل ابنتها؟

تشعر بشيء من الأنانية عندما تأتي بنتاها وهي جالسة في الساحة على سلمة بعضها مهدم، لقد فكرت في أمها وكان يجب أن تفكر فيهما، لكنها تعبت من التفكير فيهما، وكانت تحتاج إلى هذه الراحة وهذه الابتسامة التي تمنحها لها الذكريات. تنظر إلى البنتين في الأثمال الرثة، وهما حافيتان عابستان مطمورتان في التراب. إن جل ما تستطيع تقديمه لهما هو أن تحثهما على مواصلة العمل في الغزل وبيعه، ربما يلهيهما العمل والتعامل مع الناس، ربما يساعدهما على التخطي أو يمنحهما فرصة للهروب. أما هي فاكتفت بالمكوث في الساحة الغابرة تخدم أسرتها وتواسيها، وتمنح هذا الرجل الحب في محنته، حتى وإن كان على شكل تلبية نداءاته التي لا تنقطع.

في السنة الأولى كانت نساء الجيران يزرنها من باب الفضول، وكانت لا تمنحهن أكثر من صمتها، تشعر بأنهن يرينَها كما يرى الغريب قطعة من أثر، جميلة وأصيلة، لكنها متهالكة، ينبهر بأثر الزمن فيها ثم يتركها وهو يترحم عليها، لذلك صمتت واصطنعت الجفوة إلى أن توقفن عن

الزيارات ما عدا عدة نساء. ارتاحت سريرتها لواحدة منهن، أصبحت بعد عامين ترد عليها، وتتبادل معها حديثًا قصيرًا على مضض، ربما حتى لا تنسى صوتها المحايد الذي تمنحه للغرباء. بينها وبين الناس جدار شفاف يحميها، ويجعلها غير موجودة عند الحاجة.

لكنها على الأقل دخلت من باب العزلة مرة واحدة. أما المعتمد فيعيش العزلة بالطريقة الأسوأ والأصعب. يأتيه الضيوف كل حين، يتحدثون عن الزمن الغابر وعن الحاضر المؤسف، ثم يمنحونه الحياة حين يستمعون إلى شِعره، ويلقون عليه أشعارهم. تأوهاتهم النشوانة على كلماته صادقة أكثر من كل مجالس الأنس في الأندلس، فمن ذا الذي ينتظر منه شيئًا وهو مُنحني الظهر رث اللحية والشعر، وثيابه لا تكاد تظهر ألوانها من البهات والتراب! ومع ذلك كان يمنحهم أشياء، إنه يحيا بالمنح، يمنحهم هدية أُهديت إليه، بعض ما تحصل عليه من بيع، حتى أشيائه الصغيرة التي بقيت معه من الأندلس، ثم يتركونه، فيواجه العزلة كمثل أول مرة. حياته أصبحت بدايات متجددة لمآسي العزلة.

وعلى الرغم من تعاسته البادية في عينيه وحركته البطيئة بسبب قيد قدميه، وعلى الرغم من أفوله وهزاله، فإنه قد بقيت فيه بعض الطفولة. فما زال يضحك حين تشاكسه اعتماد، ويتهلل حين يسمع أخبارًا عن عبد الجبار ابنه من زوجته الثالثة، الذي فشل المرابطون في القبض عليه. وكان عبد الجبار يقوم بثورات لا تنتهي، حتى إنه حصل على أحد الحصون بمساعدة جيش صغير يعاونه، لكنه عاد واختفى بعد ذلك عندما هاجم حصنه المرابطون بعدد يفوق جيشه. يجلس المعتمد على مقعد خشبي بلا فرش بالقرب من باب بيتهم المعدم وبالقرب من سجَّانه، يراقب الطريق في انتظار من يحكي له شيئًا، أي شيء يروِّح عنه، بعد أن نضبت حكايات اعتماد.

أما اعتماد فتتوارى بالداخل لا تريد أن ترى أحدًا، تسير ببطء بقدمها التي عاد إليها عرجها وجسدها الذي عادت إليه نحافته وصلابته. تجلس ساعات وقد توقفت عن التريض والتأمل. وفي هذا النهار بعد أن دفنت سنَّها، وطحنت الشعير للغداء، ونظفت المكان الذي لا ينظف بمقشة بائسة، نظرت إلى المعتمد الذي كان يراقبها وهي تمشط الأرض وقالت باسمة:

- لقد هُنَّا هنا.

فابتسم وهمس إليها:

- أتجيزين؟

- تلميذة الملك الشاعر.

زادت ابتسامته وقال:

قَالَت لَقَد هُنَّا هُنَا مَولَاي أينَ جَاهُنَا

لا الأَسر ولا الذل ولا فقْد الأبناء والمُلك والوطن والأصدقاء استطاعت أن تمنع المعتمد عن إجازة الشعر، لا تخذله قريحته الخصبة وبديهته مهما كان. تقول اعتماد لنفسها إن هذا شاعر حقيقي، أما هي فتوقفت قبل زمن عن الكتابة، لكن حتى أشعاره تغيرت، أصبح ينظم شعرًا ملتاعًا يفضي إليه بمواجعه وهوانه وتجلُّده وصبره. كان يتفكر في الموت والحياة بنظم القصائد الشجية، وكانت تستمع إليه بقلب خاوٍ، فلم يَعُد يؤثر فيها شيء بعد أربع سنين عجاف. الأمر الوحيد الذي يؤثر فيها هو رؤية عيالها الذين نشأوا في ظلال النعيم وهم يغزلون من أجل قوتهم. إن ذكرياتها هي السبيل الوحيد لنجاة عقلها وثباتها. مؤلم أن تحن إلى شيء لا تذكره وتنكر ما تتذكر كل لحظة فيه. ذكريات أيام النعيم كانت تحاوطها وتصر عليها مهما طردتها، النعيم والموت.

بينما المعتمد في فراشه، وقد اعتاد أن ينام بشكل مستقيم مرغمًا بسبب قيوده. أتى لزيارته بعض الضيوف، فرحبت بهم اعتماد، ولم تتذكرهم أو لم تحاول تذكرهم كعادتها في كل ما يخص الأندلس. جلست في ساحة البيت ترهف السمع لأحاديث التحسر المغلفة بالمودة، فإذا بأحد الضيوف يدخل البيت من دون أن يطرق الباب لأنه كان مفتوحًا، لكن هذه المرة لم تخُن اعتماد ذاكرتها، عرفته على الفور، قالت:

- عمر!

كان عمر الضيف الثاني ضمن ثلاثة ضيوف قلبت زيارتهم حياة اعتماد منذ الأَسر.

٢

رجل مفتول العضلات بذقن غزاه الشيب، وقد غطى رأسه وجسده بثياب المرابطين القاتمة الخالية من أي ألوان أو بهرجة. بعد تحية مرتبكة ونظرة حزينة على ما آل إليه مظهرها، قال لها عمر:

- أتيت لأكرر عرضي الذي عرضته عليكِ قبل أربع سنوات.

ردت عليه:

- وهل تغير شيء؟

- تركتكِ لتجربي شظف المعيشة كما تريدين، لكنني لا أريدكِ أن تموتي مع هذا الخائن.

صرخت بصوت منخفض، وقد استجمعت بقايا من قوتها:

- لا تنطق عنه حرفًا واحدًا، وكفاه ما رأى من قومك.

قال:

- أتستبدلين الذي هو أدنى بالذي هو خير؟

ردت:

- بل هو الرجل الذي أستبدله بعمري.

قال:

- سيعيش كما هو لكن من دونك. أريد أن أنقذك، وأعرف أنك لا تشبهين هذه العائلة العَبَّادية.

قالت:

- تنقذني ممَّن؟ من زوجي وأبنائي؟ أم من قدري؟

قال مُصرًّا:

- بل من نفسك. تعالي لتطيبي وتصبحي بحال أفضل، ثم يمكنك أن تعاودي زيارتهم.

ردت:

- وهل سيطيبون معي؟ لا والله لا أتركه في البؤس كما لم أتركه في النعيم.

قال:

- أحيانًا يكون الإخلاص حماقة.

ردت:

- هكذا يريد بعض الناس أن يشككوا غيرهم في الفضائل، ويجعلوا من الخير والخلق سمات موصومة بالغباء أو الضعف، أو كأنها صفات خارقة، على الرغم من أنها عادية وأغلب الخلق يتصفون بها.

ثم أكملت:

- الحماقة الحقيقية هي حديثك ووجودك هنا.

تمتم:

- إذن لا أمل!

قالت متنهدة:

- ماذا تريد من امرأة تعدت الخمسين وقد أكل الحزن قلبها؟

قال:

- كنتِ فتاة ساذجة عندما رأيتكِ لأول مرة، مقبلة على الحياة ببراءة. كنتِ أول بنت أراها ذكية وحرة، ومنذ أن أصبحت مع المعتمد الذي أعلم ما به ولن أسميه من أجلك، وأنا أشعر بأن عليَّ أن أعيدكِ إلى هذه البنت بعيدًا عن كل هذا الزيف والمغالاة والتساهل الذي كنت تعيشين فيه، وحتى هذه اللحظة أريد أن أنقذك.

قالت وقد بدآ يسمعان جلبة الجمع عند المعتمد في الخروج:

- حسنًا، هيَّا أنقذ نفسك!

لكن عمر لم يخرج من البيت كما توقعت أن يفعل. نادى أحد الحراس الذي أتى وفي يده قيد جديد، وأمره أن يضعه في قدم المعتمد. سألت اعتماد في غمرة الفجيعة:

- لماذا؟ ألم تروا القيود القديمة وقد التوت على قدميه؟

فلم يرد أحد، لكن المعتمد عرف، ورد مبتسمًا:

- ولما زأر الشبل خيفت سَورة الأسد.

ففهمت أنه يقصد ثورة ولده عبد الجبار.

غادر عمر من فوره وتبعه الضيوف وهم يحوقلون ويستغفرون، فنظر المعتمد إلى اعتماد التي تمسك بصدرها وقد بدا أنها تحاول كبح ألم عظيم، وأبو هاشم الذي يبكي عند قدمَي أبيه، ثم قال:

قَيدِي أمَا تَعلَمني مُسلِما أبَيتَ أن تُشفِقَ أو تَرحَما

دَمي شَرَابٌ لَكَ واللَّحمُ قَد أكلتَه لا تَهشِمِ الأعظُما

يُبصِرُني فِيكَ أبو هَاشِمٍ فَيَنثَني والقَلبُ قَد هُشِّما

ارحَم طُفَيلًا طَائِشًا لُبُّهُ لَم يَخشَ أنْ يَأتِيكَ مُستَرحِما

٣

منذ العام الأول أدركت اعتماد أنه لا مطر هنا، ولا ربيع ولا زهور، لا يوجد إلا اللون البرتقالي الذي يسحب في ذيله الليل والنهار. بعد النهار لا يأتي خمول، وبعد الليل لا يأتي انتعاش. الجهد والتراخي أخوان، لا تأتي بعدهما راحة، وحتى بعد رمضان لم يأتِ العيد على بيت ابن عبَّاد.

لم تذهب البنتان إلى السوق لبيع الغزل، جلستا حول فراش أبيهما، تحاولان إظهار شيء من لطافة الأعياد من دون جدوى. أما أبو هاشم فكان مثل أبيه، صبي رقيق جسده هزيل، وعيناه تضحكان وهو يسرد المواقف المضحكة التي تقابله في أثناء يومه. ينظر إليه أبواه متحسرين، يدركان أنه حتى الصغير يتحمل مسؤولية أن يعبر بهما من فوق البؤس والشقاء. قال المعتمد الذي أصبح لا يتكلم إلا شعرًا:

فِيمَا مَضَى كُنتَ بالأعيَادِ مَسرُورا

فَسَاءكَ العِيدُ في أغمَاتَ مَأسُورا

تَرى بَناتِكَ في الأطمَارِ جَائِعَةً

يَغزِلنَ للنَّاسِ مَا يَملِكنَ قِطمِيرا

بَرَزنَ نَحوَكَ لِلتَّسلِيمِ خَاشِعَةً

أبصَارُهنَّ حَسِيرَاتٍ مَكَاسِيرا

يَطَأنَ في الطِّينِ والأقدَامُ حَافِيَةٌ

كَأنَّها لَم تَطَأ مِسكًا وكَافُورا

لَا خَدَّ إلَّا تَشَكَّى الجَدبَ ظَاهِرُه

ولَيسَ إلَّا مَعَ الأنفَاسِ مَمطُورا

أفطَرتَ في العِيدِ لَا عَادَت إسَاءتُهُ

فكَانَ فِطرُكَ للأكبَادِ تَفطِيرا

قَد كَانَ دَهرُكَ إنْ تَأمُره مُمتثِلًا

فَرَدَّكَ الدَّهرُ مَنهيًّا ومأمُورا

مَن بَاتَ بَعدَكَ في مُلكٍ يُسرُّ بِهِ

فإنَّمَا بَاتَ بالأحلَامِ مَغرُورا

دق الباب فإذا برسول من إشبيلية، كان هذا هو الضيف الذي أثَّر في حياة اعتماد في العام الأول من الأسر، عرفوه قبل أن يقدم نفسه، من لهجته الإشبيلية ومن ثيابه النظيفة المنشاة الملونة. رحب به المعتمد كعادته وهو على الفراش مقيد القدمين، وجلس الرجل قبالته يحكي عن أخبار المرابطين في إشبيلية، قائلًا:

- أما عن المرابطين فهم ليسوا سواء، وكان الناس يظنونهم كلهم ابن تاشفين، لكنهم ما إن تمكنوا حتى أظهر كثير منهم الطمع في دور وأموال الأندلسيين. صحيح أنهم منعوا الضرائب، لكنهم يتقاسمون الضيع مع أصحابها، ويأخذون ما زاد على حاجة صاحبه، ومنهم من يحدد الحاجة حسب عيشتهم الضيقة في البدو والصحراء. إنهم لا يقدرون طباع الأندلسيين، فيمنعون الشعر والغناء والأمسيات، ويفرضون دروس العلم والدين، لا يتركونها أمرًا اختياريًّا كعهدنا بها، حتى الثياب منعوا صناعتها بالألوان والذهب والتطريز على النسق الذي اعتدناه واخترناه، لقد كره الناس جفاءهم، وبدأوا يتذمرون ويترحمون على أيام مليكهم المعتمد على الله.

رد المعتمد الذي استحسن الحديث:

- كل هذا بعد شهور قليلة! يا الله! ما أوفى الأندلسيون إلى مذهبهم!

ثم عاد يسأل:

- لكن كيف يهجونني عند ابن تاشفين والآن يترحمون على أيامي؟

قال الرجل:

- إن الناس يبكونك يا سيدي من يوم رحيلك، ومن هَجَوك كانوا قلة، الرجل لا سامحه الله كان يخترع الأسباب ليغزو الأندلس. لكنني اليوم أتيتك بما قد يسعد قلبك ويريحه بعض الشيء.

ثم نظر اتجاه اعتماد وقال:

- وسيدتي أيضًا.

اقتربت اعتماد على إثر حديث الرجل الذي أخرج صحيفة من جيب عباءته وقال:

٤

إن لي نصيبًا من حياة أمي، وإن حياتي لهي مزيج من رهافة قلب أبي الذي هو أمير بالفطرة، ومن جموح أمي وضياعها حتى وهي السيدة الكبرى. في إحدى الليالي الأخيرة بقصرنا في إشبيلية رأيتها وكانت قد اتخذت قرارها. خرجت من باب خلفي للقصر إلى الحديقة الخلفية المظلمة، وهي لا تعلم أنني أقابل حبيبًا سريًّا لي هناك كان قد غادر لتوه. كانت تخفي وجهها بطرحة سوداء من الحرير، وعندما هب النسيم البارد على وجهها وقفت لثوانٍ تستعيد ماضيها المضني وحاضرها الكريم على الرغم من هشاشته. ارتجفت ربما من برد لكنها لم تبالِ، وانطلقت بخفة بين أرجاء الحديقة حتى وصلت إلى شجرة السرو العتيقة.

راقبتها من خلف شجرة سرو أصبى من شجرتها وعلى ضوء هارب أتى من جانب القصر، خمشت الأرض لتجد حفرة بدا أنها تعرفها جيدًا، أخرجت دفاتر قليلة من الأغلفة القاسية المنقوشة بماء الذهب وبعض الأوراق المفردة، الحديثة منها والمهترئة. نظرَت بسرعة إلى ما سودته يدها في الدفاتر والأوراق، أخفتها جميعًا في ثوبها، لكنها لسبب ما أفلتت دفترًا واحدًا في الحفرة وردمت عليه، ثم أخذت البقية في جعبتها، وأسرعت إلى خارج القصر الذي تحفظ منافذه مثلما تحفظ ملامح وجهها.

تبعتها وهي تجلس بقرب الشاطئ، وعيناها تلمعان بألسنة من لهب، ربما كان قلبها يتلوى في صدرها كأنه يُشوى على مهل. وقفت تطالع النار التي أشعلتها في أشعارها، تحاول عبثًا أن تخرج نفسها من المشهد كأنه لا يخصها، لكن رغمًا عنها عقلها لم يتوقف عن التفكير. لحظات تقييم القرار في أثناء تنفيذه هي الأتعس على الإطلاق، كيف تقيم جدوى رمية السهم وهو في الهواء بعد أن أطلقته بكامل إرادتك؟

عادت إلى مخدعها في القصر وهي تشعر بأنها في أمان بعد أن تخلت عن هذا الجانب من حياتها، لقد اقترفت ذنب إلغاء نفسها بكل سكينة ووقار، ودفنت جزءًا من روحها من دون دمعة واحدة. ولهذا السبب، لأنها تحاول طمس وجودها، ولا تريد للعامة ولا للتاريخ أن يذكروا كتبها وأشعارها، من أجل أن يظل التاريخ هو المعتمد، والذكرى هي المعتمد، والشعر هو المعتمد، والحكاية هي المعتمد، من أجل ذلك عدت إلى الحفرة في الليلة التالية، والتقطت الدفتر الذي أفلتته يداها ورأيته واحتفظت به، وكتبت منه وزدت عليه حكاية أمي.

الدفتر لم يكن أشعارها، كان بعضًا من خواطرها منذ أن أتت إلى الأندلس، ولم يكن وحده هو

وذكرياتي عمادي في الكتابة عنها، استعنت كذلك بإخوتي ممَّن عانَوا الأَسر عندما أتيح لي أن أراهم بعد سنوات طوال. واستعنت أيضًا بقمر، بنت بلادها وصديقتها الأقرب وجاريتنا في وقت مضى. وجدتها في إشبيلية أو إنها وجدتني، حكت لي عن هروبها من بيت ابن عمَّار عندما علمت بحقيقته الوصولية وعدم اهتمامه إلا بطموحاته، حتى ولو اضطره هذا إلى خداع الآخرين والتلاعب بهم، وذكرت هامشيًّا خياناته لها، لكنني عرفت أن هذا هو السبب الحقيقي في هروبها.

هربت إلى أراضي الفلاحين على النهر بقرب لبلة، فلم تبعد عن إشبيلية، وهناك عملت في بيع اللبن ولطمتها الحياة قليلًا حتى تزوجت مزارعًا، وأصبح لها عدة أبناء تعيش معهم حياة الفلاحة البسيطة. تخامرها ذكرياتها القديمة أحيانًا فتتعذب، لكنها توقفت عن التفكير في الهروب أخيرًا بعد أن منحها الله فرصة أخرى، وتعيش الآن حياة عادية مع أسرتها، الحياة العادية التي لطالما حلمت بها وتمنتها أمي، فقد كتبت في إحدى صحائفها: «هذه الفتاة تعيش أحلامي».

أما عني أنا، ففي هذا اليوم المشؤوم حين دخل البربر قصرنا وتبعهم العامة فنهبوا ودمروا كل ما قابلوه، خطفني يومها ثلة من الرجال يتبعون تاجرًا للرقيق مع من خطفوا من جواري القصر. عشت حياة الجواري التي عاشتها أمي في شبابها. كومونا في غرف صغيرة وحممونا ونظفونا. العري هناك رخيص لا يشبه التعري للاستحمام في القصر مع النساء أو في الحمَّامات الكبيرة، العري هناك مهين وقذر، كأنه اغتصاب لكل بنت قبل أن تُغتصب فعليًّا.

وبعد أن تزينا بزينة رخيصة ولبسنا أثوابًا عارية بفجاجة، ساقونا إلى سوق بيع الجواري. لم تتوقف دموعي، وكانت الجواري اللاتي يُبعن من جديد والبنات اللاتي لا أعرفهن يرثين لحالي، بعضهن يعرفنني، وبعضهن يدركن أنني سليلة حسب ونسب. وقفنا جميعًا تحت الشمس يمسك الدلَّال بإحدانا من ذراعها، ويعدد في محاسنها ومفاتنها إلى أن تُباع فينتقل إلى الثانية، لم أُبَع في اليوم الأول لأن دوري لم يأتِ بعد، لكن التجار والبائع كانوا يتهامسون أنني سمراء مجعدة الشعر وربما خرساء، وبيعتي ستكون صعبة.

في اليوم التالي في السوق وعندما جاء دوري، ناداني الدلالون بأنني فتاة مسلية وظريفة وملفوفة القوام أصلح لأن أكون سُرية، فلم يتحمس أحد، لكن عندما قالوا إنني من جواري قصر المعتمد بن عبَّاد انتبه الناس، وبدأ الطلب عليَّ يزداد. رجل كبير في السن كان أكثرهم إصرارًا، دفع فيَّ خمسين دينارًا وأخذني في يده عائدًا إلى بيته. في الطريق سألني إن كنت جائعة أو بردانة، ولم أُجِب، على الرغم من أنني كنت أتضور جوعًا وبردًا، وبمجرد أن دخلنا بيته، طلب من جارية أخرى تكبرني في السن بنحو عشرة أعوام أن تطعمني وتسقيني، لكن الخوف غلب كل شيء فلم آكل.

أسكنوني في غرفة بها فراش وصندوق كبير ومائدة زينة عليها مرآة، وأخبرتني الخادمة بأن

عُرابة ابن مولاها العبسي سيدخل عليَّ فانهرتُ. واستني بكلمات لم أسمعها، وعندما خرجَت حاولتُ ستر نفسي قدر المستطاع، ولم أجد إلا غطاءً خفيفًا للفراش فلففته حول نحري وبطني، حتى إذا دخل عُرابة فزع من منظري وأنا متورمة العينين من أثر البكاء وملفوفة بغطاء الفراش. بكيت بصوت عالٍ حتى أنهاه عما هو مقدم عليه، فإذا به رقيق لطيف يهدئني، ويطلب مني الجلوس، ويؤكد لي أنه لن يمسني إلا إذا وافقت. شعرت بالاطمئنان من حديثه، فأطعته وجلست. سألني:

- هل لكِ حبيب؟

أجبته:

- لقد أتيت إلى هنا بالخطأ، أنا لست جارية.

سألني:

- إذن من تكونين؟

قلت:

- أنا بثينة بنت المعتمد بن عبَّاد.

اتسعت عينا الشاب، وحاول استطلاع الأمر بالنظر إلى وجهي فأجابه كل شيء فيَّ.

خرج إلى أهله وسمعتهم يتحدثون، وفي الحديث ترحُّم على حال أبي ودعاء له. كانوا يذكرون مآثره وفضائله، ثم أتوني مهللين بفرحة وبشاشة، أبوه وأمه وأختاه، احتووني وطمأنوني، وأقروا بأنهم من هذه اللحظة سيصبحون لي أهلًا. عشت مكرَّمة في هذه الغرفة أيامًا طويلة، ولم توافق الأم على أن أساعد في أعمال البيت قَطُّ، وفي يوم طلبت منهم الخروج ووافقوا، فخرجت قاصدة حبيبي السري، والذي كان أحد جنود أبي. عندما وجدته وأظهرت نفسي له، تنكر لي، ناديته فأجابني كأنه غريب، وكأننا لم نكن نتقابل سرًّا في الحديقة نتبادل كلمات العشق، ونرسل إلى بعض رسائل الغرام، نكرني وذهب إلى طريقه وعدت إلى بيت العبسي.

في الحقيقة لم أبكِ أو أتألم من هذا السلوك، فأكثر ما كان يؤلمني هو ما آل إليه أهلي، وأنني لم أشاطرهم هذا المصير. مرت ليالٍ أخرى طويلة وعائلة العبسي ينقلون إليَّ أخبار أهلي في الأسر وأخبار الأندلس وهي تحت يد المرابطين. كل يوم تزداد محبتي لهذه العائلة ولكرمهم ولوفائهم. وفي ليلة من الليالي، باح لي عُرابة برغبته في نكاحي. قلت له:

- لقد سألتني إذا كان لي حبيب، وها هي ذي إجابتي، نعم كان لي حبيب لكنني كنت صغيرة ولم يكن رجلًا.

قال:

- لا يهمني الماضي، ما يهمني هو ما سنعيشه معًا بعد الآن.

قلت وقد ارتجف قلبي بشعور حقيقي:

- نبدأ من جديد!

قال:

- أنكحك كما ترغبين.

قلت:

- أنا حرة وبِكر، لا أحل لك إلا بعقد النكاح إن رضي أبي بذلك.

قال:

- إنها السعادة بعينها، لكن كيف وهو بأغمات؟

قلت:

- أكتب له رسالة وأنتظر الرد.

قال متخوفًا:

- وماذا إذا لم يرد؟

قلت:

- إن أكثر ما يحبه أبي هو الرسائل الشعرية، وأنا ابنته، وداؤه دائي.

٥

اسمَع كَلَامِي واستَمِع لمَقَالَتي

فَهيَ السُّلوكُ بدَت مِنَ الأجيَادِ

لَا تُنكِروا أنِّي سُبِيتُ وأنَّني

بِنتٌ لِمَلكٍ مِن بَنِي عَبَّادِ

مَلكٍ عَظِيمٍ قَد تَوَلَّى عَصرُهُ

وكَذا الزَّمَانُ يَؤولُ للإفسَادِ

لمَّا أرَادَ اللهُ فُرقَةَ شَمْلِنَا

وأذَاقَنا طَعمَ الأسَى عَن زَادِ

قَامَ النِّفاقُ عَلَى أبي في مُلكِهِ

فَدَنَا الفِرَاقُ ولَم يَكُن بِمُرَادِ

فَخَرجتُ هَارِبَةً فَحَازَني امرُؤٌ

لَم يَأتِ في إعجَالِه بسَدَادِ

إذ بَاعَني بَيعَ العَبِيدِ فَضَمَّني

مَن صَانَني إلَّا مِنَ الأنكَادِ

وأرَادَني لِنِكَاحِ نَجلٍ طَاهِرٍ

حسَنِ الخَلَائِقِ مِن بَنِي الأنجَادِ

ومَضَى إلَيكَ يَسومُ رَأيَكَ في الرِّضَى

ولأنتَ تَنظُرُ في طَرِيقِ رَشَادي

فَعَساكَ يَا أبَتي تعرِّفني بِهِ

إنْ كَانَ ممَّن يُرتَجَى لَودَادِ

وعَسَى رُمَيكيةُ المُلوكِ بِفَضلِها

تَدعُو لَنا باليُمنِ والإسعَادِ

بكى المعتمد واعتماد بعد قراءة هذه الرسالة، أمسك بيدها وربتت على كتفه وراحا يحمدان الله على أنه أنقذ بثينة من مصيرها الغابر. تبادلا مقاطع بعينها من الرسالة، مشيدين بحكمتي وتعقلي. تبكي اعتماد لأن هذه هي اللحظة التي تمنت أن تعيشها لسنوات، وهي ترى ابنتها تتزوج وتشاركها كل الاستعدادات لذلك، وتعيش معها سعادة الحب والحياة الجديدة، لكن قضى الله بأن تسمع نبأ زواج ابنتها الكبرى من بعيد، وقد انقطعت سبل أختيها للزواج وهما أسيرتان في هذا السجن، أما المعتمد فكان يبكي سعادة وفخرًا لأمر آخر؛ بلاغة ابنته.

كتب لي من ضمن ما كتب في رسالة تشهد على مباركة الزواج:

بُنَيتي كُوني بِهِ برَّةً فَقَد قَضَى الدَّهرُ بإسعَافِهِ

وأشار إلى حزنهما الشديد لفقدي في الميناء، لكنهما في الحقيقة فقداني في القصر ليلة أن هجم عليه الغوغاء، يوم لم يرَ أحد ما بين يديه ولم ينتبه الأب ولا الأم لغياب أحد العيال. توالت رسائلي لهما كلما سمحت الفرصة ووجدت مسافرًا لأغمات، لكنني لم أصحح لهما هذه المعلومة قَطُّ.

٦

في ليل جافٍ تتسلل فيه النسمات في تعطُّف لتكسر حدة الحرارة، نائمة عند خاصرته، تضم ذراعيها بالقرب من صدرها، وتلف ساقيها على قدميه المقيدتين، لا تعرف من منهما يستمد الدفء من الآخر. تسمع نهنهته فتلتصق به أكثر، يجافيها النوم لسبب إضافي للغم، آلام الظهر التي باتت مبرحة، وتضربها كل يوم بشدة من العنق إلى الكتف إلى نهاية الظهر، تحاول كتمها بصعوبة عن زوجها المقيد الذي يكابد آلامًا أعظم، لكنها في هذه الليلة أفلتت آهة واحدة، نهضت بعدها متذرعة بالحر لتنام مستندة إلى الجدار في وضعية تريح ظهرها بعض الشيء.

لكن المعتمد لم يغفل عن هذه الآهة، ولم يفُته ما آلت إليه زوجه، فبعث أبا هاشم ليستدعي جاره

ناصر الشاعر الذي أقام صداقة مع المعتمد، وطلب منه أن يرسل إلى أبي العلاء بن زهر الطبيب الإشبيلي الذي يصادف وجوده في أغمات، ليستقدمه لعلاج بعض كرمائه. ولم يتردد ابن زهر فأتى وكشف على المعتمد، وعلى اعتماد وحتى على بنتيه، كانوا جميعًا يعانون الهزال، والمعتمد يعاني جروح القيد. أما اعتماد فقد ارتاب ابن زهر في كونها تعاني ضعفًا في القلب وكتب لها دواءً مهدئًا، لكنه لم يصارح المعتمد وصارح ثناء الابنة الكبرى، وطلب منها أن تساعد اعتماد على ألا تقوم بجهد وألا تتعرض لحزن، وهما الشيئان اللذان لا تفعل غيرهما. ثم دعا للمعتمد بطول البقاء، وذكَّره بهدية نفيسة أهداها إليه في إشبيلية ليفتح بها مشفى لعلاج الناس بأجر بخس ومن دون أجر. بعد أن غادر الطبيب وجدوا على حائط البيت كتابة تقول:

فَإنْ تَسجُنُوا القَسْرِيَّ لَا تَسجُنُوا اسمَهُ

ولَا تَسجُنُوا مَعرُوفَهُ في القَبَائِلِ

في هذه الأثناء أتى الضيف الثالث، بعد أربعة أعوام من الأسر. كان المعتمد في فراشه، والبنتان في السوق مع أبي هاشم لبيع الغزل، واعتماد تغالب آلامها وهي تجلس على الأرض تطحن الشعير حين سمعت الباب ينفتح ورجل يدخل. نظرت إليه وضيقت عينيها قليلًا لتتبين ملامحه. شعرت بحدث روحاني قوي في المكان، كأن زوبعة من المشاعر حلت على البيت، لكنها مع ذلك لم تتعرَّف على الرجل، كأنها رأته من قبل في زمن بعيد، وقد أصبح كل شيء بعيدًا.

تزيد من تركيزها، والرجل يقف مرتبكًا ولا يحول بصره عنها، يفتح شفتيه عدة مرات من دون أن ينطق. تنهض ببطء وقد تبدى لها أمر في أعماق وعيها، لكن عقلها يرفض أن يصدقه، يقترب الرجل ويخلع عمامته فيظهر شَعرًا مجعدًا به شيب، تلوح لها فكرة لا تستطيع أن تتجاهلها، فكرة مضيئة كبرق في السماء، لها صوت الرعد في روحها وأنين بكاء المطر. نفضت يديها من أثر الطحين في جلبابها. اغرورقت عيناها وهي تحاول أن تطرح سؤالًا عن شيء تيقنت منه، لكنه سبقها ونطق باسمها مترددًا بيقين:

- اعتماد!

قالت هي بيقين عندما سمعت نبرة صوته التي لم تبرحها:

- حُسين.

أسقط الرجل حملًا كان يمسكه في يده، وأسقط عمامته وأجهش بالبكاء، بينما تنهمر الدموع من عينَي اعتماد وهي تقترب منه، وتحاول أن تمس جسده الذي امتلأ كثيرًا عن صورتها عنه. وضعت يدها على كتفه فأمسك بيدها الأخرى يقبِّلها، سحبتها وهي تقول:

- لا تفعل.

بينما تُقبِّل كتفه، ويُقبِّل رأسها ونهنهة البكاء تلفُّهما.

- ثلاثون عامًا يا حسين؟

- ستة وثلاثون يا اعتماد، وثلاثة أشهر.

- إنه زمن آخر، كيف عرفت مكاني يا أخي؟

- أتتبع مصيرك منذ ثمانية وعشرين عامًا.

- كان من الصعب عليَّ أن أعرف مكانكم، لقد حاولت طوال هذه السنوات، لكن ربما أنني لم أحاول كما ينبغي.

- لا تلومي نفسك، فبماذا نفعتني المعرفة؟!

- لماذا لم تجدني إذن؟

- كان عليَّ أن أوفر المال والوقت أولًا، فالسفر إلى الأندلس ليس سهلًا على تاجر صغير على باب الله مثلي، لكنني فعلتها ووجدتك، ورأيتك مرتين، ورأيت أطفالك حينها...

قاطعته اعتماد:

- لماذا لم تقابلني؟ من منعك عن هذا؟

قال:

- لم يمنعني أحد، عندما رأيت النعيم الذي تعيشين فيه خفت عليكِ من الماضي، خفت أن أربك حياتك التي رأيتها أزهى ما يكون، وما كانت زيارتي لأبدد لك صفو معيشتك، إنما لأطمئن عليك وعلى حالك ولأملأ عينَي من صورتك، حتى أعرفك من فوري عندما نلتقي ثانية.

قالت:

- لكنك لم تعرفني من فورك، الكبَر أم الفقر؟

قال:

- الوحشة، توحشتك كثيرًا حتى بت لا أصدق أنني رأيتك.

أمسكت اعتماد بيده تحاول أن تُقبّلها، لكنه جذبها منها وقبَّل رأسها وهي تضمه. سألته وهي تشعر بأنها غارقة في حلم تخاف أن ينتهي:

- كيف نجوتم يومها؟ ما الذي حدث لكم؟ أين أبي وأمي الآن؟

قال:

- كل شيء بخير، لكن لم يكن كذلك يومها عندما عدنا إلى مصر من دونك.

سمعا صوت المعتمد ينادي متسائلًا:

- يا أم الربيع، من هنا؟

أمسكت اعتماد يد أخيها تجره، ودخلت على المعتمد الممدد على فراشه وهو مكبل القدمين، قالت:

- إنه حسين أخي يا أبا القاسم، أحسبك تعرفت عليه من قبل!

٧

يمشي المعتمد مشية بطيئة ومؤلمة وهو في قيده، لكنه يضطر إليها حينًا لقضاء حوائجه، وحينًا يجبر نفسه عليها حتى لا يتيبس جسده، لكنه في هذا اليوم لم يغادر فراشه، وهرب من اعتماد في نوم طويل، تاركًا إياها مع أخيها وأبنائها. يسمعهم وهم يتحدثون ويأكلون الحلوى التي أحضرها أخوها، يضحكون ثم يبكون. تراه اعتماد وتشعر برغبته في الهروب، لكنها لا تستطيع أن تتبين مشاعره، فمهما كانت درجة المحبة لا يمكن لإنسان أن يتقمص شعور الآخر ويدركه، حتى لو كان جزءًا من روحه.

في الليل والبنتان نائمتان في غرفتهما، وأبو هاشم نائم في الساحة مع خاله، جلست اعتماد على فرشة المعتمد تنظر إليه حتى يتوقف عن التظاهر بالنوم. فتح عينيه وعلم في هذه اللحظة أنه يستطيع أن يهرب من العالم أجمع إلا من عينيها. قالت:

- العزلة ليست دائمًا عقابًا، أحيانًا بعد الزخم الكبير تأتي الوحدة كهدية ثمينة.

- ليست عزلة ولا هدية، إنه القدر وأنا أومن به.

- لكنك لم تترك القدر يأخذ مساره، وغيرته إلى المسار الذي تريده.

- ماذا تقصدين يا اعتماد؟ إن حياتنا لا تحتمل الألغاز.

- ولأنها لا تحتمل الألغاز ولم يعد أمامنا وقت للأسرار، ما رأيك في أن نتصارح؟

- لم أعرف في حياتي كلها مثل الصراحة مع الجميع وبالذات أنتِ.

- ربما تكون لديَّ أنا أسرار.

صمت المعتمد متفكرًا، ثم عقبت اعتماد:

- كنت دائمًا قليل الكلام وها قد أتى الوقت لنتصارح... حتى لا أموت وفي نفسي شيء منك أو في نفسك شيء مني.

رأت جسده ينتفض قليلًا، وقال بنبرة حزينة:

- أطال الله في بقائك يا أم الربيع!

جلست قبالته وقدمه ملتصقة بها، تنهدت قبل أن تسأله:

- لنبدأ من زواجك.

رد المعتمد متعجبًا:

- أتنكرين عليَّ أن تزوجت وأنا ملك؟

أمسكت بيديه وقالت:

- دعك من الألقاب الآن، نحن الآن رجل وامرأته لا يحول بينهما وبين الموت إلا أيام قليلة. لماذا تزوجت يا محمد بعد كل ما كان بيننا؟ بعد عشقنا ولياليا؟ بعد أن وجدنا بعضنا؟ بعد كل ما منحته لي؟

ردد:

- بعد كل ما منحته لكِ؟

قالت:

- لا أقصد أنني لم أمنح في المقابل، تعرف أنني...

قاطعها:

- لقد منحتني أجمل ما يمكن أن تمنحه امرأة لرجل.

أصرت:

- لماذا تزوجت بعدي مرتين؟

تنهد ثم قال:

- كنت ولدًا وحيدًا بعد أن قُتِل أخي، لم يكن لي أخ أشدد به أزري وأشركه في أمري، عشت الوحدة والخوف في صبايا، ولم أرِد أن يكون لي ولد يعاني ما عانيته، ولسبب آخر، رأيت في حلمي أن أولادي يموتون، رأيتهم في الحلم وكنت مقيد الحركة، لم أستطع أن أنقذهم ولا حتى أن أصرخ. تكرر هذا الكابوس حتى بت أريد قبيلة من الأبناء، خشيت عليكِ من أن تتحملي هذا وحدك، والآن قُتِل لي ثلاثة أبناء وضاع اثنان، تحقق الكابوس.

دمعت عينا اعتماد قبل أن تقول:

- كلهم أبنائي أنا.

سألها المعتمد وهو يغالب تأثره:

- وأنتِ يا اعتماد... لماذا أخفيتِ عني أمر ابن عمَّار معك؟

اتسعت عينا اعتماد، وهي تدرك أنها جنت على نفسها أيضًا بهذه المصارحة. قالت بسرعة حتى لا تظهر ارتباكها أمامه:

- ليس لي أمر مع هذا الـ...

قاطعها:

- اعتماد، أنا أعرف كل شيء.

- ولماذا لم تسألني حينها؟

- لديَّ أسبابي. في البداية لم أكن أعرف وعندما عرفت لم أرِد أن أُخرج منك ما لا تريدين البوح به، فأعكر صفو حياتنا.

- ماذا تعرف يا محمد؟

- تجاوبين أسئلتي بأسئلة! ومع ذلك فقد كنت أعرف أنك قابلتِه قبل أن يشتريك الرميكي.

- لم أخبرك لأنه كان صديقك وكنت تحبه، أحيانًا ظننت أن محبتك له تساوي محبتك لي، كيف أجرحك فيمن تحب؟

- أتعرفين يا اعتماد، ما زلت لم أكره ابن عمَّار، ولم أكره ابن تاشفين وحتى أبا القاسم الهوزني الذي شكاني له من خلف ظهري، لم أكرههم لأنني ما زلت أذكر خيرهم. وأذكر ما أدخلوه على قلبي من سعادة في وقت من الأوقات، لقد سخرهم الله لي في زمن من الأزمنة ليساعدوني ويُسعدوني، حتى إذا ظهرت حقيقتهم، وانتهت حكايتهم تظل لديَّ ذكرى جيدة. ليست العلاقات السيئة إلا أناسًا كانوا في حياتنا ومنحونا الخير قبل الشر، فإذا ظهر شرهم ذهبوا، وبقيت الذكرى.

- ذكرى سيئة، ذكرى من الخراء، كثيرًا ما كنت أشير إليك بكُرهي لابن عمَّار وبسوء سلوكه، لكنك كنت تأبى أن تصدق إلا قلبك، لم يكن أمامي إلا أن أدعو الله أن ينير بصيرتك.

- وقد أنارها يا اعتماد، لكن لم يحدث ذلك مع يوسف بن تاشفين.

- لماذا كنت تكتب في يوسف شعرًا تمجد في بطولاته ونحن تحت العام الأول من أسره؟

- لأنني لم أنسَ فضله في الزلاقة.

لطمت اعتماد خديها في صمت، فتمتم المعتمد كتلميذ مهذب:

- لكنني توقفت.

سألته:

- وقمر؟ ما الذي كان بينك وبينها؟

قال المعتمد ببساطة:

- طلبتها للزواج، ورفضت.

على الرغم من آلام ظهرها نهضت اعتماد ودارت في الغرفة، وهي تمسك رأسها الذي يكاد ينفجر. قالت:

- تتزوجها يا محمد؟

قال:

- دخلتِ إلى غرفة ابن عمَّار يا اعتماد!

هبطت اعتماد على ركبتيها، لا تعرف ماذا تفعل، يقطعها الندم على أنها بدأت تلك المصارحة. قالت بنبرة ضعيفة:

- أقسم لك إنه لم يكن بيننا أكثر من الحديث.

قال:

- وذهبتِ إلى بيته.

بكت اعتماد وهي تقول:

- أقسم بأولادنا، برحمة من مات منهم وبحياة من يعيش، لم يكن بيننا إلا حديث.

قال:

- رأيت مشبك شعرك عنده، المشبك الذي يشبه الفراشة.

قالت منفعلة:

- إنه لقمر وليس لي، كان لها واستخدمته حتى أتت إلى قصرنا فأعدته إليها، أقسم لك!

قال بهدوء:

- أصدقك يا اعتماد، لا تقسمي مرة أخرى، أصدق وأسامح، ولو كان غير ذلك لمَا قلته الآن، لكنني وقتها لم أستطع تجاوز هذه الأمور، انتظرت أن تصارحيني، وعندما لم تفعلي فكرت في الزواج بقمر.

قاطعته:

- لتعاقبني؟

قال:

- كنتِ مشغولة ومنعزلة وترفضين مشاركتي حياتك وحياتي في هذا الوقت، وكانت هذه طريقتي لأهرب من كرهك، لم أرِد أن أكرهك.

استمرت في البكاء فمسح دمعها وقال:

- لا بأس عليكِ.

سألته:

- ولماذا رفضت أن تتزوجك؟

قال:

- حقيقة، أنا من رفضت بعد أن صارحتني بعلاقتها السابقة بابن عمَّار، كانت أشجع منك.

قال جملته الأخيرة مبتسمًا، فردت عليه اعتماد:

- أحبك وأفديك ولا أريد أن أخسرك. هذا هو الفرق.

قال:

- لهذا شربتِ الخمر المسموم بعدي في ليلة ولادة بثينة؟

قالت:

- حتى هذا يا محمد!

رد عليها بتربيتة على يديها، سألها:

- لماذا لم تغادري مع عمر؟

قالت:

- أما هذا فلا أرد عليه.

وقبَّلت يديه، ثم اعتدلت في جلستها وسألته:

- ما الذي قلته لابن عمَّار قبل أن تقتله؟

قال:

- قلت له إنه لن يكون أعز عليَّ من أخي الذي قتله أبي بيده.

وجم المعتمد فعادت اعتماد تسأله:

- وهل أرسلت إلى الأذفونش تستنجد به، مثلما زعم ابن تاشفين واتخذها ذريعة ليدخل إشبيلية؟

مسح على ذقنه لثوانٍ وقد سرحت عيناه في ظلام الغرفة، ثم قال:

- إنني لم أكره في حياتي مثل كرهي لهذا الرومي، وأنا من قال: «رعي الجمال عندي خير من رعي الخنازير»، وأنا من رفض معاهدة ابن عمَّار معه، وتحينت الفرصة حتى أقتل رسوله وأرفض دفع الجزية، ثم أتيته بجيش من المرابطين وخضت معهم غمار الحرب بنفسي وهزمناه. لكنني أرسلت إليه يا اعتماد، لقد أجبروني أن أرسل إليه، أجبرني ابن تاشفين الذي أراد أن أخضع له ولحكمه على شعبي وفي أرضي وبلدي، وأجبرني ملوك الطوائف عندما لم يهبُّوا لنجدتي، وهؤلاء لا ألومهم لأنني لم أنجدهم في مصائبهم، لكن ابن تاشفين دفعني لأن أمد يدي للخنزير، أنا ملك هذه البلاد، وكنت أحاول الحفاظ عليها بكل ما أتيح لي من فرص، لكنهم صدقوا يا اعتماد وأخفقت، أنا الجاني على نفسه وأنا الحافر بيده لرمسه.

قالت وهي تربت على يديه وساقيه:

- لا بأس عليك يا سيدي وحبيبي.

انتظرت دقائق، واستجمعت قوتها لتسأله السؤال الذي بدأت هذه المحادثة الغريبة المؤلمة من أجله:

- لماذا أخفيت عني أمر حسين أخي وزيارته إلى إشبيلية يا أبا القاسم؟ ألم يكن بيننا عهد أن تساعدني على أن أجد أهلي؟ لماذا حُلت بيني وبين ذلك؟

- ألم تسألي أخاكِ؟

قالت:

- قال إنه لم يرد أن يقترب مني حتى لا يربك حياتي ولم أصدقه؛ فمن يقطع كل هذه المسافة ثم يعود خاوي اليدين حتى من كلمة ممَّن كان يبحث عنها!

قال:

- ألم تسأليه كيف ضعتِ منهم يا اعتماد؟

انقبض قلبها ولم تنطق، إنما سألته بعينيها أن يكمل، فأكمل:

- لقد بحثت عن أهلك منذ أن تعاهدنا، أرسلت رسلي إلى مصر ليأتوني بالخبر، وعندما لم أصدقهم أرسلت آخرين، وأتوني بالخبر نفسه، أخفيت عنكِ الأمر ولم أصدقهم، حتى إذا جاء أخوكِ فطلبته وجالسته بنفسي وأكد لي ما عرفته سابقًا.

قالت اعتماد:

- ماذا عرفت؟

قال:

- عرفت أن أهلك لم يضيعوكِ يا اعتماد، لم يغادروا مصر من الأساس، لقد باعوكِ لتاجر رقيق أندلسي، ركبوا معك البحر مسافة بسيطة ثم تركوك معه وعادوا إلى الشاطئ.

قالت:

- أنت تكذب.

صمت المعتمد محاولًا أن يمنحها الوقت لتستوعب ما قاله، ثم أكمل بهدوء:

- لهذا لم أرد أن تعرفي، وطلبت من أخيك ألا يراكِ حتى لا تعرفي ما أخفيته عنك وتنهار ذكرياتك الجميلة التي لطالما حكيت لي عنها.

شعرت اعتماد ببرد شديد على الرغم من حرارة الجو، وبدأت ترتعد وهي تغالب النشيج، لم تكن تدري من قبل أن امرأة في الثانية والخمسين يمكن أن تبكي مثل الأطفال، فتح لها المعتمد ذراعه

فنامت تحتها، وتمنت ألا تصحو من هذا النوم الذي يكسر أضلعها.

٨

تنام على دثار ثقيل خشن له رائحة الشحم غطتها به أمها. نامت طوال الرحلة على دفء كتفها المشدودة، لم يطُل الدثار قدميها فشعرت بهما كقطعتَي ثلج يمر الصقيع من بينهما ويخترقهما. في أثناء غفوتها كانت هناك أهازيج قديمة، وأصوات ركض العيال في الحارة، وطعام قليل مالح، وعطانة تتسرب في روحها ببطء، وجرة عسل وقفت غريبة بين أدلاء الماء، وصوتا أبيها وأمها يتهامسان همسًا كالبكاء، وخيوط النور تحاول أن توقظها في العتمة، لكنها ترفض أن تصحو، ترتكز على كتف أمها كمرسى مؤقت، وهي تدعو الله ألا تصحو إلا عندما تعانق السفينة الأرض، تسمع امرأة تقول: «مسكينة». تفتح عينيها فإذا بها ترتكز على كتف امرأة غريبة، تنادي أمها، لكن لا أحد يجيب والمرأة تردد: «مسكينة».

صحَت من نومها وهي تتذكر هذا المشهد القديم كأنه حدث للتو، تقول لنفسها: «لم تكن أمي». اندفعت إلى الساحة فوجدت أخاها مستيقظًا يلاعب أبا هاشم، تفاجأ من عينيها المتورمتين. صرفت الصغير وجلست بجوار أخيها، قالت له مباشرة بصوت مبحوح:

- هل حقًّا بعتموني لتاجر رقيق أندلسي؟

ارتبك حسين وعدل من جلبابه وهو يرد:

- هل أخبرك زوجك؟

قالت:

- إنه لا يكذب أبدًا.

قال:

- لم يكذب يا اعتماد.

شعرت بالضياع، وبأن الأرض تميد من تحت قدميها. أكمل حسين:

- كانت مجاعة قاسية وسنوات مظلمة، الناس كانوا يبيعون أبناءهم، البعض يأكلونهم، اللصوص يخطفون الصغار والكبار ليبيعوهم وأحيانًا ليأكلوهم، كانت طامة كبرى حلت بمصر، أنا لا أبرر لهما ما حدث، لكنني أنقل إليك دوافعهما، وقد خاصمتهما لسنين، وخاصمتهما أختكِ، وقد ندما.

قالت ساخرة:

- ندما؟

قال وهو يركع تحت قدميها:

- لم أكن أعلم ما في نيتهما في هذه الليلة، كنت مثلك أظن أننا مسافرون، لكننا عدنا من دونك. لم أنَم ليلة إلا وداهمني هذا الكابوس، لقد عددت أيام غيابك، وكنت أبحث عنك عند الميناء كل حين، أسافر الإسكندرية لأسأل الوفود من الأندلس عليكِ، وعندما رصدتك ضحيت بكل أموالي وجئتك، سامحيني يا اعتماد.

قالت كأنها لم تسمعه:

- لكنني شعرت بحُمَّى ليلتها.

قال:

- لقد سقوكِ دواءً يفعل بك هذه الأفاعيل.

تأوهت بصوت مرتفع وهي تغالب دمعها، ثم سألته:

- لماذا أنا؟ لماذا لم يبيعاك أو يبيعا أختي؟

قال:

- أختكِ كانت صغيرة والتاجر أراد من هن في عمركِ، وأنا كنت بدأت في العمل وجلب المال.

قالت:

- كنت أنسب ضحية.

قال:

- وقد عوضك الله بما هو أفضل.

صمتا والعالم يدور حولهما وبهما. قال حسين:

- كذبت عليكِ عندما قلت إنهما بخير، لقد مات...

قاطعته:

- لا أريد أن أعرف من مات ومن يعيش.

- ألا تريدي أن ترسلي إلى من يعيش رسالة؟

- الرسائل لا تُكتب للموتى.

- لقد استأذنت المرابطين في عودتك معي إذا أردتِ.

- بل أموت مع زوجي.

٩

بعد مغادرة أخيها، صنعت اعتماد وليمة متواضعة، ورصتها بعناية شديدة لم تفعلها منذ وطئت قدماها أغمات، وفي أثناء تناولهم الطعام كانت تضاحكهم وتأمل معهم ولهم في مستقبل أفضل

عندما ينتهي الأسر بقدرة من الله، تردد:

- سينتهي، سينتهي.

بعدها بوقت قصير دخل الحراس ونزعوا قيود المعتمد بعد أن شفع له كرماء إشبيلية عند يوسف بن تاشفين، خرت اعتماد ساجدة تبكي من فرط سعادتها. أما أبو هاشم فقفز على أبيه وأمطره بالمحبة، والبنتان ضمتا أباهما وأمهما. انتبهت أن لها يومين تسير على قدمها بشكل طبيعي، راح عنها العرج، وحتى الألم في كتفها أصبح أخف، كأن طيفًا من الشفاء مر بهم في هذه الساعة.

أخرج المعتمد من جيبة قطعة من الكعك بالسكر لا تعرف كيف تحصل عليها ومنحها إياها، تناولتها وهي تبتسم له وتربت على يديه. دخلت اعتماد للنوم في هذه الليلة هانئة البال، ارتسمت على وجهها ابتسامة بعد غياب طويل، نامت أفضل نوماتها في جوار المعتمد، ثم شعرت بأن الحياة غريبة، غريبة وبعيدة، وبأن الأشياء حولها تصغر حتى تختفي، وحدائق إشبيلية تعود، وزقزقة الطيور وصوت الهواء يضرب أوراق الشجر. قرة العين تأتي من بعيد وفي يدها صينية ممتلئة بالحلوى، تستعجلها اعتماد فرحة، والظافر والراضي والمأمون يقبلون عليها بابتسامة الوحشة فيبتسم قلبها وتشير إليهم مهللة وهي تجلس تحت شجرة البرتقال، تمد ساقيها الناعمتين الجميلتين على الأرض وتتنفس ببطء.

في النهار نادى رجل من أغمات نداءً يخصها، النداء الذي تردد بعدها بأربعة أشهر على المعتمد:

«الصلاة على الغريب».

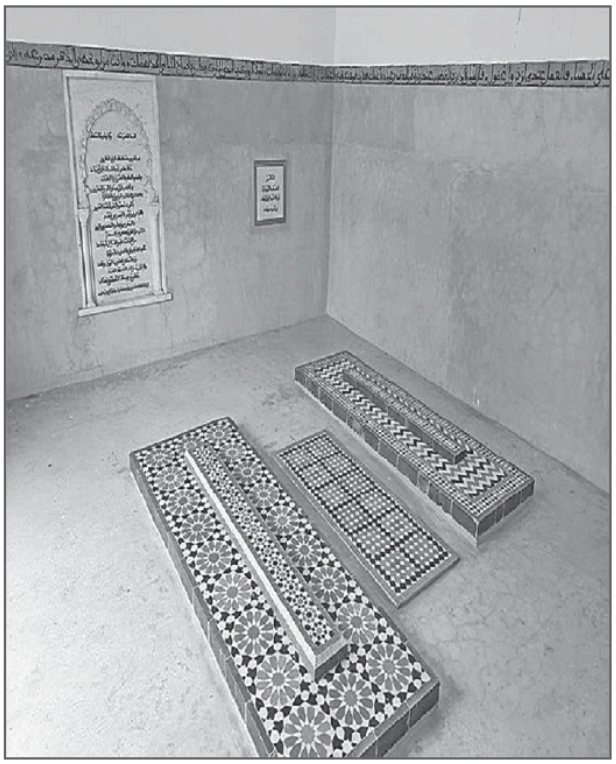

هنا قبر
اعتماد الرميكية
زوج المعتمد التي دفنها
في تعيمة ونوفمبر

شكر وتقدير

لهدى أبو زيد وأميمة صبحي وإلهام مزيود وداليا راشد وإبراهيم أحمد عيسى، لملاحظاتهم وآرائهم وأفكارهم التي استفدت منها. وممتنة بشكل خاص للباب المفتوح بيننا طوال رحلة كتابة الرواية وتحريرها، وللطفهم الذي لا يُقدر بثمن. ولأمن وجوري على محبتهما ووجودهما اللطيف المضيء في حياتي، الذي وفر لي الوقت والجهد للبحث والكتابة. ولناشري سيف سلماوي على اهتمامه بالعمل من بداية الفكرة وعلى تشجيعه الدائم والملهم.

المؤلفة

شيرين سامي، خريجة كلية الصيدلة، بجامعة القاهرة. صدرت لها مجموعة قصصية وأربع روايات، وهي: «قيد الفراشة» (٥ طبعات)، و«حنة»، و«من ذاق عرف»، و«الحجرات» (طبعتان)، ورواية للنشء «ابتسم لأكون أقوى»، والتي وصلت إلى القائمة القصيرة لجائزة اتصالات لكتاب الطفل عن فئة اليافعين (طبعتان)، وكتاب «١٥٤ طريقة لقول أفتقدك» (٣ طبعات).